تونس

الخلفية التاريخية والإجتماعية

تأليف
عادل أحمد سركيس المحامي
عضو اتحاد الكتاب

الكتاب: تونس.. الخلفية التاريخية والاجتماعية

الكاتب: عادل أحمد سركيس المحامي

الطبعة: ٢٠٢٢

الطبعة الأولى: ٢٠١٣

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم –

الجيزة - جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

APA

http://www. bookapa.com E-mail: info@bookapa.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

المحامي، عادل أحمد سركيس

تونس.. الخلفية التاريخية والاجتماعية / عادل أحمد سركيس المحامي

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٢٠٦ ص، ١٨*٢١سم.

الترقيم الدولى: ٨ – ٤٦٨ – ٩٩١ – ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوانض رقم الإيداع : ٥٧٧٧ / ٢٠٢٢

تونس

الخلفية التاريخية والاجتماعية

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

عهد جديد

إنــــي ســـأعمل علــــى إســـتعادة ثقـــة المــــواطن التونســـــي في الدولـــــة والعمـــــل الحكــــومي، وإعــــادة الأمــــل للتونســـــيين بمســـتقبل وظــروف حيـــاة أفضـــل. إن أهـــم وأكـــبر التحـــديات الــتي ســتواجهنا هــي إنقــاذ الدولــة مــن بــراثن الــذين يتربصــون بها في الداخل والخارج.

نجلاء بودن

أول رئيسة وزراء لجمهورية تونس

٢٠٢١/١٠/١١

مقدمة

تقع تونس في الشمال الغربي من قارة أفريقيا.. والواقع أنها تتوسط بلاد شمال أفريقيا، فإلى الشرق منها ليبيا ثم مصر.. وإلى الغرب منها الجزائر والمغرب.. ولكنها تنتمي إلى ما يطلق عليه اسم "المغرب العربي" الذي يضم الثلاث دول الغربية.

ويحد تونس شمالاً وشرق البحر الأبيض المتوسط، وتحدها جنوب ليبيا– طرابلس– والصحراء الكبرى، وتحدها غربا بلاد الجزائر.. وتبلغ مساحة تونس حوالي مائة وعشرين ألف كيلو متراً مربعاً.

تنقسم تونس– المعروفة تاريخيا باسم "أفريقية"– إلى ثلاثة أقسام طبيعية هي/:

أولاً: الجهة الشمالية، وبها مزارع خصبة وتضم جانبا كبيرا من وادي مجردة، ويطلق على هذا القسم إسم تونس الخضراء.

ثانياً: الساحل الشرقي، الذي يمتد من الناحية الشرقية على طول شاطئ البحر المتوسط ويضم أراضي خصبة غزيرة العمران كثيفة السكان.

ثالثاً: القسم الجنوبي، ويتكون من سهول عظيمة ومراعي شاسعة وواحات نخيل، تبدأ بعدها الصحراء الكبرى..

فالأرض التونسية– في معظمها– خصبة صالحة للزراعة وغراسة الأشجار... ومن أشهر منتجاتها الزراعية القمح والشعير والذرة وثمار الزيتون والنخيل والكروم، ومعظم فاكهة حوض البحر الأبيض المتوسط.

ويقسم المؤرخ حسن حسني عبد الوهاب تاريخ تونس إلى أربعة أدوار هي:

١- القرطاجني.

٢- الروماني.

٣- البيزنطي.

٤- الإسلامي، ويقسم الدور الإسلامي إلى خمسة أدوار هي:

١- العربي ٢- العربي البربري ٣- التركي

٤- الحسيني ٥- الوطني، منذ الاستقلال.

ونحن نرى أن ينقسم تاريخ تونس إلى ستة أدوار:

الأول: البربر قديماً، إلى قيام دولة قرطاج سنة ٨١٤ ق.م.

الثاني: القرطاجيون، وهم الفينيقيون الوافدون من مملكة فينيقيا على ساحل لبنان من سنة ٨١٤- ١٤٦ ق.م لمدة ٦٦٨ سنة.

الثالث: الرومان الغربيون من سنة ١٤٦ ق.م إلى سنة ٤٣٩م، لمدة ٥٨٥ سنة.

الرابع: الوندال- وهم قبيلة جرمانية قديمة استوطنت أسبانيا- من سنة ٤٣٩- ٥٣٣م. لمدة ٩٤ عاماً.

الخامس: الروم البيزنطيون من سنة ٥٣٣- ٦٧٠م.

السادس: العرب، من سنة ٦٧٠م. حتى الآن وينقسم بدوره إلى عدة فترات.

١. الحكم العربي الإسلامي من سنة ٦٧٠م.

٢. الحكم العربي البربري.

٣. الحكم العثماني من سنة ١٥٧٤– ١٧٠٥ لمدة ١٣١ سنة.

٤. الحكم الحسيني من سنة ١٧٠٥– ١٨٨١م لمدة ١٨٦ عاماً.

٥. الحكم الفرنسي من سنة ١٨٨١ حتى ١٩٥٦ لمدة ٧٥ سنة.

٦. الحكم الوطني، منذ إعلان الجمهورية التونسية في ٢٥ يوليو سنة ١٩٥٦ بالتخلص من الاستعمار الفرنسي الذي بدأ عام ١٨٨١، في نفس العام الذي بدأ فيه الاستعمار البريطاني يتحرش بمصر وبالثورة العرابية.. حتى استطاع –عن طريق الخيانة وحدها– القضاء على الثورة واحتلال مصر.. ولا شك أن بلاد تونس تعرضت للهجوم والغزو بسبب موقعها الجغرافي المتميز الذي جعل منها منطقة عبور بين شرق البحر المتوسط وغربه وبين أوروبا وأفريقيا.. وكان آخرها الاحتلال الفرنسي للبلاد عام ١٨٨١ وإعلان الحماية الفرنسية عليها في ١٢ مايو.

وقد قام الشعب التونسي بمظاهرات عاتية منذ ٩ ابريل سنة ١٩٣٨، استشهد فيها عدد كبير، كما تم إبعاد عدد آخر عن البلاد.. واضطرت فرنسا إلى الاعتراف بالاستقلال الداخلي لتونس في ٣١ يوليو ١٩٥٤.. وحصلت تونس على استقلالها التام عام ١٩٥٦ يوم ٢٠ مارس.. وتم جلاء آخر جندي أجنبي عن البلاد من قاعدة بنزرت يوم ١٥ أكتوبر سنة ١٩٦٣.. وتم الجلاء الزراعي للمستوطنين الفرنسيين يوم ١٢ مايو سنة ١٩٦٤، بعد حوالي ثماني سنوات فقط من الاستقلال.. في حين مازالت زيمبابوي –إحدى بلدان الجنوب الإفريقي– بعد عشرين سنة من إعلان الاستقلال في ١٨ ابريل سنة ١٩٨٠– تكافح لاسترداد أراضيها الزراعية من المستوطنين الانجليز الذين استولوا عليها منذ احتلال البلاد سنة ١٨٩٣.

وأهم مدن البلاد التونسية– حسب الكثافة السكانية– هي:

تونس العاصمة، وهي أكبر المدن التونسية وبها الميناء البحري الرئيسي والمطار الدولي (تونس– قرطاج) وهي تتكون من المدينة القديمة وبها جامع الزيتونة الشهير، والمدينة الحديثة.. وتمتاز ضواحيها الشمالية بجمالها الساحر وآثار مدينة قرطاج الفينيقية وقرطاجنة الرومانية..

وتوجد بمدينة تونس من شمالها الشرقي حارة أهلية ملاصقة لسور المدينة يفتح إليها أحد أبواب المدينة تسمى "حومة العلوج" وكثيراً ما يتساءل الناس عن سبب تعريفها بهذا الاسم، الذي تردد كثيراً خلال الحرب الأمريكية ضد العراق سنة ٢٠٠٣م.

فقد كانت العادة عند السلاطين من بني حفص، التسري بالنساء اللاتي ينتقوهن من سبايا البحر، ويتخذونهن جواري يطلق عليهن اسم (علاجي، جمع علجية) فإذا ولدت إحداهن أميرا، ميزت من بين المحظيات بالإجلال والتعظيم وصارت لها كلمة ونفوذ في البلاط الملكي..

وقد تلاحظ أن أمهات معظم السلاطين من بني حفص مسيحيات اعتنقن الإسلام بدون إكراه في الدين. وقد تزوج الأمير مُحَمَّد المنصور امرأة اسمها "ريم" أسرها القرصان في البحر وسيقت إلى تونس، وكان ابنها آخر السلاطين الحفصيين.

وفي عام ١٠٧٥ أسر بعض البحارة التونسيين فتاة من شمال إيطاليا كانت ذات جمال باهر، وقد أهديت إلى مراد باي المرادي –باي تونس في ذلك الوقت– فأدخلها في جملة جواريه وما لبث حتى تزوجها وصارت باية، أي أميرة، ورغم إصرارها على تمسكها بديانتها المسيحية فلم تحمل على تركها. وقد

تولى ابنها رمضان باي حكم تونس ١١٠٨م. ولما توفيت دفنها ابنها طبقاً للطقوس المسيحية وأقام على قبرها كنيسة مازالت قائمة حتى الآن قرب باب قرطاجنة.

صفاقس: تقع على الساحل الشرقي لتونس في منتصف المسافة تقريبا بين مدينتي المهدية شمالا وقابس جنوبا.

بنزرت: واسمها القديم هيوديايتوس، وتسمى مدينة المرجان وتقع في القسم الأخضر لتونس الذين يطلقون عليه اسم تونس الخضراء، حيث تغطي الخضرة كل مكان وتنمو غابات الأشجار على جبالها ومرتفعاتها.

قابس: تقع على الساحل الشرقي لتونس إلى الغرب من جزيرة جربة –التي جاء ذكرها في الأوديسة للشاعر اليوناني هوميروس– بأنها موطن البطل أوليس.

سوسة: وهي ثاني مدينة بعد تونس في الأهمية، واسمها القديم حدر موت أو حضرموت. وكانت مركزا فينيقيا تجاريا هاما قبل إنشاء مدينة قرطاج. وقد سميت في عهد الوندال باسم هونريكوبوليس، وفي العصر البيزنطي باسم يوستينيا بوليس، وعرفها العرب باسم سوسة.. وتتميز بمشروب الشاي وزهر الياسمين رمز الضيافة والترحاب.

القيروان: ثاني عاصمة إسلامية في شمال أفريقيا –بعد مدينة الفسطاط في مصر– أنشأها عقبة بن نافع سنة ٦٧٠م.

وخلال حكم الدولة الأغلبية سنة (١٨٤هـ– ٢٩٦هـ) والدولة الفاطمية (٢٩٧– ٣٦٢هـ) أقيمت حول القيروان وقريبا منها، ثلاث مدن كانت مقراً للحكام وأعوانهم. وقد ازدهرت هذه المدن ازدهاراً عظيماً.. وهذه المدن هي

القصر القديم ورقادة وصبرة.

وقد تخربت هذه المدن التي قامت حول القيروان، ولم يبق منها سوى بعض الأطلال البالية، ولكن بقيت مدينة القيروان شامخة حتى اليوم.

نابل: وكان اسمها نيابوليس في العهد الروماني- وهي مركز تجاري نشيط تزدهر فيه الصناعات التقليدية وأهمها صناعة الحصير والفخار.

المهدية: أسسها الفاطميون سنة ٩١٧- القرن العاشر الميلادي- وكان حصنا منيعا على الساحل الشرقي لتونس.

المنستير: موطن الحبيب بورقيبة، وبها تمثال له في طفولته يتوسط ميدان حي إشراقة، وقد أقام بها مقبرة فخمة واسعة الأرجاء لتكون مستقراً له عند وفاته.. وعندما زرتها في عام ١٩٨٩، قالت لي إحدى السائحات الهولنديات أنها المرة الأولى التي يزور الناس فيها مقبرة مازال صاحبها على قيد الحياة.. وقد أخذت المنستير اسمها من دير للرهبان المسيحيين، تحول فيما بعد إلى رباط (قلعة).. وكان اسمها القديم روسبينا.

والشعب التونسي يشعر بتقدير كبير للمنجزات التي قام بها الحكم الوطني في البلاد، فقد كان عدد تلاميذ المدارس الابتدائية والثانوية عام ١٩٥٦ أكثر من ٢٤٠٠٠٠ تلميذاً، أما الآن فقد تخطى عددهم المليونين... وزادت نسبة الفتيات إلى أكثر من ٤٨.٣%.. ويضم التعليم العالي أكثر من ٢٠٨ ألف طالب وطالبة.

وقد كان متوسط دخل الفرد في تونس- عام ١٩٥٦- حوالي ٩١ ديناراً- ثم بلغ ٩٩٥ دينارا سنة ١٩٨٨.. وارتفع سنة ١٩٩٨ إلى ٢٤٤٤

ديناراً وسعره الرسمي الآن يساوي ٧٥% من الدولار الأمريكي، وكان سنة ١٩٥٦ يزيد قليلا على الدولار الأمريكي- كما بلغ ناتج الدخل القومي ٢٢٨٠٩ مليون دينارا سنة ١٩٩٨ وكان ٨٥٧١ مليون دينارا سنة ١٩٨٨ بينما كان ٣٠٠ مليون دينارا فقط سنة ١٩٥٦.

كما اهتم الحكم الوطني ببناء السدود لزيادة مساحة الأراضي الزراعية، وبالتالي زيادة المنتجات الزراعية، وبإنشاء الغابات القومية للمحافظة على التوازن البيولوجي والصحة العامة.. وصيانة الثروة الحيوانية والنباتية الطبيعية التي تتميز بثرائها وتنوعها.. كما تم إنشاء بعض المحميات الطبيعية لأنواع من الحيوانات مثل الأيل الأطلسي والغزال الجبلي.

وقد اهتم الحكم الوطني بوضع برنامج قومي للقضاء على المساكن البدائية بإقامة ٤٢٠٠٠ مسكن جديد سنوياً تقريباً، وقد تراجعت نسبة المساكن البدائية من ٤٤% سنة ١٩٦٦ إلى ١.٦% سنة ١٩٩٧.

كما اهتم بتنمية السياحة في البلاد برفع مستوى الخدمات مع الاحتفاظ بالمستوى المعقول والمقبول للأسعار.. وقد أنشئت عدة متاحف أهمها المتحف الأثري بقرطاج- آثار فينيقية- ومتحف الجم- آثار رومانية- ومتحف القيروان- آثار إسلامية- ومتحف الرباط بالمنستير للتاريخ والتقاليد الشعبية، ومتحف الفنون والتقاليد الشعبية بدار ابن عبد الله بمدينة تونس.. ويقدر عدد السائحين سنوياً وقتذاك بأكثر من أربعة ملايين.

ولعل أهم انجازات الحكم الوطني في تونس إصدار قانون الأحوال الشخصية الموحد- مجلة الشخصية- ومن أهم أحكامه...

١. منع تعدد الزوجات.

٢. إقرار الطلاق القضائي باشتراط إيقاعه أمام المحكمة حماية للمرأة والأسرة من نزوات الرجل وتقلباته.

٣. تحرير المرأة على أساس المساواة مع الرجل في كافة الحقوق والواجبات.

وقد تمكنت المرأة التونسية من تحقيق هذه المكاسب بعد أن اقتحمت ميدان التعليم والعمل في كافة القطاعات.. وقبلها كانت قد انتزعت احترامها وفرضت وجودها بما قدمته في الحركة الوطنية، مثلما فعلت في العصور القديمة.

وتبوأت منصب أول رئيسة وزراء لجمهورية عربية في ٢٠٢١/١٠/١١.

وتشتهر تونس بصناعة الزرابي– السجاد– ذات الطابع التقليدي للفن التونسي، وتجد منها نوعين، أولهما السجاد القطيفة من الغزل المبروم، وهو السجاد البربري– نسبة إلى البربر سكان تونس الأصليين– الخالص والمزخرف.. وثانيهما السجاد القيرواني– نسبة إلى مدينة القيروان.. وهناك أنواع أخرى من الزرابي، ومنها ما يعلق على الحائط، والكليم والعكرمي..

والشعب التونسي صديق مضياف، وهو من الشعوب العربية التي تحب مصر والمصريين.. وقد لمست ذلك بوضوح في زيارتي لتونس سنة ١٩٨٩ حيث كان البشر يضيء وجوه أفراد الشعب التونسي الذين يلتفون حولي يسألونني..

– مصري؟! مصري؟!..

رغم علمهم بالإجابة.. لأنهم يميزون اللهجة المصرية التي يتابعونها في الأفلام التي يعرضها التليفزيون هناك.

واذكر بكل التقدير الصديق الكابتن طيار نعمان الزربي بشركة الطيران التونسية وزوجته الفاضلة الدكتورة أحلام بمدينة المنستير.. لقد كان خير مرشد ودليل في زياراتي لعدة مدن.. كما لا يفوتني أن أذكر الطالبات المغربيات

الثلاثة– حينذاك– الدكتورة وفاء الهواري والدكتورة إلهام بوزوبع والدكتورة أسماء بنجلون، بكل الشكر لقيامهن بمرافقتي إلى الأماكن الأثرية والسياحية.

وبعد...

يقدم هذا الكتاب دراسة الخلفية التاريخية والاجتماعية للمجتمع التونسي، في خمسة وعشرين فصلاً.. تضمنت معلومات واسعة عن العلاقات بين مصر وتونس عبر التاريخ، وتولي الملكة كليوباترا الثامنة– ابنة كليوباترا السابعة ملكة مصر الشهيرة– حكم تونس، ثم ابنها بطلميوس من بعدها كما تضمنت أسطورة بيجماليون وعليسة الفينيقية التي أنشأت إمبراطورية قرطاج التي سيطرت على حوض البحر الأبيض المتوسط، ثم جاء الرومان والفاندال والبيزنطيون.. والفتح العربي الإسلامي ونشأة القيروان ثاني مدينة إسلامية في أفريقيا، وهجوم قبائل بني هلال –بإيعاز من الفاطميين في مصر– للانتقام من دولة الزيريين الإسلامية في القيروان، حيث إرتكبوا أبشع الجرائم التي لا تتفق مع الإسلام وتعاليمه الإنسانية.. وجاء الأتراك ثم الفرنسيون.. ومع ذلك إستطاعت المرأة التونسية أن تحافظ على هوية شعبها وكانت وراء تطور تقاليد الزواج في المجتمع التونسي، حتى صدر أكثر قوانين الأحوال الشخصية تقدما في البلاد العربية.

وبعد..

فقد كان لنا شرف المساهمة في إجراء تعديلات هامة على القواعد والإجراءات الخاصة بالأحوال الشخصية في مصر.

الأولى: عندما هاجمنا بشدة إجراءات تنفيذ حكم الطاعة جبرا عن طريق الشرطة في كتابنا الثاني "الزواج وتطور المجتمع" لمخالفتها أحكام الشريعة الإسلامية والقانون وخاطبنا في ذلك السيد وزير العدل

الإنسان الأستاذ عصام الدين حسونة المحامي الذي أصدر قراره سنة ١٩٦٧ -والكتاب مائل للطبع- بوقف تنفيذ أحكام الطاعة جبرا.

الثانية: كنا صاحب الاقتراح الخاص بقيام بنك ناصر الاجتماعي بسداد النفقة الزوجية المحكوم بها بمجرد صدورها، من المحكوم ضدهم، لحماية الزوجة وأطفالها من التعرض لمشكلات اجتماعية خطيرة وقد تضمنته المادة ٧١ من القانون رقم ١ لسنة ٢٠٠٠ حيث نصت على أن.. "ينشأ نظام لتأمين الأسرة من بين أهدافه ضمان تنفيذ الأحكام الصادرة بتقرير نفقة الزوجية أو المطلقة، يتولى الإشراف على تنفيذه بنك ناصر الاجتماعي.

ونرجو أن يتم تعديل المادة العشرين من القانون رقم ١ لسنة ٢٠٠٠ على النحو التالي:

١. وضع كلمة "الإبراء" بدلا من "الخلع".

٢. إلغاء الفقرة الخاصة برد مقدم الصداق لمخالفتها نص الآية الكريمة (أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً...).

٣. إضافة مادة إلى نفس القانون تقرر حق المرأة المطلقة في نفقة مدى الحياة – حتى الوفاة أو عقد زواج آخر– في حالة الطلاق بعد عشرة زوجية طويلة لا تقل عن خمسة عشر عاماً بشرط أن لا يكون الطلاق بناء على طلبها أو لسبب راجع إليها.. وتخفض مدة العشرة الزوجية المطلوب توافرها إلى عشر سنوات إذا لم يكن للمطلقة مورد مالي.

الفصل الأول

كليوباترا الثامنة ملكة تونس

يبلغ عدد سكان تونس حوالي عشرة مليون نسمة، يرجع أصلهم إلى عدة عناصر بشرية أهمها البربر– وهم السكان الأصليون، ثم الفينيقيون– الذين أنشأوا إمبراطورية قرطاج وأطلق عليهم اسم القرطاجيين، ثم اليونانيون والروم والعرب بالإضافة إلى أولاد وأحفاد ألف أسرة مصرية. ثم نقلها إلى تونس (أفريقية) حيث استقرت هناك.

فقد كان الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان قد أرسل حسان بن النعمان الغساني لاستعادة أفريقية– تونس– بعد أن أعد جيشا كبيرا في مصر، وقضى فترة في مدينة القيروان لتجهيز جيشه وإكمال استعداداته الإدارية للحرب.. وهاجم قرطاجنة وفتحها سنة ٦٩٥م (٧٦هـ) وعندما استقامت البلاد لحسان بن النعمان سنة ٧٠١م (٨٢هـ) أدرك ضرورة إنشاء ميناء بحرية تكون قاعدة متقدمة للدفاع عن تونس ضد الروم، وللهجوم عليهم في جزر البحر الأبيض المتوسط.

وبدأ حسان بن النعمان يبحث عن مكان مناسب لذلك، فوجد إلى جنوب قرطاجنة بلدة تقع على سفح جبل تسمى ترشيش تطل على أرض فسيحة صالحة للزراعة، ولا يفصلها عن البحر سوى برزخ صغير. كانت المدينة القديمة قد اضمحل أمرها حين بدأ المسلمون يعيدون بناءها، ولم يبق فيها إلا دير يقيم فيه بعض الرهبان.. كان العرب يسمعون أصوات صلواتهم ليلاً فيأنسون بهم.. وقالوا "هذه البقعة تؤنس".. وكان ذلك مصدر الاسم "تونس".

وقيل أن المسلمين أسموها تونس لجمالها ولما تدخله من الأنس والبهجة على القلوب.

وأراد حسان بن النعمان أن يستعين بنفر من أهل مصر في إنشاء الميناء، فأرسل إلى الخليفة عبد الملك بن مروان يطلب إليه نفرا ممن لهم خبرة بإنشاء دور الصناعات وبناء السفن.. فكتب عبد الملك بن مروان إلى أخيه عبد العزيز وإلى مصر أن يوجه إلى معسكر تونس ألف قبطي بأهله وولده.. وتقول الكاتبة إيريس حبيب المصري- في كتابها "قصة الكنيسة القبطية من سنة ٤٣٥-٩٤٨م "أنهم كانوا ثلاثة آلاف عامل من عمال الترسانة المصرية.. فوصل القبط إلى حسان بن النعمان وهو مقيم بتونس فأجرى البحر- أي قام بتوصيل مياه البحر- من مرسى رادس- شاطئ البحر الذي تقع عليه مدينة تونس- إلى دار الصناعة وبذلك استطاع حسان بن النعمان أن ينشئ مدينة ثانية بأفريقية (تونس) تحمي مدينة القيروان، وميناء جديدة تقوم مقام قرطاجنة.. وأسطولا حربيا يتصدى لأي هجوم بحري..

ولم يكن صعبا على الأسرات القبطية -المصرية- أن تستقر في تونس، فقد كان نفوذ الكنيسة المصرية يمتد حتى هناك.. ومازال اللقب الرسمي لرئيس الكنيسة المصرية أنه "بابا" وبطريرك الكرازة المرقسية -أرض مصر والسودان- والخمس مدن الغربية".. التي تمتد على ساحل البحر المتوسط غرب مدينة الإسكندرية، وهي أنطابلس -برقة- وطرابلس وسرت **Syrta** وصبرة وقابس التي تقع على الساحل الشرقي لتونس غرب جزيرة جربة.. وتنتشر في كثير من المدن التونسية آثار الكنائس والأديرة التي دمرها الرومان في عصر الاضطهاد الديني الذي بلغ ذروته سنة ٢٥٠م. وعندما جاء الوندال سنة ٤٣٩م. بدأوا يضطهدون المسيحيين في تونس، ويفرضون عليهم مذهبهم المسيحي

الأريوسيالذي يقول بطبيعة السيد المسيح البشرية..

وتعود العلاقة بين مصر وتونس إلى عدة آلاف من السنين فقد كانت جزءا من الإمبراطورية المصرية القديمة، ثم استطاع الجنود اللوبيون –وهو الاسم الذي كان يطلقه المصريون القدماء على السكان الأصليين لشمال أفريقيا حتى تونس– بعد أن أصبحوا جزءا من الجيش المصري، أن يستولوا على الحكم ويكونوا الأسرتين الثانية والعشرين والثالثة والعشرين من سنة ٩٤٧ إلى ٧٢٠ ق.م.

كما أن كليوباترا الثامنة، وأسمها كليوباترا سيلينيهCleopatra Selene – أي القمر– وهي ابنة ملكة مصر العظيمة كليوباترا السابعة من زوجها مارك أنطونيو –حيث تزوجا سنة ٣٦ ق.م– اعتلت عرش تونس المعروفة حينذاك باسم نوميديا الشرقية ثم اعتلى ابنها بطلميوس –حفيد الملكة كليوباترا– العرش بعد وفاة والده الملك يوبا الثاني سنة ٢٣م.

فبانتحار الملك يوبا الأول، ملك نوميديا الشرقية سنة ٤٦ ق.م –حتى لا يدخل روما في موكب النصر سيرا على قدميه ومكبلا بالأغلال– بعد هزيمته أمام يوليوس قيصر في معركة تابسوس –رأس الديماس– أصبحت مملكته ولاية رومانية تعرف باسم "أفريكا نوفا"... ولاية أفريقيا الجديدة.

وباغتيال يوليوس قيصر سنة ٤٤ ق.م، أصبح أوكتافيوسOctavianus –الذي عرف فيما بعد باسم القيصر أغسطس– أول إمبراطور بروما بعد انتهاء العهد الجمهوري وانتصاره على مارك أنطونيو. وفي سنة ٢٥ ق.م أعاد مملكة نوميديا الشرقية إلى ما كانت عليه ونصب عليها الملك يوبا الثاني الذي كان عمره أربع سنوات عندما انتحر أبوه الملك يوبا الأول سنة ٤٦ ق.م فأخذه يوليوس قيصر معه إلى روما حيث قامت بتربيته الأميرة أوكتافيا– شقيقة

الإمبراطور أكتافيوس أو القيصر أغسطس والزوجة السابقة لمارك أنطونيو. ولما كبر منحوه الحقوق المدنية الرومانية وأصبح مواطنا رومانيا وأعطوه اسم كايوس يوليوس **Caius Julius**.

وفي مصر كانت الملكة كليوباترا السابعة ابنة الملك بطلميوس الثاني عشر قد ارتقت العرش سنة ٥١ ق.م مع زوجها وشقيقها بطلميوس الثالث عشر. كانت ملكة شجاعة واسعة الثقافة والأطماع، قوية الإرادة، تجمع إلى الجمال.. رقة أخاذة، وعذوبة في الحديث وقدرة فائقة على استهواء من تريد اكتسابه. كانت تتحدث سبع لغات مختلفة بطلاقة، منها اللغة العربية والمصرية واليونانية واللاتينية. كان لها عقل راجح، بل كانت أحسن البطالمة تفكيرا.

لقد ولدت كليوباترا وعاشت على أرض مصر وبين مصريين فراعنة الأصول.. فإن كانت أصول الملكة إغريقية فإنها مصرية المولد والنشأة.. كانت كليوباترا شخصية مثقفة، درست الأدب والفلسفة والعلوم على يد الفيلسوف اليوناني ديمتريوس، الذي تحدث عن كبريائها وشخصيتها القوية المتفردة برغم صغر سنها. كما تحدث مؤرخون معاصرون لها عن ذكائها وقوة شكيمتها، وهو عكس الصورة التي قدمها المسلسل الرمضاني سنة ٢٠١١ في صورة شخصية ضعيفة تسيطر عليها الغرائز والأهواء.. بعيدة كل البعد عن الحقيقة، لعدم توافر الجهد اللازم لمعرفتها..

عندما وليت كليوباترا عرش مصر كانت روما أقوى دول العالم، وكانت مصر يعتريها ضعف كادت أن تصير معه إحدى الولايات الرومانية بسبب الأموال التي اقترضها الملك بطلميوس الحادي عشر من روما. وقررت كليوباترا استخدام مواهبها في استغلال الرومان لتحقيق آمالها في بناء إمبراطورية مصرية واسعة.. وقد استطاعت أن تسيطر على يوليوس قيصر وأن تتزوجه طبقاً

للتقاليد المصرية، وأنجبت منه ابنهما قيصرون.. كانت كليوباترا زوجة مخلصة، رغم أن النساء من جنسها كن يفخرن باعتزاز بأنهن يمنحن أنفسهن لكل إنسان ومن جميع الأنواع. واتفقا على إعلان زواجهما رسميا بعد المناداة به –يوليوس قيصر– ملكا على روما، ليكون ابنهما قيصرون وليا للعهد في مصر وروما، وملكا عليهما فيما بعد.. ولكن الجمهوريين الرومان اغتالوا يوليوس قيصر، وبذلك أجهزوا على آمال الملكة كليوباترا.

وبعد بضع سنوات انتعشت تلك الآمال عندما استمالت مارك أنطونيو الذي تزوجها سنة ٣٦ ق.م واعترف بأولاده التوأم منها.. الإسكندر وكليوباترا سلينيه وشجعته عل محاربة أوكتافيوس لتسيطر معه على العالم الروماني كله، وليس النصف الشرقي منه فقط الذي كان تحت سيطرته –مارك أنطونيو– ولكن هزيمتهما في معركة أكتيوم البحرية سنة ٣١ ق.م قضت نهائياً على كل آمالها..

وعندما اقترب أوكتافيوس من مصر وأدركت استحالة الدفاع عن مملكتها –بعد أن تبينت فداحة الخطأ الذي أوقعها فيه مستشاروها برفض الالتجاء إلى شعب مصر وتوزيع السلاح عليه للدفاع عن بلاده، خوفا من أن يستخدم قواته المسلحة في القضاء عليها أيضا للتخلص من الحكم الأجنبي– أرسلت إلى أوكتافيوس تاجها وصولجانها والتمست تتويج أحد أبنائها مكانها.. وعندما أيقنت أنه لن يلبي رغبتها وأنه سينقلها إلى روما ليعرضها وأطفالها في موكب النصر –كما فعلوا قبلا بالملك يوغرطة ملك نوميديا الشرقية وكما فعلوا بأختها أرسينوي– وكانت كليوباترا قد شاهدت أختها أرسينوي وهي تسير مصفدة بالأغلال خلف عربة قيصر.. وهذا لن تفعله أبدا.. لذلك أثرت الانتحار، حتى لا تدخل روما سيرا على قدميها تكبلها الأغلال.

وعندما اقتحم الجنود الرومان غرفتها العليا من مقبرتها وجدوها ترقد مسجاة وهي ترتدي كل ثيابها الملكية، وقد وضعت على جبينها تاجها الملكي المحلى برأس الحية الذهبية "سيدة الحياة".. وقد فارقت الحياة. وهكذا ماتت كليوباترا أخر ملوك البطالمة في مصر ميتة ملكية مفضلة الموت على فضيحة مخزية واستهزاء روما بها. وقد قتل أوكتافيوس ابنها قيصرون من يوليوس قيصر، إذ أنه لم يستطع أن يسمح بوجود منافس يدعي لنفسه حقوقاً.. وأخذ أطفالها الآخرين ليمشوا في موكب انتصاره في روما.

وقد أثبتت الأبحاث الحديثة أن الملكة كليوباترا لم تكن غادرة ولا غانية مبتذلة –كما صورها بعض كتاب الغرب– وبذلك بطلت مزاعم القدماء الذين لطخوا اسمها وسمعتها انتقاما منها وتقربا لأوكتافيوس، تغمرها مشاعر الشماتة والفرح لخلاصهم من الفزع الذي أثارته الملكة كليوباترا في نفوسهم.. حيث لم يثر فزع الرومان في جبروتهم إلا اثنان.. هانيبال وكليوباترا.

كانت كليوباترا ملكة دولة عظيمة تضم أول منارة في العالم وإحدى عجائب الدنيا السبع.. تقف شامخة بارتفاع ١٨٠ مترا (٦٠٠ قدم) يعلوها مصباح يضيء في الليل، وكان يمكن رؤية ضوئه الذي ينعكس بمرآة ضخمة من بعد ثلاثين ميلا في البحر.

كما تضم مملكتها أكاديمية العلوم الشهيرة "الميوسيون"، ومكتبة الإسكندرية التي كانت تضم نصف مليون بردية.. حيث كان الفلاسفة والعلماء والجغرافيون والمؤرخون وعلماء الرياضيات يدرسون ويدرسون للطلاب.. وفي تلك المكتبة تعلمت كليوباترا الحكمة والأدب الإغريقي وأتقنت عدة لغات بما فيها لغة مصر القديمة. (تسع لغات كما أعلن المتحف البريطاني)

كانت كليوباترا هي البطلمية الوحيدة التي آمنت في إخلاص بآلهة البلاد،

وقد أحبت مصر واعتبرت نفسها وريثة لسحرها وجلالها القديم.. وقد أثبتت طريقة موتها كيف آمنت كل الإيمان بالديانة المصرية القديمة.

كانت تحس في نفسها بإيمان وحب عميق لم يتغير لمصر وأهلها، وقد بادلها المصريون هذه العاطفة وحفظوا لها جميلها وردوه في السنين التالية.

كان المصريون يجلون ويحترمون نساءهم اللاتي كن تحت حماية الآلهة إيزيس نفسها.. وقد اعتبرت كليوباترا نفسها مصرية، وقيل أنها أيضا تحت حماية إيزيس.. كانت كليوباترا محبوبة ومحترمة في مصر وكانوا يشيرون إليها ببساطة باسم "الملكة".

كانت شخصيتها تفيض بالقوة والاستقامة.. كانت ذات جسد أنثوي مثير للإغراء وهي ترتدي ذلك الرداء الهلليني البسيط الزينة.. ذات عينين رماديتين تطليهما بالكحل على الطريقة المصرية وشعر كستناني مموج.. وبشرة ذهبية (برونزية).. وكان صوتها مبعث جاذبيتها العظمى وأكثر صفاتها إغراء للرجال..

كانت سياساتها التي سارت عليها، وهي منح السلطة إلى المصريين الوطنيين بدلا من قصرها على المستوطنين من الإغريق والمقدونيين، سببا في وضع حد للقلاقل المزمنة في مصر العليا. واكتسبت من محبة الناس وولائهم أكثر مما تمتع به أبوها أو جدها من قبل.. ورغم كل شيء نجحت كليوباترا في الاحتفاظ بمصر دولة مستقلة.. (وينيفرد هولمز، كانت ملكة على مصر، (ترجمة سعد أحمد حسين).

وكان هانبيال قائداً قرطاجيا، هزم الرومان شر هزيمة وشرد جيشهم في الوديان حتى دخل روما، وتمتع رجاله بكنوز روما ونسائها..

لم يكتف هانبيال ببسط نفوذه على المدن الأسبانية وطرد الرومان من جزر البحر المتوسط، فقد جهز حملة من خمسين ألف مقاتل في مغامرة.. من أجل القضاء على روما كانت خطة عبقرية، فقد عبر بجيشه شمال أسبانيا واخترق فرنسا.. ورغم فقده العديد من رجاله وتخلى الجنود المرتزقة الأسبانية عنه، إلا أنه عبر –مع جنوده القرطاجيين– بلاد الغال ثم جبال الألب حتى إيطاليا..

وظل هانبيال خمس عشرة سنة يجوس بجنوده أرض الرومان، الذين كانوا يختبئون كالفئران.. ومع ذلك رفض أن يدمر مدينة روما.. لقد أذل هانبيال روما وفتك بمدنها وسبى نساءها، وعاث رجاله خرابا في ربوع إيطاليا.

ولدت كليوباترا سيلينيه سنة ٤٠ ق.م وأقر مارك أنطونيو بأنها ابنته عندما تزوج الملكة كليوباترا بعد طلاقه من أوكتافيا شقيقة أوكتافيوس.. وبعد مقتل أبويها ظهرت في موكب النصر الذي أقامه أوكتافيوس في يوم ١٥ أغسطس سنة ٢٩ ق.م احتفالا بانتصاره على مصر وعلى ملكتها كليوباترا.. وفي روما آوتها وقامت بتربيتها ورعايتها الأميرة أوكتافيا– زوجة أنطونيو الأولى وأخت أوكتافيوس مثلما سبق وقامت بتربية ورعاية يوبا الثاني ابن الملك يوبا الأول ملك نوميديا الشرقية.

طلبت أوكتافيا من أخيها القيصر أن يزوج ابنة كليوباترا المصرية بابن الملك يوباالنوميدي، الذي عين ملكا على نوميديا الشرقية سنة ٢٥ ق.م.. فتزوجا سنة ٢٠ ق.م. وقامت بدورها كاملاً كملكة لنوميديا –تونس– حيث تم تقليدها السلطة الملكية ووضعت التاج –شعار الملك– على رأسها وتم سك النقود بصورتها واسمها يسبقه لقب الملكة. وقد أنجبت ولدا منه سنة ٥ ق.م أطلق عليه اسم بطلميوس.. وقد اعتلى العرش سنة ٢٣م بعد وفاة والده الملك يوبا الثاني.

وتقلد جايوس قيصر **Gaius Cesar** –الملقب باسم كاليجولا**Caligula**– عرش الإمبراطورية الرومانية سنة ٣٧م. وهو أحد أحفاد مارك أنطونيو من زوجته الأولى أوكتافيا، مثلما كان بطلميوس عن طريق أمه كليوباترا الثامنة.. فكان الإمبراطور كاليجولا بمثابة ابن خال الملك بطلميوس الذي كانت أمه كليوباترا الثامنة أختا لأب، لوالد كاليجولا.. وفي الحفل الذي أقامه الإمبراطور في روما سنة ٤٠ ق.م. دخل الملك النوميدي يرتدي حلة الأرجوان التي كانت لباس الأبهة الخاصة بالأباطرة، مما لفت إليه أنظار الجميع، وملأ قلب كاليجولا حقدا وغيرة، فأمر فوراً بالقبض عليه وإعدامه.. وتم تحويل المملكة إلى ولاية رومانية..

وفي العصور الأخيرة امتزج الشعب التونسي بالمهاجرين الوافدين من الأندلس –بعد هزيمة العرب هناك– والأتراك خلال الحكم العثماني.. ويوجد على الأرض التونسية عدة أجناس من الأوروبيين.. فرنسيون وإيطاليون ومالطيون وغيرهم.

الفصل الثاني

البربر.. اللوبيون القدماء

كانت البلاد التونسية تعرف قديما باسم لوبيا أو ليبيا وكان يطلق على سكانها اسم الليبو أو اللوبيين أو الليبيين. وعندما زار هيرودوت– المؤرخ اليوناني الكبير (٤٨٤– ٤٢٥ ق.م) تلك البلاد كان يسميها لوبيا ويسمى سكانها اللوبيين.. أما الأشراف والنبلاء من بين الليبيين، فكانوا يعرفون باسم "الأمازيغ" وهم الأحرار من العائلات الأرستقراطية..

وقد عرفت البلاد التونسية بسكانها الأصليين من البربر وقد أطلق عليهم هذا الاسم حيث كان الرومان يطلقون لقب "بربري" على كل شخص لا يتحدث باللغة اللاتينية وينتمي إلى هذه التسمية. وأطلقوا على سكان تونس وشمال أفريقيا لقب البربر.

ويفرق المؤرخون المعاصرون بين البرابرة والبربر، فهم يعنون بالأولى المتوحشين من الناس، وبالثانية جيل من الناس هم سكان الشمال الأفريقي. وبهذا الاسم ذكرهم المؤرخ العربي الكبير ابن خلدون وقسمهم إلى ثلاثة أقسام.

١. **البرانس:** وهم أبناء برنس بن بر بن مازيغ، وهم قبائل وشعوب جبلية مستقرة أكثرهم بجبال الأطلس– بالمغرب الأقصى، وكذلك بجبال الريف أو بجبال زوارة– شمال الجزائر– ومنهم كتامة وصنهاجة أو بجبال أوراس بالجزائر.

٢. **البتر:** وهم أبناء الأبتر بن بر بن مازيغ، وهم قبائل بدوية رحالة يركبون الجمال، ومنهم سكان تونس..

٣. **الملثمون:** وهم قبائل الصحراء بالجنوب ويضعون لثاما أزرق على وجوههم، ومنهم الطوارق وقبائل لمتة، ولمتونةوالتوات والملثمون من صنهاجة بالصحراء جنوب المغرب الأقصى –وهي غير صنهاجة البرانس الموجودين بجبال زوارة مع قبائل كتامة– وهم الذين كونوا دولة المرابطين في المغرب الأقصى وأنشأوا مدينة مراكش سنة **١٠٦٣**م.

ولكن المستشرق ويليام مارسي يرجع تقسيم البربر إلى البرانس والبتر والملثمين، إلى نوع الملابس التي يرتدونها وليس لنسبتهم إلى جدهم الأول. فالبرانس كانوا يلبسون البرنس، وهم مازالوا يفعلون ذلك حتى اليوم، مثلما نراه عند المغاربة بالمغرب الأقصى.. وهذا الغطاء يشتمل على غطاء الرأس.

والبتر كانوا يتركون رأسهم عاريا ولا يرتدون برنسا مشتملا على غطاء للرأس، ولذلك كان لباسهم أبتر..

والملثمون هم قبائل الصحراء الذين يضعون لثاماً على وجوهم.

وقد نزح البربر إلى شمال أفريقيا وانتشروا في ربوع المغرب وجهات من الصحراء الكبرى حتى أطراف مصر الغربية في العصور القديمة.. وللبربر لغة متميزة بذاتها وعادات خاصة بهم.

وقد تطورت عقائدهم بحسب تأثرهم بمن زحف عليهم من الأمم، فكانوا يدينون بالماجوسية ثم المسيحية في أواخر القرن الثاني الميلادي، ثم بدأوا يدخلون في الإسلام منذ الفتوحات الإسلامية الأولى على أثر موقعة سبيطلة واعتنق أكثرهم الإسلام في أوائل القرن الثامن الميلادي..

كانوا يؤمنون بقوتين عظيمتين تسيطران على الكون وتتمثلان بقوى الطبيعة، خيرها وشرها، ولكي ينتصروا على الشر، عمدوا إلى السحر.. الذي مازالت آثاره واضحة حتى الآن.

كان البربر يتخذون بيوتهم من الحجارة والطين، ومن الخصائص –جمع خص– وهو البيت المقام من القصب.. والشجر ومن الشعر والوبر.. وهم – في غالبيتهم– من الرعاة يقومون برحلاتهم إلى المراعي طلباً للكلأ في مواضعه.. ويتكسبون من إنتاج الإبل والشاة والبقر.. ويركبون الخيل.. ومن كان منهم يقطن الشواطئ، عاش على صيد البحر وعلى زراعة بسيطة تقوم بحاجاتهم، ويسكنون أكواخاً يدفعون بها عن أنفسهم أذى الحر والبرد واعتداء الحيوانات الضارية.. ومن كان منهم يعيش داخل البلاد سكن الخيام أو الكهوف، واعتمد في حياته على صيد البر وعلى زراعة بدائية.

كانوا يرتدون الملابس الملونة، يلفونها حول أجسامهم، ثم يضعون البرانس القاتمة اللون عليها.. وكانت رؤوسهم حاسرة –في الغالب– يهتمون بحلقها. كانوا يتحدثون باللغة الليبية التي لم يعرفها الرومان، في حين كان بعضهم – البربر– يحسن الحديث باللغة اللاتينية لاتصالهم بالرومان في إيطاليا.. ولم يبق أثر للغة الليبية القديمة في تونس –على عهد ابن خلدون– إلا في جزيرة جربة وبعض جهات مطماطة.

كان البربر يتكلمون لغة أفريقية ترجع في أصلها إلى لغة قدماء المصريين.. وقد ابتدعوا لها –قبل الميلاد بقرنين– كتابة مازالت موجودة إلى الآن عند الطوارق، يستعملونها لغة خاصة بهم.

والصفات الخلقية المكونة لما يسمى بالروح البربرية، هي صفات العربي الجاهلي القديم كالكرم والغيرة على الشرف والشجاعة.. فهو يدافع عن

تصرفاته، ولا يسمح بتقنينها.. ويحافظ على الجوار والعهد.. ولم يعرف نظام الحكم المركزي، بل نظام القيادة لعظيم مع الرأي الاستشاري للجماعة البربرية التي تحذو حذو المجتمع العربي القديم.. خاصة فيما يتعلق بالعادات الاجتماعية، وأهمها الوشم والخضاب والختان.. وكذلك المعتقدات الميتافيزيقية– وأهمها حركات الكواكب ومظاهر الكون المغزغة.

وقد وصف ابن خلدون أخلاقهم بأنها تتسم بالفضائل الإنسانية والخلق الكريم.. من عز الجوار وحماية النزيل والوفاء بالقول والعهد؛ والصبر على المكاره، والثبات في الشدائد.. وكان للبربر آثار تشهد بأنهم جيل عزيز على الأيام، وأنهم قوم مرهوب جانبهم، شديد بأسهم، كثير جمعهم، مضاهون لأمم العالم وأجياله من العرب والفرس والروم.

وقد أجمع المؤرخون على أن عادات اللوبيين –البربر– لم تتغير كثيرا طوال القرون الماضية، فمازال الكثير من عاداتهم في الطعام والشراب والملبس، وكذلك المواسم، موجودة عند بعض التونسيين حتى الآن.. فمازالت النساء التونسيات يزغردن ويولولن كما كانت تفعل المرأة البربرية، ومازالت المرأة التونسية تتزين بالوشم والخضاب، كم كانت تفعل نساء البربر.. والتي ذكرها هيرودوت في وصفه لعادات البربر عندما زار تونس سنة ٤٥٥ ق.م. وقد قسم المؤرخ اليوناني هيرودوت البربر إلى من كان منهم بالمغرب الأدنى وهم رحل، ومنهم من كان بالمغرب الأوسط وهم يسكنون السهول ويحرثون الأرض ويصلحونها، ومنهم من يسكن الجبال فيعمرون الغابات.. ومازال البدو في تونس يشتغلون بنفس الأعمال التي كان أجدادهم من البربر يقومون بها.. مثل صيد الحيوانات الضارية وتربية الماشية من بقر وخيل وأغنام، والانتقال إلى المراعي الجبلية حيث الكلأ.. وكان اهتمامهم بالزراعة ضعيفاً.. كان صيد

الحيوانات الضارية للدفاع عن أنفسهم وعن حياتهم في البداية، ثم تحولوا إلى اقتناصها حية لبيعها والتكسب منها عندما احتاجوا إليها في مسارح المصارعة الرومانية، خاصة في سنوات الاضطهاد الديني. وعندما عرفوا الزراعة، بقي اهتمامهم –قبل كل شيء– بتربية الحيوانات.. ولم تتقدم الزراعة إلا في القرن الثاني قبل الميلاد بفضل المجهودات التي بذلها الملك ماسنيسا. فقد كانت تربية الماشية وتركها ترعى الكلأ أقل جهداً ومشقة من زراعة وخدمة الأرض، بالإضافة إلى الخوف من غارات السلب والنهب للمنتجات الزراعية.

ومازالت المرأة التونسية –البدوية في قرية رجيش وغيرها من القرى– تصنع الأواني الفخارية من الطين بنفس الطريقة التي كانت تصنعها بها جدتها في العصور القديمة، ثم في العصر القرطاجي، بأن "تملس" الطفل بيديها استعمال آية آلية.

كانوا يتبعون في طعامهم نظاماً نباتياً في أكثره، وكان الفلاحون يأكلون الكسكس –الكسكسي– الذي مازال وجبة شهيرة في كل بلاد شمال أفريقيا.. وكان الرعاة لا يذبحون مواشيهم، ولكنهم يكتفون بألبانها، ويأكلون لحم الصيد.

كانوا يحبون –رجالا ونساء– التزين بالحلي.. فكان الرجال يضعون الأقراط في آذانهم، والنساء يضعن الخلاخيل في أرجلهن.. وكان جميعهم يميلون إلى تزيين اليدين بالأساور وتجميل العنق بالأطواق والقلائد..

ولم يعرفوا راحة المسكن ورفاهية الحياة المنزلية بل كانوا ينامون على الأرض أو على "مسطبة" من البناء تسمى "الدكانة".

وما انتهت السكنى في الكهوف بانتهاء العصور القديمة بل بقيت في بعض جهات تونس إلى اليوم مثل جهة مطماطة.. ولكن الحياة الثابتة والمستقرة في

الكهوف لا تناسب الرعاة ومربي الماشية لحاجتهم الدائمة إلى التنقل بقطعانهم سعياً وراء المرعى، ولذلك كان الرعاة يسكنون أكواخاً متنقلة تسمى الماقاليا – باللغة البربرية– وهي عبارة عن بيوت خفيفة من الحصر أو الخصائص وأغصان الشجر تحمل على عجلات، أو يتم فكها وطيها وحملها على الدواب.

ولم تتغير هذه المساكن والاستعاضة عنها بالخيام –التي يطلقون عليها اسم بيوت الشعر– إلا بعد الفتح العربي الإسلامي.. فلم تكن الخيام معروفة عند البربر قبل ذلك التاريخ.

ومن بقايا "الماقاليا" ذلك الشكل من الأكواخ الموجود حتى الآن بالجنوب التونسي والمعروف باسم "الكيب" أو "الخص".. ومازالت كلمة "نواله" –وهي كلمة بربرية أيضاً– للدلالة على الكوخ المبني من الحجارة وسقفه من أغصان الأشجار والقش، تستعمل حتى الآن بجهة المهدية على الساحل الشرقي وكانت هذه الكلمة تدل في القديم على الخص أو الكوخ الصغير.

الفصل الثالث

البربر..والحضارة المصرية القديمة

لم تكن تونس منفصلة عن ليبيا، بل كانت بلداً واحدا يطلق عليه اسم ليبيا أو لوبيا.. وكان اللوبيون يتكلمون اللغة الليبية التي تشبه لهجة القبائل بالجزائر.

وقد حاول اللوبيون الاستيلاء على مصر عدة مرات، ورد رمسيس الثاني (١٣٠٠- ١٢٢٥ ق.م) إحدى غزواتهم وألحق الأسرى منهم بجنده تحت قيادة الضباط المصريين. وحارب بهم في آسيا الصغرى للدفاع عن المملكة الفينيقية التي كانت تحت نفوذ مصر. أي أن فينيقيا كانت موجودة قبل خروج بني إسرائيل من مصر سنة ١٢٢٥ ق.م ثم وصولهم من شرق الأردن إلى أريحا سنة ١٢٦٥ ق.م بعد أربعين سنة في التيه بين القبائل المعادية شمال شبه الجزيرة العربية، وليس في سيناء كما يشاع.

وأعاد اللوبيون الهجوم على الدلتا -شمال مصر- سنة ١٢٢٠ ق.م بجيوش جرارة على رأسهم ملكهم "حورايو".. واستمرت المعركة ستة أيام، قتل فيها أكثر من ٢٣٠٠ ليبيا، وأسر أكثر من عشرة آلاف، ضمهم الفرعون المصري إلى جيوشه.

وتوالت هجمات اللوبيون على الدلتا في عهد رمسيس الثالث (١٢٠٠- ١١٦٨ ق.م) الذي كان ينتصر عليهم ويردهم بعد أن يأسر منهم عدداً كبيراً يضمهم أيضاً إلى جيوشه تحت قيادة الضباط المصريين.. وبعد انتصار رمسيس الثالث على شعوب البحر التي كانت قد تحالفت بقصد الغزو والتوسع

والانتشار، وهجمت على آسيا الصغرى وجزيرة قبرص والمملكة الفينيقية، وخربت كل شيء في طريقها حتى التقى بها المصريون فدمروها تدميرا.. وصارت مصر أرض سلام وأمن.. واجتنابا لغارات اللوبيين المتكررة وسعيا وراء مصالحتهم نهائيا، أقامهم بغرب الدلتا فاستوطنوها.

وخلال الفوضى التي أعقبت اضمحلال دولة الرعامسة– بعد موت فرعون مصر العظيم رمسيس الثاني وكبار رجال الدولة وقواد جيشه غرقاً، وهم يطاردون بني إسرائيل لاسترداد ما نهبوه من شعب مصر من الذهب والحلي والملابس والأواني "عندما طلبوا من المصريين أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثيابا... فسلبوا المصريين".. قبل خروجهم منها سنة ١٢٢٥ ق.م (سفر الخروج ص٣: ٢١ و١١: ٢، ص ١٢: ٢٥، ٢٦).

انتهز أحد القواد اللوبيين المأجورين الفرصة، وبسط نفوذه بمعاونة الجنود اللوبيين على هيرقلوبوليس بمصر الوسطى، وكان شيشوق –أو شيشنق– الأول –وهو الحفيد السابع لذلك القائد– الذي استطاع الاستيلاء على الدلتا، ووزع الأراضي على اللوبيين وأسس الأسرة الثانية والعشرين، جاعلاً بوبسطس –الزقازيق حاليا– عاصمة لملكه.. ثم ضمن شيشوق طاعة سكان برية الأسقيط –صعيد مصر– وكانت عاصمتها طيبة –الأقصر حالياً– بتعيين ابنه كاهنا أعظم بمعهد الإله آمون –معبد الكرنك– واقترانه بكبيرة الكاهنات "كارومانة" بمعبد آمون، وحافظة تقاليد وحقوق الخلافة الملكية.

وقد كان اللوبيون في مصر خاضعين لديانة الإله المصري "آمون" وتقاليد كهنته.. وكانوا همزة الوصل لنقل الكثير منها إلى بلاد البربر.

وذلك يفسر انتشار عبادة الإله آمون بالمغرب بدلاً من عبادة الكباش التي كانت مقدسة بأفريقية.

ولعل طريق الكباش المؤدي إلى معبد الكرنك من آثار ذلك العهد.

ولم يتأثر اللوبيون بالجانب الديني فقط، بل بكل المدنية المصرية وأخصها الزراعة والصناعة، مما عاد بالفائدة على البلاد الليبية والتونسية.. ويقول البعض أن الكلمة اللوبية "نيل" تدل على النهر أو مجرى الماء.. وهو الاسم الذي يطلق على النهر العظيم في مصر.

كان النظام العائلي في مجتمع البربر القديم يعتمد على النظام الأبوي، فقد كان الأب صاحب السلطة المطلقة والنفوذ الواسع. وكانت العائلة تضم جميع الأشخاص الذين ينحدرون من نسل جد واحد، يخضعون جميعهم لسلطة رئيس واحد.. ويخضع لتلك السلطة كل من ينضم إلى العائلة بالزواج أو بالتبني.

وكان لرب العائلة النفوذ المطلق على جميع الأفراد، وكان يأمر زوجاته بالقيام بأحط الأعمال وأحقرها.. وكان له حق بيع بناته بالمزاد العلني، كما كان يزوج أولاده بمن يشاء هو وليس طبقاً لرغباتهم.

وعند وفاة رب الأسرة، لا تنتقل السلطة إلى أكبر أبنائه بل إلى أكبر أفراد العائلة من الذكور، وكان هذا النظام بعد ذلك مطبقاً عند الوندال، كما كان عند البايات -(جمع باي)، وهو لقب الحاكم في العصر الحسيني- من العائلة الحسينية بتونس.

وكان تعدد الزوجات منتشراً في ذلك العهد، مما ساعد على زيادة النسل بدرجة عالية جداً.

أما نظام العائلة عند الطوارق الملثمين فهو النظام الأمي نسبة إلى الأم- فهي التي تعطي اسمها لأولاها، وهي صاحبة السلطة في المنزل، ولا يرث الأولاد من أبيهم بل يرثون من خالهم.. ولذلك تقول أغنية عند الطوارق.. "أنا

الطارقيابن الطارقية".. ولا يقول "ابن الطارقي"!..

وقد اقتضت ضرورات الحياة البدوية والزراعية البدائية والشعور بالحاجة إلى الأمن والسلامة، تكوين جماعة أقوى من العائلة لتحميها من العدوان، فكانت القبيلة.

كان الرعاة ينضمون إلى بعضهم يشتركون في الانتفاع بأراضي الكلأ والمراعي.. كما كان الفلاحون يقيمون القرى حول برج أو قلعة يحفظون فيها مدخراتهم من الحبوب وخلافها لحمايتها من أعدائهم الرحل من أهل البادية.. وكان سكان القرية الواحدة يكونون شبه دولة صغيرة تخضع لحكم الجماعة وعلى رأسها الشيوخ كبار السن بما وقر لهم في نفوس الجميع من الاحترام والإجلال.

فالقصر –أو البرج– المحصن يشيد على مرتفع من الأراضي ويوضع تحت رعاية حراسة مسلحة، وكانوا يحفظون فيه القمح والشعير والتمر والتين والزيت والسمن والصوف والثياب والحلي وغير ذلك.. فالقصر يعتبر مبنى عام ملك للجماعة ويتكون من غرف كثيرة، لكل منها صاحبها الذي يهتم بشأنها ويتعهدها بالإصلاح حتى لا يلحق الضرر باقي الغرف.

ثم التف عدد من القبائل حول سلطة قائد عظيم أو شيخ قوي، بما له من الحظوة والجاه أو من القوة والبطش، فنشأت الممالك التي كانت أكبر شأنا من القبائل.

ولغة البربر عبارة عن عدد من اللهجات، ربما كانت أشبه بلهجات القبائل العربية قبل أن تأتلف وتسودها اللغة القومية الواحدة، لغة القرآن الكريم.. وكانت البربرية تكتب في العصور القديمة، وقد عثر على بعض نقوشها في

الصحراء ولكن رموزها مازالت غامضة غير مؤكدة.

وبعد أن تعرب المغرب، كتبت اللهجة البربرية بالحروف العربية في بعض الأحيان. وقد وجد بعض الكتاب نوعاً من التشابه بين اللغة البربرية واللغة المصرية القديمة. وقد أثبت بعض اللغويين أن هذا التشابه هو في حقيقته نوع من القرابة بين هذه اللغات، بمعنى أنها ترجع جميعها إلى لغة أم قديمة.

وينقل الدكتور عثمان سعدي عن بعض المؤرخين الأوربيين قولهم "أن استيطان الفينيقيين –في قرطاج– هو الذي مهد لسهولة قبول البربر للغة العربية والدين الإسلامي فيما بعد، وأن اللغة الفينيقية استمرت قائمة بالمغرب العربي كلغة ثقافة وحضارة، حتى بعد تدمير قرطاج، حتى دخل العرب المسلمون فحدث اللقاء بين اللغة الفينيقية –التي هي لغة عربية قديمة– وبين اللغة العربية الحديثة التي طورها القرآن الكريم".

ويؤكد الدكتور عثمان سعدي على أن البربر عرب في أصولهم وأن اللغة البربرية لهجة من لهجات العربية.

ويقول المؤرخ التونسي عثمان الكعاك.. أن البربر قدموا من الجزيرة العربية من زمن لا يقل عن ثلاثين قرناً قبل الميلاد، وأن الفينيقيين قد اختلطوا بالبربر على طول السواحل الأفريقية المغربية.. ولما كان الفينيقيون عربا من بني كنعان، فقد اختلطوا بالبربر الذين هم عرب من العاربة القحطانية.

ويؤكدون عروبة البربر بأن المغرب العربي لم يحكم بالخلافتين الأموية والعباسية –حيث انفصل بعد وفاة عمر بن عبد العزيز– وحكم البربر المسلمون أنفسهم بأنفسهم. وحتى مجيء الأتراك، لم يقل حاكم واحد –من الأسر العشرة البربرية التي حكمت– أن المغرب بربري وأن اللغة العربية لغة دخيلة.. في حين أن الفرس

والأتراك –الذين حكمتهم الخلافتان الأموية والعباسية لأكثر من خمسة قرون– عادوا إلى لغتهم بمجرد سقوط الخلافة العباسية.. بل أن البربر قد انطلقوا من بلاد القبائل بالجزائر وأسسوا الدولة الفاطمية وأقاموا مدينة القاهرة.

ويرى معظم علماء الإنسان من العرب والبربر، أن البربر من سلالة يمنية عاربة من قحطان.. نزحوا من ديارهم لأسباب جغرافية وسياسية.. ودفعتهم عوامل بيئية إلى اختيار الإقامة في شمال أفريقيا، التي تتشابه الحياة الخصبة فيها بالحياة الخصبة في بلاد اليمن.. وعلى ذلك فالتفسير التاريخي لسكان شمال أفريقيا غرب حدود مصر– هو أن أصلهم من الجزيرة العربية، جاءوا في دفعات متوالية حسب عوامل الهجرة المختلفة.

ويتفق على نسبة البربر إلى العرب كل من ابن الكلبي وابن قتيبة وابن جرير الطبري والمسعودي والوراق التونسي.

ولذلك لم تبذل قرطاج ذات الأصل الفينيقي مجهودا يذكر لإدماج البربر في حضارتها.. وكانت لغة الفينيقيين –التي تعربت– تنحدر من آرامية أهل الشام، هي اللغة التي كان يتحدث بها أمراء نوميديا.

والذين يدرسون اللغة البربرية يرون أن قواعد النحو البربري قريبة من القواعد العربية، كما أن هناك كلمات عربية مازالت واضحة في اللغة البربرية.

فاللغة البربرية –في رأيهم– من العائلة اللغوية السامية، كأختها العربية، وهي من اللغات السامية القديمة.

الفصل الرابع

من هم الفينيقيون؟

لا يمكننا أن نعرف تماماً كل ما يتعلق بقرطاج والقرطاجيين إلا من دراستنا للفينيقيين وحياتهم ونشاطهم في حوض البحر الأبيض المتوسط.

كان الفينيقيون يعيشون على شريط الأرض الضيق المحصور بين الجبال الشاهقة من الجهة الشرقية والبحر الأبيض المتوسط من الجهة الغربية– ساحل لبنان الآن.. وعرض هذا الشريط لا يزيد عن خمسين كيلو مترا، ويضيق أحيانا إلى نحو خمسة عشر كيلو مترا.. وقد امتدت بعض الجبال بصخورها حتى مياه البحر، مما كون حواجز طبيعية حقيقية، بالإضافة إلى الأنهار والسيول المتدفقة في فصل الشتاء.. فجعلت بعض مساحات من هذا الشريط الساحلي مقسمة إلى عدة مناطق منعزلة.. وكان الانتقال بينها أيسر وأسهل عن طريق البحر.

ولعل ذلك كان هو العامل الحاسم الذي جعل من الفينيقيين شعباً بحريا.. اشتهر برجال البحر والملاحة الساحلية، أي الإبحار بالقرب من السواحل.

وقد ظهرت المملكة الفينيقية لأول مرة في التاريخ منذ القرن الثالث عشر قبل الميلاد عندما زحفت شعوب البحر على فينيقيا (المكان وليس الدولة) واكتسحتها ودمرت وأحرقت مدنها.

كانت هناك بعض مدن مستقلة على ذلك الشريط الساحلي الذي يطلق عليه اسم لبنان، ويحده من الشرق جبل لبنان. كانت صيداً تتمتع بالحكم الذاتي بين عامي ١٤٣٠– ١٣٥٠ ق.م، وكانت مدينة جبيل **Byblus** من أقدس

مدنهم وكان يربطها بوادي النيل مواصلات بحرية منتظمة. وقد هوجمت تلك المدن المستقلة من شعوب جزر البحر ودمرها تماماً.. ثم جاء الفينيقيون واتخذوا من ذلك المكان مستقرا لهم، حيث تحميهم سلسلة الجبال من الشرق والبحر من الغرب. وأعادوا إنشاء المدن... جبيل وصور وصيدا وأرواد.

ويقول بعض علماء المصريات أن الفينيقيين -نسبة إلى فينيكس خال اخناتون- هم أتباع ديانة التوحيد الجديدة بأن الإله الواحد ليس هو آمون رع -الشمس- لأنها تشرق وتغيب، والإله لا يغيب أبدا.. وأن الإله الواحد هو آتون خالق الشمس وكل شيء.. وقد هربوا من مصر بعد القضاء على اخناتون وثورته الدينية. ولذلك لجأوا إلى هذا الشريط الساحلي الضيق الذي تحميه الجبال العالية.. والأدلة على ذلك كثيرة.

فقد مارس الفينيقيون -في جوهر معتقداتهم- ديانة تتسم بطابع زراعي مميز بما يتعلق بآلهتها وخرافاتها وطقوسها، مما يثبت أنهم مارسوا الزراعة دون غيرها قبل أن يصبحوا تجارا وملاحين.

وقد أطلقوا على إلههم اسم "ايل- EL" بمعنى "إله" وقد رأوا فيه خالق كل شيء وسيد الآلهة. ثم جاء الاستيطان على الساحل اللبناني بآلهة أخرى من سوريا الشمالية وبلاد ما بين النهرين ومن القبائل المجاورة.

وقد وجد في مقبرة الملك أحيرام أن الميت يرتدي ثيابا مصرية وأنه يجلس على عرش بجانبه تمثالان لأبي الهول. وقد استخدم في الكتبة المحفورة على غطاء "ناووس" الملك أحيرام في جبيل اثنان وعشرون رمزا اصطلاحيا تقابل اثنين وعشرين حرفا صحيحا من حروف الكتابة المصرية القديمة الهيروغليفية ومن مقارنة الرموز يستدل على أن الحروف الأبجدية المصرية كانت مصدر الأبجديات المعتمدة في كتابة لغات الشعوب السامية المجاورة.. الأرامية والعبرانية.. كما

استوحاها الإغريق بدورهم، وطوروها مضيقين بعض العلامات الجديدة إلى أشكال حروف أبجديتهم الخاصة.

ولا شك أنه ليس من المقبول عقلا ظهور شعب –الفينيقيين– فجأة على شريط ساحلي ضيق لتحميه الطبيعة –البحر غربا والجبال شرقاً– من مطارديه، واختراعه حروف الكتابة كأنه يعيش في سلام وأمن كاملين، ليأخذها غيره عنه... إلا إذا كان يعرف هذه الحروف من قبل.. وقام بتطويرها لمواجهة احتياجاته العملية في التجارة.

لم يذكر التاريخ شيئاً عن سكان مدينة أخيتاتون التي أنشأها الفرعون المصري العظيم إخناتون عند تل العمارنة. وبعد نهاية حكمه سنة ١٣٥٨ ق.م واعتلاء توت عنخ آمون عرش مصر، ثم طرد سكان المدينة من دورهم.. وطوردوا إلى خارج البلاد شرقاً، حيث اتجهوا إلى أرض كنعان بالشام.

ويقول تيرتيوس شاندلر **Tertius Chandler** في كتابه "الملوك الآلهة وعلم الأخلاق قديماً" ص ١٨، ١٩ (**Godly Kings and Early Ethics, New York, 1976**) أن الملك اخناتون عندما أعلن ثورته الدينية، قام بتطوير حروف الكتابة الهيروغليفية، وبعث باثنين من رجاله هما سيسروبس**Cecrops**وكادموس**Cadmus**. إلى الملك زيوس ملك اليونان في ذلك الوقت وكبير الآلهة في إلياذة هوميروس– ليبلغه بالديانة الجديدة والشكل الجديد لحروف الكتابة الهيروغليفية التي أوحت إلى لينوس **Linus** وضع أول حروف هجائية يونانية.

وقد وجدت في مقبرة الملك أحيرام الفينيقي آنية تحمل اسم رمسيس الثاني على مقربة من الناووس، مما يرجح أنها معاصرة لتاريخ الدفن.

وفي قرطاج، كان رداء الكاهنة القرطاجية "عريسة بعل" –الموجود بمتحف قرطاج– رداء كاهنة عظيمة الشأن يشبه رداء الكاهنة المصرية..

وهناك رأي خاطئ بين مؤرخي تونس يقول بأن الفينيقيين –والقرطاجيين من بعدهم– قد اقتبسوا نظام ووسائل حفظ الصحة العامة من الإغريق –اليونانيين القدماء– لأن منازلهم كانت تشتمل على غرف الحمامات بأحواضها ومصارفها لخروج المياه القذرة.. وهذا الرأي يتعارض تماماً مع ما أثبته المؤرخ الإغريقي هيرودوت –عندما زار مصر سنة **٤٥٤** ق.م– أن أمرين اثنين قد أثارا دهشته وانتباهه.. المرأة المصرية بشخصيتها وزينتها، ودخول المصريين إلى دورهم لقضاء حاجتهم وليس الخروج إلى الخلاء كما يفعل اليونانيون.. أي أن نظام الحمامات ودورات المياه داخل المنازل من صور الحضارة المصرية القديمة وليس اليونانية، وأن الفينيقيين –والقرطاجيين من بعدهم– قد أخذوها عن مصر وليس اليونان.

الفصل الخامس

من أقام هيكل سليمان ؟

قديما –وفي فجر تاريخ الشرق الأوسط– احتل قوم يتكلمون إحدى اللهجات السامية الشاطئ الشرقي من البحر الأبيض المتوسط، حيث استقروا على الشريط الساحلي الضيق الذي تحميه الجبال من الشرق.. وأطلق على المكان اسم فينيقيا، وحمل القوم اسم الفينيقيين.

كانت لهم لغة وثقافة مثل غيرهم من الساميين، أضيف إليها ذلك التقدم الذي اكتسبوه من ارتيادهم البحر للتنقل بين المدن التي أنشأوها، فقد اتبع الفينيقيون نظام دولة المدينة، كانت أكبر مدنهم صور وصيدا.. وبذلك تدربوا على أعمال الملاحة والتجارة حتى أصبحوا عام ١٢٥٠ ق.م، قبل خروج بني إسرائيل من مصر (سنة ١٢٢٥ ق.م). بخمسة وعشرين سنة، سادة التجارة في شرق البحر المتوسط دون أن ينافسهم أحد إلا الملاحين اليونانيين.

وقد أنشأ الفينيقيون مستعمرات ومراكز تجارية أشهرها قرطاج –التي أنشئت على الشاطئ الأفريقي في القرن التاسع قبل الميلاد– ويوتيكا.. وكانت هذه المستعمرات على صلة بالمدن الفينيقية تدفع لها ما يشبه الجزية حتى القرن السادس قبل الميلاد.. وقد امتدت المستوطنات الفينيقية إلى أسبانيا والبرتغال.. وسيطروا على البحر المتوسط.. وقد وصلوا في أسفارهم وتنقلاتهم البحرية إلى الجزر البريطانية ومنها حصلوا على القصدير.

كان الفينيقيون يجيدون ممارسة الأعمال التجارية، واتسعت البضائع تنوعا بزيادة المستوطنات والمراكز، بين خشب الأرز اللبناني والأواني الزجاجية والفخارية والأدوات المعدنية والمنسوجات، كما قامت لديهم صناعة الزجاج والأواني النحاسية.. وكانوا يجيدون أيضا فن العمارة.. وأهم ما يمثل العمارة الفينيقية كان هيكل الملك سليمان. فقد قام بناؤه الملك حيرام والجبليون بنحت الحجارة وهيأوا الأخشاب والحجارة لبناء البيت.. لأنه "ليس بين بني إسرائيل أحد يعرف قطع الخشب مثل الصيدونيين، وكذلك أعمال النحاس" (التوراة المعروفة سفر الملوك الأول ص ٥: ٦، ١٧، ١٨ وص ٧: ١٣– ٢٢).

في عام ١٥٨٠ ق.م تقريبا، قام أحمس الأول فرعون مصر بطرد الهكسوس من أراضي مصر شرق الدلتا التي احتلوها سنة ١٧٨٨ ق.م. وقد وجد في أثرهم وهم يهربون شمالاً، وفي طريقه استولى على فينيقيا وأخضعها لمصر... وقد حارب رمسيس الثاني ضد الأسيويين دفاعاً عن المملكة الفينيقية التي كانت تحت نفوذ مصر... واستمر ذلك حتى زحفت شعوب البحر على آسيا وفينيقيا سنة ١٢٠٠ ق.م، قبل أن يوقف رمسيس الثالث ذلك الزحف عند حدود مصر، ولكن زحف شعوب البحر كان قد اكتسح الكثير من المدن الفينيقية وأحرقها ودمرها، وخاصة مدينتي صور وصيدا. وكان ذلك خلال سنوات التيه الأربعين التي قضاها بنو إسرائيل يشقون طريقهم بصعوبة بين القبائل المنتشرة شمال شبه الجزيرة العربية حتى وصلوا إلى الجانب الشرقي لنهر الأردن أمام بلدة أريحا.

واستطاع الفينيقيون أن يعيدوا بناء مدنهم من جديد. وقد انتهزوا فرصة حالة الضعف التي انتابت مصر في نهاية أسرة الرعامسة ليحرروا أنفسهم من سيادتها عليهم في القرن الثاني عشر قبل الميلاد.. حتى تم لهم الاستقلال نهائيا

سنة ١٠٠٠ قبل الميلاد تقريباً.

ومع الاستقلال بدأ عصر الازدهار الذي وصفه الشاعر اليوناني هوميروس في إشعاره.. وقد ازدهرت مدينة صور -عاصمة فينيقيا- حيث اشتهرت بالتجارة والتوسع في إنشاء المستعمرات الفينيقية والمراكز التجارية التي استقرت بها بعض الجاليات الفينيقية.. ودام ازدهارها الكبير حوالي خمسمائة عام حتى سنة ٥٠٠ ق.م تقريبا.

كان الفينيقيون قد تجاوزوا أعمدة هيرقليس -أي مضيق جبل طارق- حيث أسسوا مدينة قادش سنة ١١١٠ ق.م بالجنوب الغربي من أسبانيا، بقصد الحصول على معادن الفضة والقصدير الذي كانوا يجلبونه من جزر القصدير - جزر سكيليScilly حاليا- الكائنة بجنوب الجزر البريطانية.

وفي طريقهم إلى قادش، أنشأ الفينيقيون مراكز ومحطات كثيرة، أقدمها أوتيكا -أو يوتيكاUtica- على ساحل تونس الشمالي سنة ١١٠١ ق.م، ولبتيس الكبرى Leptis Magna -أو لبدة- ولبتيس الصغرى Leptis Minor -أو لمطة- قرب سوسة، وحدرموتHdrumete -أي سوسة- بالساحل الشرقي لتونس، وهيبوزياريتHippo Ziarite- أي بنزرت التونسية ومستعمرة أونوسةOinousda -أو بيرسةByrsa- في المكان الذي تأسست فيه، فيما بعد، المدينة الكبرى قرطاج... وكذلك هيبورجيسHippo Regius -أو بونه- وهي عناية بالجزائر قرب الحدود التونسية.

كانت المراكز كثيرة جداً، معظمها محطات متواضعة كل ثلاثين كيلو متر تقريباً، لأن الفينيقيين كانوا في إبحارهم لا يبتعدون عن السواحل.. وكانوا يلجأوا إلى تلك المراكز كلما اشتدت العواصف وارتفعت الأمواج أو للاستراحة من السفر حيث يتزودون بالطعام والماء.. ولإصلاح سفنهم وتدبير شئونهم.

أما المستوطنات فلم تكن كثيرة العدد.. ويرى بعض المؤرخين أن إقامتها ترجع إلى تكاثر عدد السكان في فينيقيا مع ضيق مساحة أراضيها المحصورة بين البحر والجبال.

ويرى البعض الآخر أن إقامة المستوطنات كان بناء على خطة معينة وضعتها حكومة صور عاصمة فينيقيا، للتجارة وتبادل بضائعهم المصنوعة من المنسوجات وأواني الفخار والخرز من الزجاج وصبغة الأرجوان، بما يحتاجون من مواد غذائية وأشياء مختلفة لإعادة بيعها أو لتصنيعها مثل جلود الحيوانات وريش النعام والعاج والصمغ وغيرها.

ولا شك أن علاقات الفينيقيين الطيبة مع أهالي المناطق المحيطة بمستوطناتهم القريبة منها –الذين يتبادلون معهم التجارة ويمدونهم بالأيدي العاملة القوية وبأجور غير مرتفعة– وزيارتهم في بيوتهم ومحلاتهم ثم الزواج من بناتهم، قد ساعدت على انتشار الحضارة في حوض البحر المتوسط.

ومن أشهر الملوك الفينيقيين في مدينة صور، الملك أبيبعل ثم ابنه اهيرام – أو أحيرام– والمشهور بعلاقتها الوثيقة بالملك سليمان الذي استعان به في بناء معبده الكبير في أورشليم –بيت المقدس– حيث أمده الملك أحيرام بمواد البناء اللازمة وخاصة خشب أشجار الأرز، وكذلك بالمهندسين والفنيين الفينيقيين بل والعمال أيضاً، لأن رعايا الملك سليمان من بني إسرائيل لا يجيدون شيئا سوى الرعي وكانوا يلجأوا للفلسطينيين في كل ما يحتاجون إليه..

(راجع سفر الملوك الأول من العهد القديم ص ٥: ٦، ١٧، ١٨).

كان الفينيقيون –رجالا ونساء– يتطيبون ويكثرون من استعمال العطور، فقد وجدت بجميع القبور أوعية صغيرة وقناني معدة للطيب. كما كانوا يعتنون

كثيرا بشعورهم ويستعملون أمشاطا من العاج عليها نقوش جميلة، وجد الكثير منها في قبورهم.

وكان الرجال يطلقون اللحى، باستثناء الكهنة الذين كانوا يحلقون رؤوسهم حسب عادة الكهنة المصريين، كما كانوا يستعملون الموسي الذي يعتبرونه شيئاً مقدساً.. فقد وجدت بالقبور القديمة صفائح مستطيلة من النحاس لها يد، وهي تشبه الموسي المستعمل في مصر القديمة.

الفصل السادس

أسطورة بيجماليونوعليسة

كانت مملكة أشور بشمال العراق تحتاج إلى منافذ لها على البحر تمكنها من فتح الأسواق وتبادل التجارة، حتى تنمو وتزدهر.. لذلك اتجهت أنظارهم إلى فينيقيا تترصد الفرص للاستيلاء عليها.. وبدأ الملك سلمان أشار الثالث Salman Asar III (٨٦٠– ٨٢٥ ق.م) يهاجم المدن الساحلية ويستولي على خيراتها، حتى احتل مدينة صيدا. ولكنه لم يتمكن من الاستيلاء على مدينة صور التي صمدت في وجه قواته وردت جميع غاراته.. ولم يمنع ذلك مواصلة الآشوريين هجومهم ضد العاصمة وحصارها عدة مرات دون جدوى.

وفي تلك الفترة من الحروب والحصار، خرجت من مدينة صور جماعة على رأسها الأميرة عليسة، يحملون معهم ثرواتهم الطائلة وذخائرهم حتى لا تقع في أيدي الأشوريين خشية سقوط المدينة ذات يوم واستيلائهم عليها مثل ما فعلوا في جميع المدن الفينيقية الأخرى.

وفي الطريق توقفت الأميرة عليسة وجماعتها في جزيرة قبرص قبل أن تتجه إلى ساحل أفريقية –تونس– حيث أنشأوا مدينة قرطاج سنة ٨١٤ ق.م.

كان ذلك طبقاً لخطة محكمة وضعتها حكومة مدينة صور وليس رغم إرادتها، كما قال البعض.. ولعل دليل ذلك هو العلاقة الوطيدة والمستمرة بين مدينتي صور وقرطاج.. فقد كانت قرطاج تبعث بالمال سنوياً إلى الوطن الأم، وتبادر إلى نجدة مستوطناتها كلما تعرضت لهجوم.. إذا كانت أقرب إليها مسافة.

وقد ذكر بعض المؤرخين روايات تندرج تحت وصف الأساطير الخرافية حول هروب الأميرة عليسة من صور..

قالوا أن ملك مدينة صور أنجب ولدا هو بيجماليون وابنة هي عليسة أو ديدن.

وبعد وفاة الملك ٨٣٠ ق.م تقريبا، تولى بيجماليون الحكم تحت إشراف ووصاية أخته الأميرة عليسة، التي تزوجت بخالها عاشرباص كبير كهنة الإله ملقرط –أصله من كلمتين "ملك وقرط"، أي ملك القرية أو المدينة أو إله المدينة– أو الإله هيرقليس، كما يسميه اليونانيون.

قام الملك بيجماليون باغتيال خاله عاشرباص زوج أخته الأميرة عليسة للاستيلاء على ثروته الطائلة، وقد استطاعت عليسة أن تمنع أخاها من الاستيلاء على الكنوز، التي كان زوجها قد أخفاها تحت أرض المعبد، حتى لا تمتد إليها يد أثيمة.. وقد احتالت الأميرة عليسة –لما غفلت عين أخيها الملك عن مراقبتها– فشحنت سفينة بتلك الأموال وأبحرت بها إلى جزيرة قبرص، وهي تصحب معها عددا من علية القوم الذين سرها أمرهم وأعجبها سلوكهم. وعندما تركت قبرص كانت تحمل معها مجموعة من الفتيات العذارى الجميلات.

وقد روى المؤرخ الروماني جوستينيوس أسطورة هروب الأميرة عليسة بأموال وثروات زوجها المقتول، وقد عرضها الدكتور توفيق الطويل في كتابه "قصة الكفاح بين روما وقرطاج".

تقول الأسطورة أن بيجماليون –وهو مازال فتى يافعا– وأخته عليسة التي كانت على درجة عالية من الحسن والجمال، خلفا أباهما على عرش مملكة صور. وقد تزوج عاشرباص –كاهن هيرقليس**Hercule** المهيب الجانب–

الأميرة عليسة، وكان واسع الثراء.. وخوفاً من طمع بيجماليونوجشعه أخفى أمواله الطائلة في جوف الأرض بعيدا عن مسكنه.. وسمع الملك بيجماليون بقصة الكنز، فتحركت رغبته لامتلاكه، ولو أدى ذلك إلى مخالفة المبادئ والمثل العليا.. فقام بقتل خاله وصهره إرضاء لشهوته.

واستشاطت الأميرة عليسة –زوجة القتيل– غضبا على أخيها لارتكابه تلك الجريمة الشنعاء.. دون أن تكشف له عن حقيقة مشاعرها.. وطلبت منه أن تغادر مسكنها لأنه مثار الذكريات الأليمة، لتعيش معه وفي كنفه.

تقبل الملك بيجمالون ذلك بكل سرور وابتهاج، لظنه أن عليسة ستحضر معها كنوز زوجها.. وفي المساء توغلت الأميرة عليسة في عرض البحر، وأمرت الخدم بأن يلقوا في اليم أكياسا، كانت قد أعدها من قبل بأن ملأها بالحجارة والرمال، وربطتها بعناية لتوهم الخدم أنها تحتوي على الأموال التي يتطلع إليها سيدهم.. وكانت عليسة تبكي وتنادي زوجها بصوت حزين، متوسلة إليه أن يتقبل منها –كهدية الموتى– تلك الأموال التي كانت سببا في قتله.

وطلب منها الخدم أن يرافقوها في هجرها عندما تملكهم الخوف من عقاب سيدهم الطاغية لإلقاء الأموال في البحر فأبقتهم الأميرة عليسة معها، كما التحق بها جماعة من الأعيان.

وفي جزيرة قبرص استقبلهم الكاهن بكل حفاوة، حيث أعطته عليسة جزءاً من أموالها.. وكانت العادة في قبرص أن يرسلوا بناهم في أوقات معينة إلى الشاطئ ليضحين بعذريتهن للآلهة، حيث يقوم ذلك مقام المهر.. وتعرف هذه العادة بالبغاء المقدس.. فأخذت الأميرة عليسة منهن ثمانين فتاة عذراء، لتضمن بذلك زوجات للرجال الذين كانوا معها.

واهتاج الملك بيجماليون غضبا وأراد مطاردها حتى يقتلها، ولكنه عدل عن ذلك استجابة لتوسلات أمه، وخوفا من انتقام الآلهة، وحذرا مما أنبأه به العرافون بأن المدينة التي ستنشئها أخته بعد حين، ستكون أعظم مدن الأرض حظا وقوة.

ثم واصلت الأميرة عليسة –أو ديدن، كما كانوا يسمونها أحياناً– رحلتها، وتقدمت إلى أفريقية حيث أقبل الناس على التجارة معهم.. وابتاعت عليسة قطعة أرض لا تتجاوز مساحتها ما يشمله جلد ثور.. وبعد تمام الاتفاق على البيع والشراء مع اللوبيين، أمرت أتباعها بذبح ثور ضخم وعمل سير رقيق طويل جداً من جلده، ليحيطوا به أكبر قطعة من الأرض تنفيذا للاتفاق.. ولذلك أطلقوا على ذلك المكان اسم بيرصة.. ومعناه باللغة اليونانية "جلد الثور".

والالتباس في الأسطورة الإغريقية واضح بين كلمة بيرصة اليونانية –بمعنى جلد الثور– وبين كلمة بورصة الفينيقية– بمعنى القلعة والحصن المنيع– وهو المعنى المقصود.

وهكذا تأسست "قرط حدشت" أي المدينة الحديثة، التي أطلق عليها اليونانيون اسم "قرخدون".. وأطلق عليها الرومان اسم "قرطاجو".. وأطلق عليها العرب اسم "قرطاجنة" ويسمونها اليوم في تونس.. "قرطاج".

وقد اختارت الأميرة عليسة لتأسيس مدينة قرطاج شبه جزيرة –عبارة عن نتوء في البحر– تشبه كثيراً ذلك الموقع الجغرافي لمدينة صور.. وقد عاشت قرطاج في بدايتها حياة متواضعة خالية من كل أبهة وعظمة.. ثم أخذ شأنها يعظم شيئا فشيئا بقدر ما كان يتضاءل شأن مدينة صور عاصمة فينيقيا.. إلى أن بلغت.. في أواسط القرن السادس ق.م– أقصى درجة في العمران والثراء،

وأعلى مكانة في القوة والسيادة.

وأخيرا استطاع الفرس في عهد قمبيز أن يسيطروا على مدينة صور، التي ساهم رجالها في جميع غزواته بعد ذلك، ولكنهم امتنعوا عن الزحف ضد قرطاج عندما أراد قمبيز الاستيلاء عليها.. مما اضطره إلى العدول عن رأيه.

وفي سنة ٣٣٢ ق.م استولى الإسكندر الأكبر –المقدوني– على مدينة صور بعد حصار دام سبعة أشهر وهدمها تماماً.. وهرب معظم أهلها إلى قرطاج، المدينة التي كانت حكومة صور قد أنشأتها وهيأتها لمثل تلك الظروف والأيام العصيبة.. وعندما أراد الإسكندر الأكبر الاستيلاء على قرطاج مستعينا بالأسطول الذي يعمل عليه الفينيقيون، والذين سبق لهم أن نصروه ضد أجزركسيس ملك الفرس في معركة سلاميس البحرية، امتنع الفينيقيون عن الحرب ضد قرطاج، مما جعله يعدل عن ذلك، مثلما فعل قمبيز الفارسي من قبل.

وقد خلفت قرطاج الوطن الأم "صور" في كل شيء.. في مستوطناتها ومراكزها التجارية.. وكذلك في هيمنتها البحرية على البحر المتوسط ونشاطها التجاري.. منذ سقوط مملكة الفينيقيين شرق البحر المتوسط سنة ٥٧٤ ق.م.

ويرى بعض المؤرخين أن الفينيقيين قد أخذوا عن القبارصة –سكان جزيرة قبرص– بناء حمامات داخل المنازل وتجهيزها بإتقان، خاصة فيما يتعلق بتسخين وجريان الماء. وكانت بيوت الأغنياء في قرطاج تشتمل على قاعات الاستحمام وأحيانا أحواض خاصة للسباحة.. وكانت هناك أيضاً حمامات عامة، خصص بعضها للطبقة الأرستقراطية، والبعض الآخر لعامة الناس.

وكانت المرأة القرطاجية تفخر وتتباهى بطول شعرها، وقد ضحت به في حصار بلادها سنة ١٤٩ ق.م ليصنعوا منه حبالا لآلات الحرب.. وكانت تتزين وتتجمل وتخضب كفيها.. وكانت خدودها موردة وشفتاها حمراوين وعيونها مكحلة. وقد وجدت الحمرة والخضاب في علب صغيرة من عاج أو رصاص في كثير من القبور. وكانت تستعمل مرآة في شكل قرص مستدير –مركب في مقبض– طليت إحدى جهتيه بطبقة فضية تنعكس عليها الأشعة. وقد اختارت المرآة القرطاجية الزي النسائي اليوناني وهو الفستان المشدود حول الخصر. وكان الرجل القرطاجي يرتدي جبة طويلة فضفاضة من الصوف ذات الأكمام، مثل التي يرتديها الرجل التونسي حتى الآن.. ولم يكن يضع أي رداء فوق الجبة.. وكانت الجبة القرطاجية أشبه بالجلابية المصرية منها بالجلابية المغربية.

وقد لاحظ المؤرخون ذلك الشبه الكبير بين الملابس القرطاجية وتلك التي يرتديها مسلمو أفريقيا الشمالية في الوقت الحاضر. كما أن المعطف ذا غطاء للرأس ربما كانت له صلة بالكيكل الروماني Cucille، بينما لا يوجد شبيه له عند القرطاجيين.. ولعل الكاكولا التي يرتديها رجال الدين الإسلامي الآن، تعود في أصلها ومسماها إلى الكيكل الروماني.

وكان القرطاجيون يستعملون الحبوب وزيت الزيتون في طعامهم، ويكثرون من أكل الثوم.. ويحبون الكرنب– الملفوف– والخرشوف– والحمص.. كانوا يشربون الخمر ولكنهم لا يأكلون مثل المصريين لحم الخنزير.. وكانت الأسماك من المواد الغذائية الهامة –سواء الطازج منها أو المملح– خاصة بالنسبة للطبقة الفقيرة.

وقد امتزج القرطاجيون امتزاجا قويا بالأفارقة وصاهروهم ولم يستنكفوا من تزويج بناتهم من البربر.

وقد اقتبس القرطاجيون شكل منازلهم من النمط اليوناني، وكانت قرطاج بمنازلهم البسيطة المدهونة بالكلس- الجير- الأبيض، وأسطحها وقبابها وطرقاتها الضيقة والملتوية، تشبه كل الشبه مدن البلاد التونسية الآن.

كان القرطاجيون يستعملون المسوخ أو الوجوه المستعارة، ويعتقدون أنها تبعد عنهم الجن والشياطين وأنها تقيهم الآلام والأمراض، ومن العين الحسود.. كما كانوا يعتقدون في أشياء كثيرة أخرى مثل قشر بيض النعام والصنوج والأجراس والعقارب من النحاس أو الطين والطلاسم والتعاويذ المخطوطة على ورق البردي.. وغيرها الكثير المعروض بكثرة في متحف الآثار بقرطاج.

ولعل تلك المعتقدات مازالت قائمة في المجتمع التونسي تبدو في "حدوة الحصان" و"ذنب السمكة" وأصابع اليد المبسوطة" (الخمسة)، والبخور الذي يعمى عين الحسود، وفي تعليق التمائم للوقاية من العين، وغير ذلك من الخرافات والأوهام.

قرطاج

لعبت التجارة أهم دور في حياة قرطاج **Carthage** الاقتصادية. وكانت سياستها التجارية تتلخص في فتح الأسواق سواء بالقوة أو بالمعاهدات أو بإنشاء المستوطنات. فمنذ البداية كانت غايتها ضمان امتيازها واحتكارها التجارة بالبحر الأبيض المتوسط. وقد نجحت في ذلك نجاحا تاما، حتى أنها فرضت على روما- بموجب معاهدة أولى سنة ٥٩٠ ق.م، ومعاهدة ثانية سنة ٣٤٨ ق.م- تحريم مزاولة التجارة على الرومان وحلفائها بسواحل أفريقية وسردينيا وليبيا.. كما اشترطت ذلك أيضاً على اليونانيين، ولم تكن معهم أقل شدة أو قسوة.

كانت قرطاج وحدها صاحبة الهيمنة والسيادة على كامل الجانب الغربي من البحر المتوسط، من القرن الخامس قبل الميلاد إلى أن خسرت سردينيا سنة ٢٣٧ ق.م ثم أسبانيا سنة ٢٠٦ ق.م.

وكانت تجارة القرطاجيين تتم بالمقايضة أي بالمعارضة والمبادلة- ثم اتخذت تدريجيا استعمال السبائك المستطيلة والنقود الأجنبية في قبض أو دفع الثمن. ولم يكن لقرطاج عملة خاصة إلا في نهائية القرن الخامس ق.م، ضربت في جزيرة صقلية طبقاً للعيار الأثيني- الإغريقي- الموجود بالجزيرة.. وفي القرن الرابع ق.م ضربت العملة بدار المسكوكات في قرطاج حسب العيار الفينيقي.

كانت قرطاج تستورد من أملاكها ومستوطناتها والمناطق المجاورة لها، كل ما تحتاج إليه وخاصة المواد الأولية.. كما كان تجار مدينة صور يزودون قرطاج بالكثير من منتجات مصر وجزيرة قبرص وبلاد العرب.. وكانت صادرات قرطاج تثير إعجاب الرومان من الشمع والعسل والتين والرومان –الذي كانوا يطلقون عليه اسم التفاح البونيقي– والعاج والمرمر والأقمشة الأرجوانية والملابس والنحاس المشغول والحيوانات المتوحشة للملاعب، وكذلك الملح الذي كان من المواد التجارية الهامة.

كان القرطاجيون شعباً تجارياً وزراعياً، في حين كان الرومان شعباً عسكرياً يفتح البلاد لاستغلال الزراعة والعاملين بها. لتمد روما بخيراتها.. ولذلك كان القرطاجيون يهتمون بتنمية الاقتصاد والعمران.

كانت التجارة من أهم أسباب ثروة قرطاج التي اعتبرت أغنى مدينة في العالم بما تجمع لديها من ذهب وفضة وغيرهما.. وقد استغل الفينيقيون جهل الأسبان بالقيمة الحقيقية لمعدن الفضة المستخرج من مناجمهم، فحصلوا على كميات هائلة منه مقابل القليل والتافه من البضائع.. وبذلك كونوا ثروات طائلة من الفرق الشاسع بين سعر الفضة البخس في أسبانيا.. والمرتفع جداً في أسواق الشرق.. وقد فعلوا نفس الشيء مع معدن القصدير الذي استوردوه من شمال غرب أسبانيا ومن منطقة بريتاني الفرنسية ومن كورنوال بجنوب انجلترا..: والذي كان ضرورياً للإنتاج الصناعي في الشرق.

وكان القرطاجيون مولعين بالتطلع إلى معرفة المستقبل، وكانت بعض الكاهنات في معبد سيلستيس بقرطاج يمارسن كشف الغيب والتنبؤ بالمستقبل.. ومازالت هذه المعتقدات موجودة في تونس حتى الآن، وينتشر في كل جهة من البلاد مجموعات من الدراويش والمشعوذين، يطلقون عليهم اسم البراجين (نسبة

للأبراج) والدقازين والرمالين (نسبة إلى الرمال)، مما يؤكد تشبث المجتمع التونسي بتلك العادات القديمة.. وكان القرطاجيون يعتبرون أولئك العرافين من الشخصيات الرسمية، وكانوا يرافقون قواد الجيوش في حروبهم وغزواتهم لاستشارتهم قبل الإقدام على أمر خطير، وإتباع رأيهم..

كان الإغريق اليونانيون يسيطرون في ذلك الوقت على منطقة برقة بليبيا وبلاد الغال –فرنسا– وجزيرة كورسيكا وجنوب إيطاليا والجهة الشرقية من جزيرة صقلية، بينما كان الفينيقيون القرطاجيون يسيطرون على السواحل الأفريقية من السرت –بليبيا– إلى مضيق جبل طارق والجهة الغربية من جزيرة صقلية.

وفي عام ٤٨٠ ق.م. الحق الإغريق هزيمة بالقرطاجيين في موقعة مدينةهيمار بجزيرة صقلية، مما دفع قائد جيوشها إلى الانتحار بعد أسر جنوده وتدمير أسطوله.. ونتج عن ذلك سيطرة الإغريق على شرق البحر المتوسط، من المضيقين –مضيق صقلية ومضيق مسينا– غربا إلى البلاد المصرية شرقا.. مما حرم قرطاج من أهم أسواقها.. واضطرت إلى انتهاج سياسة التقشف والامتناع عن استيراد أي منتجات من الخارج. وبدأت البحث عن موارد جديدة تمكنها من الاكتفاء بما كان لديها... فاتجهت إلى البر بعدما كان التفكير قاصرا على البحر والتجارة البحرية.. فأنشأت مملكة داخل الأراضي الأفريقية وأقبلت على الزراعة، مما أبعد عنها شبح الفقر والمجاعة.

وفي عام ٤٠٩ ق.م سارت جيوش قرطاج إلى صقلية واستردت مدينة هيمار ثم هدمتها بكاملها، وذبح ثلاثة آلاف مقاتل إغريقي في المكان الذي انتحر فيه قائد جيوش قرطاج قبل ذلك بأكثر من سبعين سنة.

وبذلك وطدت قرطاج مركزها الاقتصادي، خاصة عندما استخدمت الأسرى كعبيد وأيدي عاملة، مما كان له أكبر الأثر في نمو الصناعة وازدهار التجارة.. ثم شرعت في تقوية علاقاتها مع الدول الأخرى، فعقدت المعاهدة الثانية مع روما سنة ٣٤٨ ق.م التي التزمت فيها روما بعدم الاتجار أو القرصنة أو إنشاء المدن على الساحل الأفريقي غرب الرأس الجميل– رأس سيدي علي المكي– وعلى ساحل أسبانيا غربي ماسيطة– قرطاجنة فيما بعد– أو بجزيرة سردينيا أو على سواحل تونس وليبيا.. وأعيد فتح طرق التجارة البحرية إلى الشرق.. وبلغ الازدهار أقصى درجاته في الربع الأول من القرن الثالث قبل الميلاد.

وباحتلال قرطاج لمعظم جزيرة صقلية، أصبحت خطرا يهدد روما التي كانت قد استولت على كل إيطاليا وحققت وحدتها وشرعت في تكوين إمبراطوريتها الجديدة.. وكان التصادم بين قرطاج وروما محتما.. ووقعت الحرب البونيقية الأولى بينهما.. (من سنة ٢٦٣– ٢٤١ ق.م).

وقد انتصر الرومان في سنوات الحرب الأولى حتى نقلوا ميدان المعركة إلى حدود مدينة قرطاج.. ثم انتصر القرطاجيون سنة ٢٥٥ ق.م تحت قيادة قائد من المرتزقة من مدينة إسبرطة الذي علمهم استعمال الفيلة في الحرب وتطويق جيش العدو بواسطة الفرسان من الجناحين، ثم فقدت روما أسطولها.. وتم عقد الصلح بين الطرفين سنة ٢٤١ ق.م، وكان انسحاب قرطاج نهائيا من كل جزيرة صقلية أهم شروطه.

وفي نفس العام بدأ كفاح الليبيين –أو البربر– ضد قرطاج تحت قيادة البطل ماطوس. وقد اشتركت المرأة في حركة التحرير.. إذ لم تنس ما كانت تفعله حكومة قرطاج بأبائهن وأزواجهن، وما كانت ترتكبه من الفظائع وألوان

التعذيب.. وقد تبرعت النساء بجميع حليهم وزينتهن، فتجمعت أموال كثيرة لدفع مرتبات الجنود ولمواجهة المصاريف اللازمة للمقاومة والكفاح.

وقضى على الثورة سنة ٢٣٧ ق.م في معركة حاسمة حيث وقع زعيمها أسيرا، فاقتادوه إلى قرطاج حيث عذبوه ومثلوا به ثم أعدموه.

وفي الحرب البونيقية الثانية (٢١٨- ٢٠١ ق.م) خسرت قرطاج أسبانيا- بلاد معدن الفضة.. وخلال هذه الفترة استطاع الملك الليبي ماسنيسا أن يعتلي عرش مملكة نوميديا الشرقية- بلاد تونس- المتاخمة للحدود الغربية لقرطاج سنة ٢٠٦ ق.م، وكانت قرطاج قد فسخت خطبته من أميرتها الحسناء صونتبعل، وزوجتها لخصمه السابق سيفاكس ليكون حليفا قويا لها.

وظل الملك ماسنيسا يشاغب قرطاج ويضايقها- ويعتدي على أراضيها ليقتطع منها جزءا جزءا.. وكان يكرر قوله.. أن القرطاجيين ما هم إلا أجانب في بلادنا قد استولوا غصبا على أملاك أجدادنا، لذلك يجب أن نسترد منهم، بجميع الوسائل، ما أخذوه منا بالقوة..

وقد بقى التأثير القرطاجي واضحا في صناعة المعادن والخزف المذهب والأصباغ والنسيج والجلد وأدوات الزراعة والآلات البحرية. كما بقي في العادات الاجتماعية كتعدد الزوجات وأنواع الحلي وأشكالها وتعليق الخمسة (الكف بالأصابع الخمس) لمنع الحسد.

كانت قرطاج بمبانيها البسيطة المبيضة بالكلس (الجير) وبأسطحها وقبابها وشوارعها الضيقة والملتوية، تشبه كل الشبه مدن البلاد التونسية في الوقت الحاضر..

الفصل الثامن

البربرية الرومانية

كانت روما تشجع الملك ماسنيسا على التوسع على حساب قرطاج، خاصة وأن معاهدة الصلح التي أبرمت سنة ٢٠١ ق.م كانت تحرم على قرطاج أن تعلن الحرب –ولو كان للدفاع عن نفسها– إلا بعد حصولها على الإذن بذلك من روما.. ولكن عندما استمر الملك ماسنيسا في اعتداءاته وهجماته، اضطرت قرطاج أن تدخل الحرب ضده، والتي انتهت بهزيمتها وفرض الملك ماسنيسا شروطه عليها.

وبإشهار قرطاج الحرب على الملك ماسنيسا خالفت أحد شروط المعاهدة مع روما، مما اعتبر خرقا للاتفاق المبرم بينهما. وعندما علمت قرطاج باستعدادات روما الحربية، بادرت بإصدار حكم الإعدام على الذين أشاروا بالحرب ضد الملك ماسنيسا، وتم تنفيذ الحكم. ولكن روما لم تقبل ذلك وقررت سحق قرطاج ومحو آثارها حتى لا يتخذها أي ملك بعد ذلك قاعدة لحرب جديدة ضدها.

وفي ربيع عام ١٤٩ ق.م أرسلت روما جيشا كبيرا إلى مدينة أوتيكا، التي كانت قد سلمت نفسها للرومان نكاية في قرطاج. وأملاً في إيقاف تيار الحرب، أظهرت قرطاج خضوعها واستسلامها لروما بإرسال ثلاثمائة رهينة من النبلاء إليها، ولكن القنصل الروماني مانيلوس –قائد القوات البرية الرومانية– لم يكفه ذلك، وطلب أن تسلم إليه قرطاج جميع الأسلحة والعدد الحربية وأدوات القتال، على أن تتولى روما حمايتها والدفاع عنها وقت الحاجة.

واضطرت قرطاج أن تسلم أسلحتها الخفيفة والثقيلة وجميع السفن.. وتم نقل كل ذلك إلى أوتيكا.. وعندئذ أعلن القنصل الروماني حكم الإعدام الذي أصدرته روما ضد قرطاج.. "إن روما تأمركم بأن تبارحوا مدينة قرطاج نهائياً، إذ تقرر هدمها، وأن تقيموا في أي مكان آخر يروق لكم بشرط أن يكون بعيدا عن البحر بخمسة عشر كيلو متراً.

وأغلقت قرطاج أبوابها، لتبدأ الحرب البونيقية الثالثة وصمدت في وجه القوات الرومانية طيلة ثلاث سنوات بقوة لم يتوقعها الرومان.. فقد أحال القرطاجيون معابدهم وساحاتها المقدسة إلى مصانع للسلاح يعمل فيها الرجال والنساء طوال الليل والنهار.. ولما لم يجدوا حبالاً لتلك الآلات الحربية، قامت النساء بقص شعورهن، وجعلن منها للمنجانيق حبالا وللقسى أوتارا، كما تبرعن بجميع ما يملكن من ذهب وحلي.

وفي ربيع عام ١٤٦ ق.م، بدأ الهجوم الكبير على قرطاج واضطر الرومان إلى اقتحام المنازل والصعود إلى طبقاتها الستة، يتقاتلون مع السكان في البيوت والشوارع وعلى أسطح المنازل. وأضرمت النار في المدينة التي ظلت مشتعلة مدة عشرة أيام بعد أن نهبها الرومان.. وأمر القائد الروماني بهدم المدينة وتخريب مبانيها.. وبذلك انتهت مملكة قرطاج بعد أن هدمت وخربت جميع المدن التي كانت تناصرها، وهي بنزرت وقليبية ونابل.

لم يعمد الرومان إلى احتلال الشمال الأفريقي مباشرة بعد احتلال قرطاجنة، بل اهتموا في البداية بالمناطق المجاورة لها، وأصبح الجزء المقتطع تابعا للجمهورية الرومانية تحت اسم "أفريقيا" ثم فصلوا الإمارة الوطنية الأصلية بحدود عبارة عن خندق يمتد من طبرقة إلى ناحية صفاقس وحولوا العاصمة الإدارية لهذا الإقليم إلى "أوتيكا" شمال تونس، ووضع على رأسها حاكم روماني

يحمل لقب نائب قنصل.

وأنشأت روما ولاية أفريقيا الرومانية مكان مملكة قرطاج، وجعلت عاصمتها مدينة أوتيكا وتمكنت روما من بسط نفوذها على البلاد التونسية رغم مقاومة البربر سكان البلاد الأصليين.

وقد أقام الرومان على أنقاض قرطاج مدينة قرطاجنة جديدة، واجتهدوا أن يجعلوا منها ثاني مدنهم بعد روما حتى امتد نفوذها السياسي والأدبي إلى مغارب الأرض.

وجد الرومان مقاومة عنيفة من شعب نوميديا التي كانت مملكة عظيمة تختلف حدودها حسب اختلاف المراحل التاريخية التي اجتازتها، تمتد من ليبيا شرقا إلى ملوية غربا.

وقد عرفت أفريقية –في تلك الفترة– مدنية وعمرانا وحضارة وثقافة فكرية، فأسس الملك يوبا الثاني جامعة للآداب والعلوم والفنون المعروفة حينذاك.

كان للمؤرخ سترابون الفضل في الكلام تفصيلاً عن الإمبراطورية البربرية التي ظهرت في القرن الثاني قبل الميلاد، في عهد الملك يوبا الأول ويوبا الثاني ويوغرطة.. الذي وحد البلاد وكون إمبراطورية.. بذل الرومان جهدهم للقضاء عليها، حتى حققوا ما أرادوا، فقضوا عليه وعلى قرطاج في وقت واحد..

واقتطعوا من الملك يوبا الأول ثم يوبا الثاني قسما من البلاد، فاهتم يوبا الثاني بالعلوم والآداب، وجعل من شرشال عاصمة للحضارة الهلينية.

على أثر انتصار قيصر على مزاحمه بومبي وعلى الملك النوميدييوبا – حليف بومبي– في معركة تيسوس الشهيرة سنة ١٣٦ ق.م، ألحق قيصر بولاية

أفريكا –أفريقية– القسم الشرقي من نوميديا الذي أصبح يعرف سنة ٢٥م. على عهد أغسطس قيصر بأفريكا نوفا، أي أفريقيا الجديدة.

وقد أطلق العرب اسم أفريقية على تلك الولاية الرومانية، التي كانت تشتمل على الأراضي التي تشكل حاليا البلاد التونسية وعلى جزء من غربي ليبيا.

كان للرومانيين نظام عسكري محكم، طبع حياتهم بالنظام والقوة والقسوة. لذلك لم تكن روما ذات حضارة إنسانية أصيلة، مثلما كانت الحضارة المصرية بل كانت مجتمع قوة عسكرية، ولذلك كانت أهمية مجموعات القوانين التي أصدرها جستنيان لتنظيم ذلك المجتمع والتخفيف من أثر القوة العسكرية على القيم الاجتماعية والأخلاقية وإضعافها.

أصدر الملك بوكخوريس (٧١٨– ٧١٢ ق.م) من الأسرة الرابعة والعشرين مجموعة القوانين المصرية. وفي سنة ٥٩٤ ق.م. جاء صولون إلى مصر لدراسة القانون وعاد إلى أثينا ومعه قانون بوكخوريس ليصدر في بلاد الإغريق باسم قانون صولون. ثم أصدر جستنيان الروماني موسوعته بناء على دراسة لجنة الأشراف لقانون صولون (راجع د. وسيم السيسي جريدة المصري اليوم ٢٠١٠/١١/٢٧ مقال القانون بضاعتنا وقد ردت إلينا والمرجع المشار إليه).

ولعل ذلك الانحدار الأخلاقي الذي كان يلازم القوة العسكرية في المجتمع الروماني –مثلما هو كائن في مجتمع القوى العظمى الوحيدة في العالم الآن– يقف خلف جميع المخازي الإنسانية والتاريخية التي ارتكبها الرومان.. منها على سبيل المثال لا الحصر:

١. خديعة الملك يوغرطة سنة ١٠٥ ق.م.. كان الجنود الرومان بقيادة ماريوس

قد دخلوا مدينة قفصة سنة ١٠٧ ق.م، حيث قاموا بهدمها وإحراقها والفتك بجميع سكانها بقصد إثارة الخوف والفزع في نفوس النوميديين وفي عام ١٠٦ ق.م. بلغ مايوس وادي الملوية –وهو الحد الفاصل بين نوميديا وموريتانيا– حيث استولى على حصن تاوريرت **Taourirt** المنيع، الذي كان الملك يوغرطة ملك نوميديا –البلاد التونسية– يخفي فيه أمواله وذخائره.

وفي سنة ١٠٥ ق.م استطاع الرومان بالخديعة أن يقبضوا على الملك يوغرطة، عندما ذهب إليهم بناء على دعوتهم له للتفاوض في شأن وقف القتال وإبرام الصلح، وتم إعداد كمين بالقرب من مكان التفاوض حيث تم إلقاء القبض على ذلك الملك النوميدي بالغدر والخيانة.. وبذلك استطاع الرومان وضع حد لحرب طويلة. مشكوك في نتيجتها، ليسجل التاريخ إحدى الفضائح المخجلة التي جعلت اسم الملك يوغرطة يثير في نفس الرومان –ولعدة قرون– الشعور بالخزي والعار.

وفي أول يناير ١٠٤ ق.م. أقيم احتفال بالنصر الذي لم يكن في ميدان المعركة –كما يقول جوليان في كتابه "تاريخ أفريقيا الشمالية".. وكان الملك يوغرطة –ذلك البطل النوميدي الذي قاوم الرومان سبع سنوات– يسير على قدميه أمام عربة القائد ماريوس المنتصر مرتديا القميص الأرجواني.. وبعد الاحتفال، أودع في سجن توليانوم –**Tullianum**– تحت قصر الكابيتول، حيث مكث لستة أيام لا يذوق طعاما أو شرابا.. ولم يرحمه من آلام الجوع والعطش إلا حبل المشنقة يوم السابع من شهر يناير سنة ١٠٤ ق.م.

٢. حرق مكتبة الإسكندرية سنة ٤٧ ق.م كانت سفن يوليوس قيصر محاصرة في الميناء الكبير أمام القصر الملكي، حيث عسكر هو ورجاله.. ودون

انتظار للإمدادات التي طلبها من سوريا، قام قيصر بالاستيلاء على المنارة بجزيرة فاروس حيث وجه مرآتها الضخمة نحو الأسطول المصري الذي كان يقطع عليه طريق انسحابه بحراً، وأضرم النيران في السفن الواحدة بعد الأخرى، حتى احترقت السفن الاثنتان والسبعون.. واحترقت أيضا كميات كبيرة من الكتب الخاصة بمكتبة الإسكندرية حيث اندلعت النيران في المدينة. وقد فشلت جميع محاولات التنصل من ارتكاب الرومان لتلك الجريمة المخزية. وإذا كانت بعض الدول والمؤسسات العالمية قد ساهمت في إقامة مكتبة جديدة مكانها، فهل يمكن أن تعيد إليها ما كانت تضمه خزائنها من علوم وفنون وثقافة وتاريخ وفلسفة؟!.

٣. خطف وقتل الأمير قيصرون ابن الملكة كليوباترا ويوليوس قيصر –حتى لا يرتقي يوماً عرش روما– سنة ٣٠ ق.م. ثم أخيه الإسكندر ابن مارك أنطونيو لنفس الأسباب.

٤. قتل الملك بطلميوس –ابن الملك يوبا الثاني والملكة كليوباترا الثامنة– ملك نوميديا الشرقية (تونس) لمجرد أنه لفت إليه الأنظار بحسن منظره وبهاء ردائه الأرجواني في حضرة الإمبراطور الروماني جايوس**Gaius** الملقب كاليجولا سنة ٤٠ ق.م.

٥. اللهو والتسلية بإعدام العبيد في المسارح الرومانية بالمصارعة مع زملائهم حتى الموت أو مع الوحوش المفترسة.

٦. الاضطهاد الديني للمسيحيين حتى بلغ ذروته عام ٢٥٠م.

لم تسيطر روما على البلاد بسهولة بل اتحد البربر والقرطاجيون تحت قيادة هانبيال لمقاومة الغطرسة الرومانية. ولعل تآخي البربر والقرطاجيين ضد المستعمر

الأجنبي والانسجام التام بينهم في الحروب البونيقية، حجة أخرى على وحدة الجنس العربي السامي، ولأن اللغتين –الفينيقية والعربية– متشابهتان في الأصل، وهي عامل رئيسي في الاتحاد الفكري.

لم يدم انتصار روما طويلاً في أفريقية، فقد هاجمهم الوندال وأتلفوا معالم أعمالهم.. ثم جاء البيزنطيون وقاوموا الغزو الوندالي وأعادوا أفريقية إلى الإمبراطورية الرومانية الشرقية. وقد استطاعوا تغيير الحياة البربرية من التأثير الفينيقي إلى التأثر بالحياة الرومانية سواء في تفكيرها أو نظامها، فقد تأثر نظام الجماعة في الحكم بنظام الحكم النيابي الروماني، ولكن الشعب ظل يتكلم بلغته البربرية رغم كل المحاولات التعسفية لفرض اللغة الرومانية.

الفصل التاسع

الفاندال والأندلس

يذكر ابن خلدون أن عقائد البربر قد تطورت حسب تأثرها بمن جاءهم من الأمم، فقد عرفوا المجوسية متأثرين بالوثنية الفارسية، كما عرفوا اليهودية التي دخلت مع المتهودين اليمنيين.. وعرفوا المسيحية التي ازدهرت قبل أن تتعرض للاضطهاد العنيف على يد الكنيسة الرومانية.

ثم جاء فوتيه جنسريق ملك الوندال ليحارب الكنيسة حربا شعواء لأنه كان مسيحيا أريوسا يؤمن بمذهب أريوس الذي يقول بالطبيعة البشرية للسيد المسيح، أي أنه كان إنسانا وليس إلها، وكانت سنة ٤٤٢م من أقسى السنوات عناء للمسيحية في أفريقية.

كان الرومان لا يجيدون غير مهنة القتال، بينما يقوم لهم العبيد من أسرى الحرب بكل مستلزمات حياتهم.. وبذلك أخذوا نظام بناء المنازل المشتملة على صحن الدار –أي على ساحة بدون سقف– من الاترورين Etrasques الذين كانوا يقيمون بين نهر أرنو شمالا ونهر التيبر جنوبا وشرقا.. ثم انتقل إلى تونس، حيث يقيم التونسيون بيوتهم على ذلك الشكل الآن.

ولم يجد الرومان مفرا من تقليد أسلافهم القرطاجيين للانتفاع بتجاربهم والعمل بوسائلهم في التمدين وتعمير الأرض. لذلك تميز العصر الروماني في تونس بازدهار الزراعة حتى لقبت البلاد بمزرعة روما.. وانتشر البناء والعمران الذي بقيت آثاره حتى الآن في الجم ودقة وسبيطلة ومكثر وبلاريجيا وغيرها.

كان النوميديون –أبناء البلاد– الذين حملهم الملك ماسنيسا على الثبات والاستقرار فوق أراضيهم هم الذين أصبحوا في القرنين الثاني والثالث الميلاديين، من أغنياء الفلاحين يعيشون حياة رومانية، ويكون منهم بعض أباطرة روما.

ولقد كانت هناك عائلة تونسية أصلها من بلدة الجم **El-Jem** التي اشتهرت بمسرحها الكبير الذي يضاهي مسارح روما الكبرى– وهي عائلة غورديانوس**Gordianus** التي تولت بناء هذا المسرح العظيم.. وقد تولى غورديانوس الأول ثم ابنه –ثم حفيده من بعدهما– الجلوس على عرش أباطرة روما.

لم يكن الحال ليبقى مستقرا في البلاد التونسية مع الضعف الذي بدا يعتري الدولة الرومانية، وبعد أن هاجمتها قبائل البرابرة في شمال أوربا واستولت على أراضيها.. وتقدمت قبائل الفاندال**Vandales** الجرمانية –الألمانية الأصل– وقامت بغزو بلاد الغال –فرنسا– سنة ٤٠٦م. ولكن الفرنجة رفضوا السماح لهم بالاستيطان، فاضطروا إلى الانتقال لأسبانيا.. وبعد أن واجه الفاندال مقاومة، عقدوا صلحا مع الإمبراطور هوتوريوس الذي اعترف بحقهم في الإقامة على الأرض الأسبانية ولكن تحت سلطة الإمبراطور.. وبذلك أتيح لهم أن يستقروا في إقليم الأندلس بجنوب أسبانيا، الذي أطلق عليه اسم فاندلوسيا نسبة إليهم.. وتطور الاسم بعد ذلك.. واندالوسيا– أندلوسيا– أندلس.. واستطاع الوندال –أو الفاندال– أن يقيموا دولة قوية في الأندلس.. وأنشأ ملكهم جنسريك أسطولا عظيما.

وتلبية لطلب بونيفاس الروماني، اجتاز جنسريك من الأندلس إلى المغرب عبر مضيق جبل طارق، واحتل مدن أفريقية –البلاد التونسية، وكان عددهم عندما دخلوا أفريقيا سنة ٤٢٩م–. ثمانين ألفا منهم عشرون ألف مقاتل.. وقد

انتهز الوندال فرصة اضطراب الأحوال في أفريقية، فاستولوا على قرطاجنة سنة ٤٣٥م، وسيطروا على معظم ولاية أفريقية. وكان ذلك آخر عهد الوندال بالهجرة حيث قضوا السنوات التالية في بناء مملكة قوية وتوطيدها.. وفي سنة ٤٣٥م. عقدت معاهدة صلح بين الوندال والرومان، اعترف فيها الرومان بحق الوندال في الاستقرار على أراضي نوميديا.. ولكن الوندال تقدموا نحو مدينة قرطاج وحاصروها سنة ٤٣٩م. واستولوا عليها دون أن يصادفوا أية مقاومة.. وجعلوا قرطاجنة عاصمة لمملكتهم الجديدة.

ولم يتوقفوا عند ذلك الحد، بل استولوا على طرابلس وجزر البحر المتوسط، ثم هاجموا إيطاليا واحتلوا مدينة روما سنة ٤٥٥م. لمدة خمسة عشر يوما إذلالاً للرومانيين، ونهبوها نهبا منظما، وعادوا بغنائمهم إلى قرطاج –أو قرطاجنة– ومعهم الكثير من الأسرى والسبايا ومنهن الإمبراطورة نفسها وابنتاها..

وقد استولى الوندال على جميع الأراضي والمزارع الخصبة والمباني الكبيرة التي كانت للدولة الرومانية أو للأغنياء والطبقة الأرستقراطية من الرومان واقتسموها فيما بينهم.. واجتاحت سفنهم سواحل صقلية وإيطاليا وسيطر أسطولها على البحر المتوسط حتى انتهى حكمهم عام ٥٣٣م بسقوط قرطاجنة في أيدي الروم البيزنطيين وأسر ملكهم جليمير.

والملاحظ أن الوندال لم يحتلوا البلاد الأفريقية إلا احتلالا جزئيا ناقصا، فقد قضوا على النفوذ الروماني بأفريقيا الشمالية، ولكنهم لم يقيموا نفوذهم مكانه.. بل استرخوا تحت تأثير المناخ ونظام الحياة، وتركوا أبناء البلاد يستعيدون قوتهم واستقلالهم.. وقد أدى ذلك إلى سرعة سقوطهم وانهيارهم.

كانت برقة البيزنطية لا تكاد تعدو مدنها الخمس.. أنطابلس (في برقة) وطرابلس وسرت Syrta وصبرة وقابس (على الساحل الشرقي لتونس- غرب جزيرة جربه).

انتصر البيزنطيون على الواندال في معركة بساحة سيدي فتح الله قرب تونس، ودخلوا مدينة قرطاجنة.

وتم إلحاق أفريقية -تونس-بالإمبراطورية البيزنطية سنة ٥٣٤م. مع إبقاء قرطاجنة عاصمة للولاية.

العبادلة السبعة

كان للفينيقيين أثر واضح في معتقدات البربر فقد نقلوا إليهم آلهتهم وطرق عباداتهم.. وأخذ أهل البلاد يتطورون مع القادم الجديد في كل ناحية من نواحي الحياة. ويسايرونه في عاداته ومعتقداته، مع الاحتفاظ بعقائدهم الأصلية إلى حد بعيد، أو دمجها بالعقيدة الجديدة.. إلى أن جاء الإسلام.

في عام ٦٤٨م- ٢٧هـ- إصدار الخليفة عثمان بن عفان أمره إلى والي مصر -وأخيه في الرضاع- عبد الله بن سعد بن أبي سرح، بالسير إلى أفريقية - البلاد التونسية- فقاد جيشا قوامه عشرون ألفا من الصحابة والتابعين، وهاجم مدينة سفيطلة، عند الروم- سبيلطه، عند العرب- الكائنة بأواسط البلاد التونسية.. التي مازالت آثارها العظيمة حتى الآن في الجنوب الغربي لمدينة القيروان.

كان يحكمها البطريرك جريجوريوس -الذي يسميه العرب جرجير- بعد أن أعلن استقلاله عن حكومة قرطاج البيزنطية وقد خرج لمقاتلة المسلمين على رأس جيش بلغ عدده مائة ألف مقاتل من الروم والبربر -السكان الأصليين لبلاد تونس وشمال أفريقيا- انتصر العرب المسلمون، وقتل البطريرك جريجوريوس بضربة من عبد الله بن الزبير.

وتم الصلح بناء على طلب الروم والبربر، ودفعوا ثلاثمائة قنطارا من الذهب، عاد بها الجيش العربي إلى مصر سنة ٦٥٠م (٢٩هـ).

وقد وقف البربر بجانب البيزنطيين لمقاومة الفتح العربي أول الأمر، ولكنهم لم يلبثوا أن انضموا لصفوف المسلمين.. واستمر الغزو طيلة ولاية معاوية بن حديج وعقبة بن نافع.

وقد عرفت الغزوة باسم "غزوة العبادلة السبعة" لأن الجيش العربي الإسلامي كان يضم سبعة من وجوه الصحابة باسم "عبد الله" وهم: عبد الله بن سعد بن أبي سرح (أحد كتاب وحي رسول الله) عبد الله بن الزبير بن العوام (ابن أسماء بنت أبي بكر الصديق) عبد الله بن عباس بن عبد المطلب– عبد الله بن جعفر– عبد الله بن عمر بن الخطاب– عبد الله بن مسعود– عبد الله بن عمرو بن العاص السهمي.

ثم كان قدوم الصحابي عقبة بن نافع الذي أسس مدينة القيروان سنة ٦٧٠م. وقد اختار موقعها بمنحدر يقع في منتصف الطريق بين الساحل الشرقي حيث الأسطول البيزنطي، وبين الجبال التي اتخذتها القبائل البربرية موطنا لها.

وقد أراد القائد العربي أن يشيد مدينة تكون قلعة للجيوش الإسلامية حتى آخر الزمان.. فبدأ بإنشاء المسجد وجعلها عاصمة أفريقية– تونس.

وفي عام ٦٩٥م. أرسل عبد الملك بن مروان– الخليفة الأموي– جيشاً من أربعين ألف مقاتل بقيادة حسان بن ثابت النعمان الغساني، فتوجه إلى أفريقية وحاصر قرطاجنة حتى استولى عليها. وأخضع البربر، ودانت البلاد للإسلام.. فقد دخل التونسيون في دين الله أفواجا ورحبوا بالمسلمين وناصروهم ضد الروم والبيزنطيين.. واختلطوا بهم لما لا قوة من عدل وإنصاف ومحافظة على مكارم الأخلاق، ومن دعوة صادقة إلى المساواة بين كافة الناس.

وقد تطورت مدينة القيروان بسرعة، من مجرد معسكر للجيوش الفاتحة، لتصبح أكبر موقع إشعاع حضاري بالمغرب.. وأصبحت أول مدينة إسلامية في تونس حيث أعطتها أعظم الفقهاء الإسلاميين، وكذلك أرق وأظرف الشعراء، وقام حسان بن النعمان بتجديد الجامع الأعظم بالقيروان.

وقد عرفت القيروان عهدها الذهبي أيام الدولة الأغلبية التي أسسها إبراهيم بن الأغلب في القرن التاسع الميلادي.

وقام حسان بن النعمان بإقامة أول مصنع إسلامي لبناء السفن والمراكب الحربية بمدينة تونس، بعد أن استقدم لهذا الغرض ألف صانع –وثلاثة آلاف في قول آخر– وعائلاتهم من أقباط مصر.. ولعل ذلك يفسر هذا الحب الكبير الذي يكنه التونسيون –الذين تجري في عروقهم دماء الآلاف من المصريين– للشعب المصري.

وقد قام حسان بن النعمان بتوزيع مساحات كبيرة من الأراضي الزراعية – التي كانت قبلا ملكا للحكومة البيزنطية– على الفلاحين من البربر. وبإقرارهم في الأرض ومساعدتهم على الكسب من الزراعة، استمال حسان قلوبهم وقربهم من الإسلام، حتى أنه اتخذ منهم جيشاً عظيماً فيما بعد، فتح به المسلمون المغرب والأندلس.

وتشتهر مدينة القيروان بصناعة الزرابي– السجاد– كما تشتهر بصناعة الحلوى وأهمها "المقروض".. وهو عبارة عن دقيق القمح– طحين– مخلوط بمعجون التمور والعسل. ولا يمكن لرجل تونسي أن يعود إلى بيته بعد زيارة مدينة القيروان، إلا إذا كان يحمل بين يديه أشكالاً مختلفة من تلك الحلوى.. وقد نبهني الصديق الكابتن طيار نعمان الزربي إلى ضرورة أن أحمل معي بعض هدايا من "المقروض" لأصدقائي في مدينة المنستير.

وهناك عادة جرت بين الناس في تونس، ترى أن زيارة مدينة القيروان سبع مرات تغني عن الحج إلى مكة، ذلك لأن المدينة قد عرفت فجر الإسلام واستقبلت المجاهدين الأوائل الذين عايشوا (الرسول ﷺ).

ويعتقد أهالي القيروان أن الماء العذب الصافي الذي يخرج من بئر "بروطة" بواسطة جمل معصوب العينين، وأرد من الأراضي المقدسة بشبه الجزيرة العربية بعد رحلة طويلة.

ويؤمنون بأنه عند شرب هذا الماء، تدعو لتحقيق إحدى الأمنيات وتلتزم بالوفاء بالنذر الذي تحدده وأنت تعقد قطعة من القماش أو الملابس على أحد جانبي الجمل. ولا تزيل هذه الربطة –أو العقدة– إلا بعد تحقيق الأمنية والوفاء بالنذر.

الفصل الحادي عشر

جامع الزيتونة أول جامعة إسلامية

عندما تولى موسى بن نصير إمارة أفريقية سنة ٨٥هـ (٧٠٤م) وفتح طنجة، عين طارق بن زياد –وهو من البربر– والياً عليها، وأبقى معه عدداً قليلاً من العرب واثنتي عشر ألفاً من مسلمي البربر.. وقد اجتاز بهم البحر فيما بعد إلى أسبانيا، وكان نزوله في مكان عرف باسمه "جبل طارق" وفتح بلاد الأندلس.

وكان من أهم أعمال الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز، أن أرسل إلى تونس عشرة فقهاء من أعيان التابعين، منهم أبو عبد الرحمن عبد الله الحبلي، وإسماعيل بن عبيد المعروف بتاجر الله –وهو الذي أقام جامع الزيتونة– وأبو الجهم عبد الرحمن بن رافع التوخي –وهو أول قاض بالقيروان– وإسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر.. وتم توزيعهم على ولاية أفريقية (تونس).

وقد ترتب على ذلك تسابق الناس للدخول في الإسلام ونبوغ الكثيرين من أبناء البلاد في الفقه والعلوم الدينية، ولم يمض على الفتح الإسلامي وقت طويل حتى اندمج البربر –السكان الأصليون– في الأمة العربية.

وقد استطاع العرب أن يوحدوا بينهم وبين سكان البلاد الأصليين للاستمرار في بناء حضارة متشابهة الأصل. وتطورت المدينة من الشكل الروماني إلى الشكل الإسلامي استجابة للتأثيرات العقائدية، فاشتملت المدينة على المسجد بمرافقه المائية والدينية والمدرسة التعليمية.. والساعات لضبط الأوقات

والدكاكين والأسواق والمنازل والحمامات التي أصبحت شعبية، تختلف عن الحمامات الرومانية.. فهي أمكنة للنظافة والطهارة والغسل، ومستوصفات علاجية، كما يحيط بالمدينة سور وأبراج للدفاع عن سلامة سكانها. كما تتشابه العادات الاجتماعية وأهمها الوشم والخضاب والختان، والتعلق بحركات الكواكب والنجوم ومظاهر الكون المفزعة.. وتحريم لحم خنزير.. وقد ذكرها تفصيلاً ستيفان فزال في كتابه "التاريخ القديم لأفريقيا الشمالية ونظام البربر الاجتماعي والسياسي والاقتصادي".

وشاع استعمال الزينة عند الرجال والنساء على السواء.. فتحلى الرجال بأقراط الأذن، وأكاليل الريش، وتحلت النساء بالخلخال ووشموا وجوهم بعلامات طوطمية خاصة بكل قبيلة.

وقد اقتسم الرجال والنساء العمل في الحقل، إلا أن المرأة اختصت بالطبخ والنسيج وصناعة الخزف، واختص الرجل بالزراعة والحرث والبناء والدفاع عن حوزة القبيلة.

عندما أنشأ عقبة بن نافع جامع القيروان، أصبح المسجد جامعة إسلامية للرجال والنساء، فكان سحنون بن سعيد وأسد بن الفرات يقومان بالتدريس، كما كانت خديجة بنت سحنون وفاطمة بنت أسد بن الفرات تقومان بالتدريس بالجانب الأيسر المخصص للنساء، ثم تجاوزت الدراسة العلوم الإسلامية والآداب إلى التعليم العام والعلوم الأخرى. وقد أسس زيادة الله الثالث –من دولة الأغالبة– إلى جانب جامع القيروان وعلى خطوات منه–" "بيت الحكمة" وهو معهد لدراسة الرياضة والطب والصيدلة، وترجمة الكتب اللاتينية. وأصبحت القيروان وارثة قرطاجنة وروما فيما خلفنا من تراث فكري وعلمي. وازدهرت الزراعة كما كانت في عصر الرومان.

ومن أهم فقهاء القيروان أسد بن الفرات –أبو عبد الله أسد بن الفرات بن سنان– الذي تلقى العلم من أصحاب أبي حنيفة القاضي –أبو يوسف ومُحَمَّد بن الحسن وزفر– وقد أخذ عنهم وعن الإمام مالك بن أنس وعن عبد الرحمن بن القاسم ودون كتابه "الأسدية" نسبة إلى اسمه، وقام بالتدريس ونشر العلم في تونس، وتولى قضاء القيروان.

ومنهم أيضاً أبو سعيد سحنون بن سعيد حبيب التنوخي –المولود بالقيروان سنة ١٦٠هـ (٧٧٧م)– وتلقى العلم عن علي بن زياد وأسد بن الفرات، ثم سافر إلى الشرق –مصر والشام والحجاز– وأخذ الفقه الإسلامي عن كبار العلماء بها... ثم عاد إلى بلاده سنة ١٩١هـ (٨٠٧م) ونشر علم أهل المدينة ومذهب الإمام مالك بن أنس في تونس. ووضع كتابه "المدونة الكبرى" الذي جمع فيه مسائل الفقه على مذهب الإمام مالك.

كان سحنون بن سعيد (١٦٠– ٢٤٠هـ) أهم دعامة للمذهب المالكي، وخاصة بعد تأليفه "المدونة" التي اعتمد عليها علماء الفقه في شمال أفريقيا. وكانت المدونة في نشأتها هي تحرير للفقه على أساس القرآن والحديث، ولذلك كان طابع الثقافة الإسلامية في تونس هو الاستناد إلى النص القرآني والحديث، وعدم الأخذ بالرأي على طريقة المذهب الحنفي. وقد بقيت "المدونة" نواة للجدل الفقهي والافتراضات التشريعية.

كان القضاء في تونس –أفريقية– يجري طبقاً لأحكام التشريع الإسلامي من الكتاب والسنة.. ثم ظهرت المذاهب الفقهية وانتشر المذهب المالكي بفضل جماعة العلماء الذين تتلمذوا على إمام دار الهجرة مالك بن أنس.. وأصبحت تونس بلداً عربي اللسان، إسلامي الثقافة والفكر. فقد كان علماء مدرسته الإسلامية الأولى، جماعة من أصحاب الرسول (ﷺ) ومن التابعين.

فتلقى منهم المبادئ الإسلامية الصحيحة السامية والأحكام الرائعة، قبل أن يختلط بها الكثير من الأعراف والتقاليد.

نظم الإمام سحنون القضاء بتعيين أعوان للقضاة بمرتبات وأنشأ مقراً خاصاً لمجلس القضاء احتراماً للمساجد وصوناً لها.. ولما ظهر المذهب الحنفي، جلس إلى جانب القاضي مفتيان، أحدهما على المذهب المالكي والآخر على المذهب الحنفي... وعلى ذلك فقد ساد تونس المذهبان المالكي والحنفي دون سواهما... فكان كل تشريع يصدر بالبلاد يعتمدها ويستمد أحكامه منهما..

وقد اعتمدت كل المحاولات الرامية إلى وضع تشريع عصري مراعاة للمصلحة العامة –بتقريب الأحكام إلى الأفهام، وتحقيق الوضوح الفقهي وإزالة الغموض عن النصوص بسبب اختلاف الفقهاء، حتى يعلم المتقاضون محتوى النصوص وتطبيقها قبل القضاء بها، بل وقبل رفع الدعوى– اعتمدت على المذهبين الجاري العمل بهما في تونس دون سواهما..

وقد قام فقيه تونس الشيخ عبد العزيز جعيط شيخ الإسلام المالكي بمباشرة وضع لائحة فقهية جامعة للأحكام الشرعية في الأحوال الشخصية. وقد تولى الشيخ عبد العزيز جعيط عدة مناصب شرعية بجامع الزيتونة وبالمحكمة الشرعية، ثم صار شيخاً للإسلام على المذهب المالكي في مارس سنة ١٩٤٥، ثم وزيراً للعدل –مع احتفاظه بمنصب شيخ الإسلام– سنة ١٩٤٧م.

كان الشيخ عبد العزيز جعيط رئيساً للجنة التي ضمت عدداً من العلماء والفقهاء، منهم المفتي المالكي والمفتي الحنفي ورئيس محكمة التعقيب (النقض) واثنين من القضاة ونقيب المحامين وبعض المحامين واثنين من أصحاب الصحف.. وكان رئيس اللجنة يحرر المواد ويجمعها ويرتبها حسب المذهبين المالكي والحنفي، ثم يبسط ذلك عند اجتماع الأعضاء، وبعد المناقشة تحرر الصيغة النهائية للفقرة

المتفق عليها... وكان يتولى كتابة محاضر تلك اللجنة عالم فقيه هو المفتي الملحق بوزارة العدل، وقد سجل كل المناقشات والمداولات والآراء منسوبة إلى أصحابها، كما صدرت عنهم بأسانيدها ومراجعها... وقد رتب المسائل حتى يستطيع الباحث معرفة الرأي المالكي أو الرأي الحنفي بسهولة تامة، سواء اتفقا أم اختلفا ولم يعمل بها رسميا حتى جاء عهد الاستقلال.

وكانت مجلة –لائحة– المرافعات الشرعية التي وضعتها لجنة من علماء جامع الزيتونة برئاسة الشيخ عبد العزيز جعيط واستمدت أحكامها من قواعد التشريع الإسلامي، قد صدرت في سبتمبر سنة ١٩٤٧م. وكان جميع ما أثبت فيها من أحكام وقواعد إما منصوصاً عليها أو مستمدة مما يسميه الأصوليون... الاستصلاح أو المصالح المرسلة التي لم يقم شاهد على اعتبار خصوصها، ولا نهض دليل على إلغائها، ويترتب على تحقيقها جلب منفعة أو رفع ضرر.

وكان صدورها لتحقيق مصلحة أكيدة بإنارة الطريق أمام المحاكم الشرعية المنتشرة في البلاد لحسن سير العدالة وتسهيلاً لإجراءات التقاضي على الخصوم.. وقد ألغى العمل بها في أغسطس سنة ١٩٥٦ لتوحيد إجراءات التقاضي بقانون المرافعات المدنية والتجارية..

ولما تم توحيد جهات القضاء بعد الاستقلال –بتاريخ ٢٥ سبتمبر سنة ١٩٥٦– عين الشيخ عبد العزيز جعيط أول رئيس لمحكمة التعقيب –النقض– التونسية، فكان قاضي القضاة لكافة المحاكم الموحدة. ثم عين في وظيفة مفتي جمهورية تونس في ٤ ابريل سنة ١٩٥٧.

ولم تكن لائحة الأحكام الشرعية قد وضعت في حيز التنفيذ، فقامت لجنة من رجال القانون والقضاء بإعادة دراستها وتمحيصها وصياغتها في قانون

جديد، أخذت أحكامه من مختلف مصادر الشريعة الإسلامية بدون تقيد بمذهب دون آخر، أو برأي طائفة من الفقهاء دون أخرى. فجاءت أحكامه في قالب عصري يتمشى مع الزمان ولا يتصادم مع مبادئ الدين الإسلام الحنيف. وقد تم عرضه على بعض كبار العلماء -قبل إصداره- فاستحسنوه. وعلى ذلك صدر قانون الأحوال الشخصية التونسي في **١٣** أغسطس سنة **١٩٥٦**، والمعروف في تونس باسم "مجلة أحكام الأحوال الشخصية"...

المرأة التونسية حافظت على هوية شعبها

كان المجتمع التونسي يمر بمرحلة تطور كبير وخطير قبل استقلال البلاد في ٢٠ مارس سنة ١٩٥٦م. ثم إعلان الجمهورية التونسية في ٢٥ يوليو سنة ١٩٥٦..

عرفت البلاد التونسية بسكانها الأصليين من البربر، وهم الأفرAFER الذين أورثوا اسمهم البلاد التونسية فعرفت باسم أفريقية.. بل وأورثوه للقارة بأكملها..

كانت الناحية الشمالية من تونس آهلة بالأقريطيين (سكان جزيرة أقريطس– كريت) واليونانيين... وكانت هناك اتصالات ومعاملات بين سكان تونس والأقريطيين قبل مجيء الفينيقيين. ثم جاءهم الفينيقيون عام ٨١٤ ق.م، ثم الرومان الغربيون سنة ١٤٦ ق.م. فالفاندال سنة ٤٣٩م. ثم الروم البيزنطيون –الروم الشرقيون– سنة ٥٣٣م. ثم العرب سنة ٦٧٠م، ثم الأتراك سنة ١٥٧٤م– ١٧٠٥م. وفي القرن السادس عشر أقامت أعداد كبيرة من العرب والأسبان في شمال تونس.. وأنشئت مستعمرات إيطالية وفرنسية بعد عام ١٨٥٠م. وكان المجتمع اليهودي في تونس أقدم وأهم مجتمع لهم في شمال أفريقيا.. واحتلت فرنسا البلاد عام ١٨٨١م. بينما كانت انجلترا تتآمر لضرب الثورة العرابية واحتلال مصر.

كانت هذه الأمم تفد على تونس بكل صور حياتها وأنظمتها وطرق معيشتها، وبكل فنونها ولغاتها المختلفة.. وبتوطنها واستقرارها في البلاد تنشر عاداتها وتقاليدها فيمن حولها من السكان.. ثم لا تلبث أن تنعزل عن أصولها وتندمج في المجتمع التونسي.. وبذلك تسنى للبلاد أن تبتلع أولئك الذين تغلبوا عليها، وأن تهضمهم جميعاً، وأن تجعل منهم تونسيين.

وقد استفاد التونسيون من هذا الامتزاج، وأحدث فيهم ذكاء فطرياً استطاعوا به أن ينقلوا وطنهم من طور الجمود إلى طور التقدم والارتقاء.. فقد اقتبسوا من كل أمة ما هو صالح لهم ولبلادهم...

فقد اقتبسوا من الفينيقيين –القرطاجيين، نسبة إلى قرطاج– الملاحة والمقايضة والتجارة وزراعة الأرض والأشجار، ومن الرومان وضع القوانين وتنظيم المدن وتعبيد الطرق واستخراج المعادن.. ومن الروم البيزنطيين، الترف والملاهي والتأنق في المأكل والملبس.. ومن العرب الأوائل، الدين الإسلامي واللغة العربية ومكارم الأخلاق والعدل والمساواة... ومن الأسبان، كراهية التعصب للدين والتظاهر به.. ومن الأتراك، قلة المبالاة بالعواقب والإنفاق في أوجه البر واحتمال الأخطار.. ومن الفرنسيين، الترتيب والنظام وانتهاز الفرص واستعمال الآلات في الصناعة وإخضاع الطبيعة للإرادة الإنسانية.

أي أن المجتمع التونسي هو صفوة ما اجتمع فوق أرض تونس من مدنيات كثيرة متنوعة.

كان ذلك التطور يفرض نفسه على كافة نواحي المجتمع، ومنها العلاقة بين الرجل والمرأة في نطاق الأسرة، التي يجب أن يتم تطويرها على أساس من الواقع والمنطق.

ارتفعت الأصوات مطالبة بتعديل أحكام الأحوال الشخصية.. وكان ذلك يعني ببساطة أن تلك الأحكام لم تعد تتمشى مع التطور، وتتطلب تعديلاً أو تغييراً شاملاً، يعبر تعبيراً واقعياً عن الأوضاع الجديدة في المجتمع التونسي، منذ بدأ الكفاح ضد الاستعمار الفرنسي وشاركت فيه المرأة –جنبا إلى جنب– مع الرجل..

لقد كان للمرأة التونسية الفضل الكبير في الحفاظ على هوية الشعب التونسي وكيانه الوطني، بتربية أولادها وبناها تربية عربية إسلامية، رغم قيام الاستعمار الفرنسي بإنشاء المدارس الابتدائية لتعليم اللغة الفرنسية وتاريخ فرنسا وجغرافيتها.. ثم المدرسة الصادقية للحصول على شهادة البكالوريا للالتحاق بجامعات فرنسا.. وقد دفع ذلك بعض الأعيان التونسيين إلى إنشاء المدرسة الخلدونية سنة ١٨٩٦، وانتشرت المدارس القرآنية الابتدائية في البلاد، تعلن عزم الشعب التونسي على حفظ شخصيته.

وقد شهدت البلاد التونسية –خلال الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩–١٩٤٥م)– معارك مدمرة بين خمسة جيوش تمثل أكبر قوتين في العالم حينذاك.. انجلترا وفرنسا وأمريكا من ناحية.. وألمانيا وإيطاليا من ناحية أخرى.. وقد قاسى التونسيون كثيراً من آلام الجوع والتشرد وتخريب وهدم منازلهم ومحلاتهم وحرق زراعاتهم.. كما تعرضوا لاعتداءات الجنود من مختلف الجنسيات..

وفي ٧ مايو سنة ١٩٤٣ طرد آخر جندي للمحور –ألمانيا وإيطاليا– من الأراضي التونسية. واستعادت فرنسا سيطرتها على تونس، وبدأت تكشف عن أنيابها التي كانت ألمانيا قد اقتلعتها في بداية الحرب.. فامتلأت السجون والمعتقلات بالتونسيين رجالاً ونساء.. وسيق الكثيرون إلى ساحات الإعدام الجماعي.. حتى قامت الثورة المسلحة في البلاد في يناير ١٩٥٢ بقيادة الحبيب

بورقيبة، كرد فعل مباشر لقيام مصطفى النحاس باشا -زعيم حزب الوفد ورئيس حكومة مصر حينذاك- بإلغاء معاهدة ١٩٣٦ وإعلان الكفاح المسلح ضد الاستعمار البريطاني، والذي أحمد بحريق القاهرة في ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ الذي أشغله الإنجليز وأعوانهم من رجال القصر الملكي. (راجع للمؤلف ثورة شعبية لاهوجة عرابي ط ٢٠١٢ ص ٩٧- ١٠٩).

وقد اضطرت فرنسا إلى إعلان مبدأ استقلال تونس في ٣١ يوليو سنة ١٩٥٤، ثم تقرر الاستقلال الداخلي باتفاقية ٣ يونية سنة ١٩٥٥، والاستقلال التام في ٢٠ مارس سنة ١٩٥٦.. الذي ناله الشعب التونسي بثمن فادح من أحكام الإعدام والأشغال الشاقة والتعذيب بأساليب مختلفة غير حضارية لانتزاع الاعترافات، واعتداء الجنود الفرنسيين على الأهالي وهدم منازلهم.

قامت الحكومة الوطنية التونسية بالإصلاحات العاجلة في شتى المجالات لتنتقل تونس إلى مصاف الدول المتقدمة بسرعة هائلة.. وكان من الضروري أن تتم الغلبة على محاولات البعض الذين يجعلون من التفسيرات وسيلة لوقف التطور وعرقلة التقدم.. فقامت بتوحيد جهات القضاء وتنظيم وترتيب درجات المحاكم... محكمة ناحية (جزئية)، محكمة ابتدائية، محكمة استئناف، ثم محكمة التعقيب (النقض).. وقد أدمجت جميع المحاكم الطائفية والدينية ومنها المحكمة الشرعية.. وارتاح القضاة والمحامون والمتقاضون لاستقرار القضاء ووضوح أحكام وقواعد إجراءات التقاضي وحمايتها من كل عبث، بعد أن كانت تتسم بالعشوائية وعدم الانضباط، على نحو ينتج عنه إهدار للحقوق التي حرصت الشريعة الإسلامية على صيانتها.. وتقويض للأسس التي وضعها الإسلام لتكوين مجتمع يقوم على العدل وصيانة الحقوق.

وكان الشعور العام لدى التونسيين ضرورة وضع قانون أحوال شخصية موحد للبلاد التونسية، تكون أحكامه تطبيقا لكل ما جاءت به الشريعة الإسلامية من قيم عن أهمية الأسرة وكرامة المرأة وحريتها.. بما يتفق ومسئولية بناء المجتمع التونسي السليم..

لقد استطاع التونسيون أن يحافظوا على المبادئ الإسلامية السامية الصحيحة والأحكام الرائعة قبل أن تختلط بها الكثير من الأعراف والتقاليد مع اتساع الفتوحات الإسلامية ودخول الناس في دين الله أفواجاً.. لذلك كان إيمانهم القوى بأن جوهر الإسلام لا يتصادم مع حقائق الحياة، وإنما ينتج التصادم من المحاولات الرجعية لاستغلال الدين ضد طبيعته وروحه لعرقلة التقدم، وذلك بافتعال تفسيرات له تتصادم مع حكمته الإلهية السامية.

لقد أدرك التونسيون –خلال كفاحهم المرير– أن شهوة سيطرة الرجل على المرأة هي أحد العوامل الهامة التي لعبت دوراً رئيسياً لإحاطة المرأة بسياج من عدم الإنسانية، وعدم الاعتراف بشخصيتها وكرامتها.

كانت الأصوات التي ارتفعت في كل أنحاء البلاد تطالب بأن يكون قانون الأحوال الشخصية معبراً بصدق عن المجتمع ومطالبه.. محققا للمصالح الحقيقية.. فلم يعد عقد الزواج عقد امتلاك، بل عقد شركة بين رجل وامرأة، بعد أن تغير وضع المرأة الاجتماعي تغيراً جذرياً، وخرجت من نطاق التبعية إلى نطاق المشاركة.. وبعد أن تأكد أن مبدأ المساواة بين المواطنين –رجالا ونساء– لا يقل أهمية عن مبدأ الحرية.. وأن احترام القانون الدولي المتعلق بحقوق الإنسان عامة، وحقوق المرأة بوجه خاص.. والاتفاقية الدولية المتعلقة بالقضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة.. ضرورة حضارية، وامتثال لقوله تعالى "ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف"..

واستجابت الحكومة الوطنية للمطالب الشعبية، وأصدرت في ٣ أغسطس سنة ١٩٥٦ قانون الأحوال الشخصية الذي حرر المرأة التونسية، واعتبر حقوقها.. مما أدى إلى استقرار الأسرة في المجتمع على أساس من الود وحسن المعاشرة.. تحقيقاً لقوله تعالى: (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها، وجعل بينكم مودة ورحمة، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون).(سورة الروم الآية ٢١)

وقد راعى قانون الأحوال الشخصية التونسي المصلحة العامة لا المصلحة الطائفية أو المذهبية، بعدم تفرقته بين أفراد شعب واحد يعيشون جميعاً في بيئة واحدة ويضمهم مجتمع واحد ويمارسون تقاليد اجتماعية واحدة..

وقد روعي في القانون أيضا أن يكون ملائماً مع المجتمعات الإنسانية المتطورة في تقدمها.. فالتشريع في المجتمع الإنساني يرتبط بالمعطيات الاجتماعية والظروف الاقتصادية والعوامل السياسية التي تسود فيه.. ولذلك كانت قابلية القوانين للتغيير وقدرتها على التطور بما يحقق صالح الجماعة..

ولا شك أن دراسة الخلفية التاريخية والاجتماعية التونسي تؤكد استحالة وجود نظام قانوني جامد لا يقبل التطور أو التغيير.. فالقانون –كأحد الظواهر الاجتماعية– يخضع لنظرية النشوء والتطور التي لا تتوقف.

الفصل الثالث عشر

الصداق القيرواني
شروط الزواج في تونس

القيروان أول مدينة إسلامية في أفريقية –الأراضي التونسية– أنشأها عقبة بن نافع سنة ٦٧٠ ميلادية. وتعرف الطريقة القيروانية في الزواج في القطر التونسي، حيث يلتزم الزوج في عقد زواجه –بموافقته ورضائه– بعدم الزواج عليها بامرأة ثانية.. وقد ينص في نفس العقد على أن للزوجة الحق في تطليق نفسها إذا خالف الزوج هذا الشرط وتزوج عليها بغيرها.. ولذلك قلما يوجد في مدينة القيروان من تعددت زوجاته..

وقد بدأت هذه العادة عام ١٣٢هـ– حوالي عام ٧٥٠ ميلادية. عندما كان عبد الرحمن بن حبيب بن عقبة بن نافع أميرا لتونس. وكان جميل بن كريب المعافري قاضي القيروان، معروفاً بالعدل والإنصاف. وذات يوم حضر أمامه تابع لامرأة الأمير عبد الرحمن وعرض عليه –نيابة عنها– قضية في زواجها.. وهي أنها كانت قد اشترطت على الأمير –عند الدخول بها– أن أمرها بيدها إذا تسرى عليها بغيرها.. أي أن عصمتها في يدها ويكون لها حق تطليق نفسها إذا خالف شرطها.

استدعى القاضي الأمير عبد الرحمن، الذي امتثل أمامه –مثل غيره من الخصوم– ولما سأله القاضي عن الأمر، أقر الأمير بالتسري.. واعترف بالشرط المتفق عليه بينه وبين زوجته، فأشهد عليه القاضي عندئذ من كان حاضراً من

الشهود. ثم التفت إلى تابع الأميرة وأبلغه أن أمر الأميرة بيدها إن شاءت أقامت وإن شاءت طلقت.

وعندما قدم أبو جعفر عبد الله المنصور العباسي إلى القيروان ملتمسا النجاة من طلب بني أمية له، حل ضيفا عزيزا على منصور بن يزيد الحميري– وهو من ذرية أحد ملوك اليمن قبل الإسلام وقد بدأت إقامته بالقيروان في سنة ١١٠هـ وفي أثناء إقامته عنده رأى أبو جعفر المنصور من جمال ابنته "أروى" ما بهره وخلب لبه، فخطبها إلى أبيها وتزوجها، وقد اشترط لها أبوها في عقد زواجها ألا يتزوج أبو جعفر غيرها وألا يتخذ السراري معها.. فإن تسري عليها أو تزوج بغيرها، كان طلاقها بيدها، كما جرت بذلك عادة أهل القيروان، التي يطلقون عليها اسم "الصداق القيرواني".

وقد تولى أبو جعفر المنصور الخلافة العباسية سنة ١٣٦هـ حيث أنشأ مدينة بغداد –التي سميت أول الأمر مدينة المنصور– وابتنى لنفسه قصرا سماه "قصر الخلد" وأسكن فيه زوجته أروى وبنيه.

وقد ظل المنصور وفياً لزوجته أروى، بما كان قد عاهدها عليه في عقد الزواج، فلم يتخذ له زوجة سواها.. ولم تكن له سراري –محظيات– معها طوال حياتها. وظلت أروى في المحل الأرفع من قلب زوجها ومن إجلاله وتكريمه حتى توفيت سنة ١٤٦هـ– بعد عشر سنوات من ولايته الخلافة العباسية.

ولعل تلك العادة القيروانية قد استندت إلى الوضع المشرف للمرأة في مجتمع مدينة القيروان.. فقبل ذلك بسنوات قليلة، عندما زحف الخوارج الصفرية بقيادة عبد الواحد بن يزيد الهواري على مدينة القيروان –في عهد ولاية حنظلة بن صفوان الكلبي سنة ١٢٤هـ– كانوا في جمع عظيم من البربر –وهم سكان شمال أفريقيا الأصليون– بلغ ثلاثمائة ألف قاصدين القضاء على السلطة

في القيروان.. فخرج إليهم حنظلة بأهل القيروان –بعد أن جهزهم بكل الأسلحة الحربية الموجودة لديه– للدفاع عن مدينتهم.. وقد شاركت نساء القيروان في هذه المعركة، حيث عقدن الألوية وخرجن بالسلاح لمشاركة الرجال في القتال.. وحلفن لأزواجهن.. لئن انهزم أحد منهم موليا عن العدو ليقتلنه.. وبذلك أقبل أهل القيروان على قتال البربر الخوارج بروح مستميتة في طلب النصر أو الشهادة.. ودارت المعركة واشتد القتال، وانتصر أهل القيروان رجالا ونساء.. وخضع الرجال لأحكام الشريعة الإسلامية التي تراعي حقوق المرأة.. "ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف"..

وقد استقرت هذه العادة في مدينة القيروان، وأطلق عليها اسم "الصداق القيرواني".. ومنها انتشرت في المجتمع التونسي.. وعلى ذلك كان من الضروري أن ينص قانون الأحوال الشخصية التونسي في المادة الحادية عشر منه على أن يثبت في الزواج خيار الشرط ويترتب على عدم وجوده أو على مخالفته طلب الفسخ بطلاق، من غير أن يترتب على الفسخ أي غرم (تعويض) إذا كان الطلاق قبل البناء (الدخول)..

واقتران الزواج بشرط زائد –يضاف– من أحد المتعاقدين، ليس جزءا من الإيجاب والقبول. ويتفق جميع الفقهاء في حكم عقد الزواج إذا اقترن بشرط بأنه عقد صحيح لتحقق أركانه.. ولكنهم اختلفوا في حكم الشروط التي تقترن بصيغة العقد على الوجه الآتي:

١. عدم تعارض الشرط مع عقد الزواج وما تقضي به الشريعة الإسلامية، كما إذا اشترطت الزوجة على زوجها أن يحسن عشرتها أو ألا يخرجها إلى أماكن اللهو والفجور.. أو كان شرطا من مقتضيات عقد الزواج، كاشتراطها أن يعطيها المهر والنفقة.. أو كان شرطاً ورد به الشرع، كاشتراط المرأة على

الرجل أن يطلقها متى شاء.. أو كان شرطا مما جرى به العرف بين الناس كتعجيل بعض المهر وتأجيل بعضه، فهذه الشروط كلها يجب الوفاء بها ولا تأثير لها على العقد فاشتراطها أو عدمه سواء..

٢. مخالفة الشرط لأحكام الشريعة الإسلامية، وعدم اتفاقه مع مقتضيات عقد الزواج.. كاشتراط الزوجة على الزوج أن يبيح لها الخروج كما تشاء أو ألا ينفق عليها أو ألا يطلقها.. فالعقد صحيح والشرط باطل لأنه مما يحل الحرام ويحرم الحلال.. تطبيقاً للحديث الشرف.. "المسلمون على شروطهم إلا شرطاً حرم حلالاً أو أحل حراماً..".

٣. الشرط لم يرد به نص آمر أو ناه.. كما إذا اشترطت الزوجة على زوجها ألا يخرجها من منزل أبيها أو ألا يتزوج عليها، فهذه الشروط اختلف فيها الفقهاء.

هذه الشروط –طبقاً للمذهب الحنفي– غير لازمة ولا يجب الوفاء بها ويصح العقد.. فالحنفية يقولون بعدم ثبوت أي نوع من أنواع الخيارات في عقد الزواج، فمن عقد واشترط أن يكون له الخيار ثلاثة أيام، صح العقد ولزم، وبطل خيار الشرط.. وكذلك إذا اشترط أحد الزوجين سلامة صاحبه –الطرف الآخر– من العيوب، فوجده على خلاف الشرط.. صح العقد، ولا يثبت له خيار فسخه.. وإذا اشترط الزوج في العقد جمال المرأة أو بكارتها فوجدها على خلاف ما اشترط فلا يثبت له الحق فسخ العقد..

ويتفق الشيعة الإماميةالاثنى عشرية –الجعفرية– مع المذهب الحنفي في عدم جواز اشتراط الخيار في نفس الزواج –دواما أو انقطاعا– لا للزوج ولا للزوجة.. ولو اشترطاه، بطل الشرط.

فإذا شرط في العقد ما يخالف المشروع، فسد الشرط دون العقد والمهر.. كما إذا اشترطت المرأة على زوجها ألا يتزوج عليها أو ألا يتسرى –يعاشر المحظيات– أو ألا يمنعها من الخروج من بيت الزوجية، أو أن يواقع ضرتها –زوجته الأخرى– ونحوها من الشروط غير المشروعة.. أما إذا اشترط إسكان الزوجة في بلد معين أو بإسكانها في منزل مخصوص، فإن الشرط يكون معتبراً ويلزم العمل به..

ويجوز –عند الشيعة الإمامية– أن يشترط في عقد الزواج وجود صفة معينة في أحد العاقدين كالجمال والبكارة والحرية والإيمان.. فإن تخلف الشرط جاز الفسخ..

أما الحنابلة، فقد قسموا هذه الشروط إلى صحيحة وغير صحيحة..

(أ) الشروط الصحيحة هي التي اشتملت على منفعة لأحد المتعاقدين ولم يرد نهي من الشارع عن اشتراطها.. كما إذا اشترط الرجل على المرأة أن تكون جميلة أو بكراً أو على ثقافة خاصة، أو إذا اشترطت المرأة على الرجل ألا يسافر بها أو ألا يتزوج عليها.. فهذه الشروط لازمة ويصح أن يفسخ عقد الزواج إذا لم تتحقق، تأسيساً على أن أحق الشروط أن يوفي به ما استحللتم به الفروج.. (أي أن أحق الشروط بالوفاء شروط الزواج لأن أمره أحوط وبابه أضيق.. ولأنه لا يمنع المعقود –المقصود– من الزواج).

فالحنابلة يرون وجوب الوفاء بما اشترط للمرأة، فإن لم يف لها فسخ الزواج.. وذلك استدلالاً بقوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود..) و(المسلمون على شروطهم) (حديث شريف)..

(ب) الشروط غير الصحيحة هي ما ورد النهي عنها من الشارع.. كما إذا

اشترطت الزوجة على الزوج أن يطلق ضرتها– زوجته الأخرى.. فهذا الشرط لغو لا يعمل بيه للنهي عنه فيما رواه أبو هريرة أن النبي (صلى الله عليه وسلم) نهى أن تشترط المرأة طلاق ضرتها..

وقد اختار ابن القيم رأي الحنابلة، فقال أنه إذا اشترط السلامة أو اشترط الجمال فبانت شوهاء، أو اشترط أن تكون شابة حديثة السن فبانت عجوزاً شمطاء، أو أن تكون بيضاء فبانت سوداء، أو بكراً فبانت ثيبا.. فله الفسخ في ذلك كله..

ويتفق قانون حقوق العائلة اللبناني الصادر سنة ١٩١٧ مع رأي الحنابلة، إذ نص في المادة ٣٨ منه على أنه إذا تزوج رجل امرأة وشرطت عليه ألا يتزوج عليها، وإن تزوج فهي أو المرأة الثانية طالق فالعقد صحيح والشرط معتبر ملزم.

وبذلك أيضاً أخذ قانون الأحوال الشخصية التونسي الذي لم يتعرض إلى التفرقة بين الثيب والعذراء.. وقد قضت إحدى المحاكم التونسية في عام ١٩٦٨ بأنه يتعين في هذه الحالة الرجوع إلى الفقه الإسلامي –الذي هو أهم المصادر التي استمدت منها الأحوال الشخصية أحكامها.. فالبكر –في الفقه الإسلامي– هي التي لم يسبق لها الزواج بغض النظر عن كونها عذراء أم لا.. وبذلك اتجهت المحكمة إلى عدم اعتبار الثيوبة عيبا ترد به الزوجة، إلا في حالة اشتراط ذلك بلفظ صريح في عقد الزواج.

ويرى البعض أن حق المرأة في اشتراط ألا يتزوج عليها زوجها، هو أحد القيود التي أوردها الإسلام على تعدد الزوجات.. فيقول السيد سابق أنه.. كما أن الإسلام قيد التعدد بالقدرة على العدل وقصره على أربع، فقد جعل من حق المرأة أن تشترط على زوجها ألا يتزوج عليها. فلو شرطت الزوجة في عقد الزواج على زوجها ألا يتزوج عليها صح الشرط ولزمه.. وكان لها حق فسخ

عقد الزواج إذا لم يف لها بالشرط. ولا يسقط حقها في الفسخ إلا إذا أسقطته ورضيت بمخالفته..

ويرى ابن القيم أن الشرط العرفي كالشرط اللفظي سواء.. أي أن المشروط عرفا كالمشروط لفظا.. فلو فرض أن المرأة كانت من بيت لا يتزوج الرجل على نسائهم ضرة، ولا يمكنونه من ذلك، وعادتهم مستمرة بذلك، كان كالمشروط لفظا.. أي أنه لا يلزم ذكر الشرط عند الزواج ومع ذلك يلتزم به الزوج.

فالإسلام كما قيد تعدد الزوجات، جعل من حق المرأة أن تشترط ألا يتزوج الرجل عليها.. فلو شرطت الزوجة صح الشرط ولزم.. ولا يسقط حقها في الفسخ إلا إذا أسقطته ورضيت بمخالفته. وقال بهذا الرأي عمر بن الخطاب وسعد بن أبي وقاص ومعاوية وعمرو بن العاص وعمر بن عبد العزيز وجابر بن زيد وطاوس والأوزاعي وإسحاق.. استدلالا على قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا آوفوا بالعقود..) والحديث الشريف (أحق الشروط أن يوفي به ما استحللتم به الفروج).

وإلى هذا ذهب الإمام أحمد بن حنبل، ورجحه ابن تيمية وابن القيم.

وعلى ذلك فإذا كان المجتمع التونسي قد عرف تقليداً اجتماعيا أطلق عليه اسم (الزواج القيرواني) أو (الصداق القيرواني) –نسبة إلى مدينة القيروان حيث كان منشأ هذا التقليد– الذي انتشر بين جميع فئات الشعب التونسي.. وأصبحت كل امرأة تونسية من بيت لا يتزوج الرجل على نسائهم ضرة ولا يمكنونه من ذلك. واستمرت عادتهم منذ نشأت سنة ٧٥٠م. إذا كان ذلك، فإن قانون الأحوال الشخصية التونسي لم يأت بجديد أو يخالف حكماً سائداً، عندما قرر في المادة ١٨ بأن تعدد الزوجات ممنوع.. وأن كل من تزوج وهو في حالة الزوجية وقبل فك عصمة الزواج السابق، يعاقب بالسجن لمدة عام

وبغرامة قدرها مائتان وأربعون ألف فرنك أو بإحدى هاتين العقوبتين.. حتى ولو كان الزواج الجديد لم يبرم طبق أحكام القانون.. وأن يعاقب بنفس العقوبات كل من كان متزوجا على خلاف الصيغ الواردة بالقانون رقم ٣ لسنة ١٩٥٧ بشأن تنظيم الحالة المدنية، ويبرم عقد زواج ثان ويستمر على معاشرة زوجته الأولى.. كما يعاقب بنفس العقوبات الزوج الذي يتعمد إبرام عقد زواج مع شخص مستهدف للعقوبات المقررة بالفقرتين السابقتين.

فإذا تزوج رجل متزوج امرأة أخرى وعاشرها معاشرة الأزواج واستمرت معاشرته لها، فإنه يكون مرتكباً لجريمة التزوج بثانية على خلاف الصيغ القانونية.

ويعتبر (زواجاً فعلياً واقعا على خلاف الصيغ القانونية –غير معترف به قانوناً ومستهدفاً صاحبه للعقاب –كل زواج استكمل مظاهره المادية بمعاشرة المرأة معاشرة الأزواج وبالدخول والخروج معا والإنفاق عليها ودفع إيجار المسكن. والركن الجوهري لجريمة التزوج على خلاف الصيغ القانونية هو وجود عقد زواج أو علاقة زواج فعلية وقعت على خلاف الصيغ والشروط الواردة في المادة ٣١ من قانون الحالة المدنية التي تقضي بأن يبرم عقد الزواج بالبلاد التونسية أمام عدلين أو أمام ضابط الحالة المدنية بمحضر –بحضور– شاهدين من أهل الثقة.. ويبرم زواج التونسيين بالخارج أمام الأعوان –الموظفين– الدبلوماسيين أو القنصليين، أو يبرم العقد طبق قوانين البلاد التي يتم فيها الزواج..

وانقطاع المعاشرة الفعلية –ولو لمدة طويلة– في حالة الزواج العرفي، لا يعفى كلا الزوجين من المسئولية في حالة التزوج ثانية.. إذ أن العلاقة لم تفصم بصفة قانونية.. إذ يجب أن يتم الطلاق بينهما أولا، بالشكل الذي رسمه القانون.

الفصل الرابع عشر

العريس في الشارع والعروس خلف الأسوار

تنقسم تونس إلى ثلاثة أقسام طبيعية هي:

١. الجهة الشمالية وبها مزارع خصبة وتضم جانباً كبراً من وادي مجردة، ويطلق على هذا القسم "تونس الخضراء".

٢. الساحل الشرقي الذي يمتد من الناحية الشرقية على طول شاطئ البحر المتوسط ويضم أراضي خصبة غزيرة العمران والسكان.

٣. القسم الجنوبي، ويتكون من سهول عظيمة مراع شاسعة وواحات نخيل، تبدأ بعدها الصحراء الكبرى.. ويطلق على هذا القسم اسم "البادية التونسية"، والتي تمثل المساحة العظمى من البلاد التونسية.

تعتبر الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩- ١٩٤٥م) تاريخا اجتماعيا هاماً بالنسبة لمجتمع البداوة في تونس. فبانتهاء الحرب العالمية وحصول الشعب التونسي على استقلاله السياسي، بدأ البدو يستقرون في قراهم يمارسون المهن الحضرية من تجارة وصناعة وزراعة. والتحق أولادهم وبناتهم بالمدارس التي أنشأتها الحكومة الوطنية في كل مكان. ومع إنشاء الطرق وانتشار الكهرباء بدأت كثير من التقاليد القديمة في الاندثار، ولم يعد يبقى منها إلا بعض الملامح الباهتة التي ستندثر تماما باختفاء الجيل القديم.

إن مرحلة هامة جداً في تطور الشعب التونسي قد بدأت مع فجر

الاستقلال بعد الحرب العالمية الثانية. وبداية التحول الاجتماعي لشعب بدوي جاهي إلى شعب متحضر مستنير.. (محمد المرزوقي، مع البدو في حلهم وترحالهم ص ٧ و٨).

لذلك فإن تقاليد الزواج في مجتمع البدو التونسي تعود إلى فترة ما قبل الحرب العالمية الثانية، أما بعدها، فقد تنبه الشعب إلى أهمية الاستقرار والتعليم والتطور مع العصر.. فأقبل البدو على المدن وأقبل أبناؤهم على التعليم إقبالا جماعيا.. وقامت الحكومة الوطنية بمساعدة من بقى منهم في البادية على تطوير زراعاتهم وإقامة قرى جديدة.

وقد أدت الحياة المستقرة إلى تطور التقاليد القديمة إما بإهمال وترك ما يتعارض مع الحياة الجديدة، وإما بالاقتصار على ما يلزم منها، وإما بتطوير بعضها مع الحفاظ على الأصل.. وتكاد تقاليد الزواج في البادية التونسية أن تتشابه، إلا في جزئيات صغيرة محلية، لأن أصولها –في الشمال والجنوب والغرب من الأراضي التونسية– واحدة.. فقد وفدت القبائل العربية على تونس حوالي منتصف القرن الخامس واستقرت في تلك الجهات وتغلبت على أهلها، فتعربوا واندمجوا في حياتهم واعتنقوا عاداتهم وتقاليدهم..

وقد تجد جذور تلك التقاليد ممتدة إلى بادية الجزائر والمغرب وليبيا وفي صعيد مصر، وفي الجزائر العربية في عهد جاهليتها الأولى حيث احتفظت تلك القبائل بكثير من تقاليدها العربية القديمة في الزواج (محمد المرزوقي، المرجع السابق ص ٦٩، ٧٠).

وتنتشر في البادية التونسية موارد الماء من آبار وعيون، حيث يتجمع عدد كبير من الرجال والنساء الذين يأخذون حاجة أهليهم من الماء.. وهناك يتجاذبون الأحاديث ويتبادلون القصص والحكايات ويروون الأشعار. وهناك

أيضا تتلاقى نظرات العيون التي تتملى الوجوه.. باحثة عن الجمال (المتمثل في حمرة الخدود ولين القدود ونفور النهود..) فتسمع الأغاني التي تحمل في طياتها المقاصد والمعاني.

ولهذه الأغاني الرمزية التي يتبادلها الشبان مع الفتيات حول موارد المياه وفي تجمعات الأحياء البدوية، شأن كبير وشهرة واسعة خاصة عند سكان الجنوب التونسي.

يخاطب أحدهم الفتاة التي أعجب بها مغنيا وهي تستمع إليه:

صـــياد تبـــع ريم جافـــل نافـــر   يالنـــدرا يحـــصلش وإلا خـــاسر

فهو يتساءل عما إذا كان الصائد الذي يتبع غزالا نافرا.. سيظفر به أم أنه سيفشل.

وتجيب الفتاة بغنائها:

ريم العـــواطر في نهـــار ده شـــارد   مجـروح يـــحصل في الظـلام البـارد

فهي تجيبه على تساؤله بأن الغزال الذي يتبعه يقضي النهار شارداً نافراً وهو غزال جريح لا يمكن اقتناصه إلا ليلاً.. فهي تقول له أن التلاقي لا يكون إلا ليلاً..

فيغني الشاب محددا لها مكان اللقاء

في الليل كيف تكف رجل المارق (المارة)

يروح على سدرات وسط السارق

فهو يقول لها أنه عندما ينام الحي وتكف حركتهم، يذهب إلى شجرات السدر (النبق) النامية وسط مجرى الوادي المنخفض.

والمهم جداً أن يكون اللقاء والتعارف في غفلة من الأهل، فعقوبة الموت لمن يساء فيها الظن.. كما يشترط أن تبقى علاقة الحب بينهما في طي الكتمان، ولم يذكر بشأنه شعر يحفظه الناس، حتى يمكن أن يتزوج الطرفان.. فإذا عرفت علاقة الحب واشتهرت بين الناس، كان القطع والحرمان.. وهي نفس التقاليد التي كانت متبعة في المجتمع العربي قبل الإسلام.

ويلاحظ أن التعارف بين الأقارب طبيعي، ويتم الزواج حسب الطرق العادية بينهم.. وغالباً ما يتم البت فيه في وقت الميلاد، فلا تكاد الفتاة تولد حتى يعلن أبوها أنها من نصيب ابن عمها.. ويعتبر هذا عهداً لا يمكن الرجوع فيه، وإلا ضرب به المثل في خيانة العهد وعدم الوفاء بالوعد.

وقد لا يسبق الزواج تعارف بين الزوجين، بل يقوم الوالدان باختيار الزوجة حسب رغبتهما.. أما الولد فيعتبر قاصراً لا يملك لنفسه حرية الرفض، وإلا أعتبر عاقا لوالديه.. والواقع أن الاختيار المنسوب للوالدين هو اختيار الأم فقط، ثم توحي لزوجها بذلك فيتبعها.

وتمهد النساء للخطبة طبقاً لتقاليد البادية.. حتى إذا حصل التراضي، تدخل الرجال في شأنها، وهم الذين يعلنون عنها.. وقد يسبق الخطبة تعارف بين الخطيبين، وقد لا يحدث ذلك التعارف.. أو على الأصح.. لا يعلم به غيرهما.. وتتم الخطبة الرسمية في جميع من الأهل وأقارب الخطيبين على النحو التالي... يقول ولي الخاطب.

– جبتك– جئتك– خاطب راغب في بنت الحسب والنسب بنتك (فلانة) لابني –أو قريبي– (فلان).

فيقول ولي الفتاة:

- جارتك- أجزتك- إن قبلت شرطي.

وتعاد هاتان الجملتان ثلاث مرات.. وبعدها يقول الخاطب.

- هات شرطك.

فيذكر ولي الفتاة شروطه ويعلن قيمة المهر المطلوب، وغالباً ما يكون مهر مثيلاتها من فتيات الحي..

ويعلن ولي الخاطب..

- قبلت..

وعندئذ يقرأ المجتمعون فاتحة الكتاب تعبيرا عن حصول الاتفاق وتمام الخطبة..

وقد يحضر اجتماع إعلان الخطبة شيخان من العدول الرسميين، يقومان بكتابة العقد الرسمي في دفتريهما... وقد لا يحضران فيتوجه إليهما الوليان -ولي الزوج وولي الزوجة- في ذات اليوم أو بعده، ليسجلا عندهما العقد الرسمي، بشرط أن يتم قبل الدخول..

وكانت بعض المناطق البدوية لا تكترث بتحرير العقد الرسمي، وتكتفي بشهادة الجماعة.. حتى صدر قانون لا يعترف بالزواج إلا بعقد رسمي مسجل..

وقبل الحرب العالمية الثانية اشترط القانون توقيع الزوج بنفسه أو وليه -إن كان يحمل توكيلاً رسمياً عنه- أما الفتاة فيقوم وليها بالتوقيع بدلاً منها.. وبعد الحرب العالمية الثانية اشترط تصريح الفتاة بالقبول ولا يكتفي بسكوتها علامة الرضا. والعقد الرسمي المطلوب يتم إثبات إعلان ولي الزوجة وولي الزوج أمام

عدلين رسميين لتسجيل العقود، صيغتي الإيجاب والقبول.. ويحرر العقد ويوقع عليه الوليان دون حضور الزوجين.. ويتم عقد الزواج الرسمي إما عقب إعلان الخطبة مباشرة أو يؤجل إلى موعد آخر يحدد بالشروع في حفلات العرس أو أثناء الحفلات وقبل تلاقي الزوجين..

وقد يباشر العقد والد الفتاة بنفسه، وقد يسند هذا الحق إلى كبير العائلة الذي مازال يحتفظ بحق التصرف في أبناء العائلة جميعهم، ولا يستطيع أحد الخروج على إرادته.. ولا يتم أمر دون مشورته.

بمجرد إتمام الخطبة أو العقد تحتجب الفتاة عن خطيبها، طبقاً للعادة المتبعة في معظم المناطق البدوية، وذلك إظهارا لتمسك الفتاة بالحياء العذري.. وقد فرضت هذه العادة على الفتاة حتى لا يشاع عنها أنها مشتاقة إلى زوجها.. وفي ذلك معنى فقدها للحياء، واتصافها بسوء التربية وفساد الأخلاق.

ويرى البعض أن هذا الاحتجاب يدفع الخطيبين إلى الشعور بالشوق الذي يشتد أوراه بطول المدة السابقة على البناء، حتى إذا وقع البناء، كان شوق الزوجين على أشده فيأتي بالثمرة المطلوبة وهو الحب بينهما الذي تزيده العشرة قوة ومتانة.. (محمد المرزوقي المرجع السابق ص ٧٩).

وفي مدينة القيروان تتم الخطبة بشكل آخر.. إذ يجتمع الفتى الذي يريد الزواج مع أفراد أسرته –من الرجال فقط– وأصدقائه على أحد المقاهي في المدينة.. ثم يتوجهون إلى المسجد لأداء صلاة العصر، قبل أن يذهبوا إلى منزل الفتاة التي يريد الزواج بها.. وهناك يقف الفتى أمام باب المنزل المغلق يحيط به أصدقاؤه وأفراد أسرته.. ثم يتقدم يطرق الباب، فيأتيه صوت صاحب المنزل – وهو غالبا والد الفتاة، أو المسئول عنها من أفراد أسرتها في حالة وفاة والدها– يسأل وكأنه لا يعرف.. فقد سبق وتم تحديد الموعد.

– من الطارق؟

عندئذ يعلن الفتى عن نفسه فيذكر اسمه وأسرته وعمله الذي يمارسه، ودخله الشهري أو اليومي، وقد يذكر أملاكه من الأراضي والعقارات..

فيسأله والد الفتاة –من داخل المنزل ودون أن يفتح الباب أو حتى نافذة– عن مراده..

ويجيب الفتى بأنه قد جاء يخطب ابنته (فلانة) ويذكر اسمها ويعلن والد الفتاة شروطه.. ويتم تبادل الحديث بينه وبين الفتى الذي يقف في الطريق وسط أصدقائه وأفراد أسرته، بينما يأتيهم صوت والد الفتاة من داخل المنزل دون أن يفتح باب أو نافذة.. ويناقش الطرفان شروط الزواج.. المهر الذي يدفعه الفتى لعروسه والشبكة والهدايا التي سيقدمها لها..

وبعد أن يتم الاتفاق، يقرأ الجميع فاتحة الكتاب.. داخل المنزل وخارجه.. وبذلك تكون الخطبة قد تمت وأعلنت.. ثم ينصرف الفتى مع المجموعة التي تحيط به، ليعودوا جميعهم إلى المقهى حيث تقدم لهم المشروبات.

وقد تبدأ إجراءات الخطبة.. في بعض المدن الأخرى.. بزيارة تقوم بها قريبات الفتى إلى منزل الفتاة، حاملات معهن قصعة –إناء كبير واسع– من طعام الكسكسي.. فإذا قبلتها أمها كان ذلك إعلاناً عن موافقتها.. وإذا رفضتها كان ذلك تعبيراً عن رفضها وعدم موافقتها على تزويج ابنتها من الخاطب..

ويمارس المقيمون بجبل مطماطة –وخاصة سكان قرية بني عيسى– القريبون من ضريح (سيدي قناو) عادة غير مألوفة في الجنوب التونسي.. فقد اعتادوا على زيارة هذا الضريح في يوم معين سنوياً.. ولا تفوت هذه المناسبة رجلاً

أعزب، حيث تخرج الزائرات من الفتيات إلى ربوة جبلية شرقي الضريح يتبعهن الفتيان الراغبون في الزواج.. ويخرج مع الفتيات أحد الشيوخ كبار السن يحمل عصا طويلة لحمايتهن.

تقف الفتيات على الربوة كاشفات الوجوه، وقد اصطف الفتيان أمامهن يتفرسون في تلك الوجوه ليختار كل منهم خطيبته.. وتتلاقى العيون في حوار صامت، لأن تبادل الحديث بين المجموعتين ممنوع منعاً باتاً.. ويقف الشيخ بينهما بعصاه الطويلة يمنعهم من الكلام أو الاقتراب.

ويضمر كل فتى في سريرته الفتاة التي اختارها.. دون أن يعلن اختياره.. حتى يعطي الشيخ إشارته فينحدر الفتيان من فوق الربوة إلى الوادي وقد حمل كل منهم فأساً –بلطة– لقطع الحطب من الأشجار.. وتتبعهم الفتيات، كل واحدة منهن تتبع الرجل الذي اختارته لنفسها، فتجمع ما يقطعه من حطب.. وبذلك تعلن– دون حاجة للكلام قبولها له ورضاها به..

وقد يختار الفتى إحداهن ولكنها لم تتبعه لجمع الحطب الذي يقطعه، وهذا يعني أنها لا تقبله ولا ترضى به.. وعليه أن يحترم إرادتها تلك..

ويشجع هذا التعارف الصامت الفتى على مصارحة أمه برغبته في الزواج من تلك الفتاة التي تبعته.. على الأم أن تبادر إلى خطبتها.

ويفرض إعلان الخطبة على الخطيب تكاليف مادية تختلف قيمتها بحسب اختلاف ظروف الخطيبين.. فقد تقل هذه التكاليف إذا كانت المخطوبة فقيرة أو من الأقارب. وقد تزيد كثيراً إذا كانت الفتاة غريبة من حي بعيد، أو كانت الظروف المادية للخاطب تتحمل ذلك.

وتتمثل هذه التكاليف في هدايا متنوعة من الملابس والحلي تقدمها قريبات

الخطيب إلى أسرة الفتاة مصحوبة بالزغاريد حتى يسمع الجيران.. فتسرع نساؤهم إلى منزل الخطيبين للتهنئة. وتستمر عادة تقديم الهدايا في كل موسم من المواسم حتى يتم الزواج.. وبعض الأحياء لا يجعل سكانها أية أهمية للهدايا الموسمية، حتى لا ترهق الخاطب..

وقبل صدور قانون الأحوال الشخصية التونسي سنة ١٩٥٦ كان الزواج ينتشر في البلاد التونسية مع ازدياد علاقات الحب ورفض الوالدين زواج ابنتهما من حبيبها.

ففي بعض الأحياء -جمع حي- لا يتدخل الوالدان في اختيار الزوجة، ويقوم الفتى باختيار عروسه من بين الفتيات اللاتي تعرف بهن.. ويتم الاتفاق مباشرة بين الفتى والفتاة دون أن يعلم أحد من والديهما.. ثم يوحي الفتى برغبته إلى أمه -أو إحدى قريباته- التي تشرع في جس نبض عائلة الفتاة.. فإن وجدت قبولاً أعلنت الخطبة، وإن لم تجد قبولا أبلغت ذلك إلى الفتى ليتولى بنفسه اختطاف الفتاة..

وقد يعمد الفتى إلى الاختطاف دون مقدمات، فيتقلد سلاحه ويذهب وحده -أو مصحوبا ببعض أقاربه، راكبا فرسا- إن كان المكان بعيداً -أو راجلاً- إن كان قريبا، إلى المكان الذي تواعد مع فتاته على اللقاء فيه ليلاً.. حيث يأخذها إلى منزل أحد الشخصيات الكبيرة في الأحياء المجاورة، كشيخ قبيلة أو قاضي أو عين من الأعيان، الذي يستطيع حماية الفتاة والتي تبقى في منزله موضع تكريم وتبجيل حتى يحين موعد انتقالها إلى منزل زوجها الذي اختارته..

وقد يعمد البعض إلى إطلاق البنادق في عملية الاختطاف التي تسمى عندهم (بالهروب) كناية عن الانتصار وعدم الخوف من الملاحقين.. وقد يلحق

بهما بعض أقارب الفتاة فتحدث بين الجانبين معارك دامية.

وبعد إتمام عملية الاختطاف يسرع الفتى –أو وليه– إلى القاضي الشرعي لإبلاغه بما تم.. ويلتزم القاضي الشرعي بالاتصال بالفتاة مباشرة –أو بواسطة العدول– ليسألها عن المذهب الذي تتبعه.. لأن سكان البادية التونسية يتبعون المذهب المالكي الذي يعطي الوالد –بصفته ولياً على ابنته– حق إجبار ابنته على الزواج بمن يريده هو، دون مراعاة لإرادتها.. ولذلك تصرح الفتاة المخطوفة بأنها لا تتبع المذهب المالكي وأنها تتمسك بالمذهب الحنفي الذي يجعل لها وحدها الحق في اختيار زوجها.

وبناء على ذلك الإعلان من جانب الفتاة تصدر الفتوى من المجلس الشرعي بالعاصمة –تونس– فيأذن القاضي الشرعي بإتمام عقد قرانها على من اختارته بواسطة وكيل، تختاره هي وتعلن اسمه أمام الشاهدين العدل..

وغالباً ما يترتب على ذلك قطع العلاقات بينها وبين أسرتها طوال حياتها أو حتى تلد الأولاد.. ليكونوا وسيلة لإعادة العلاقات بينها وبين أهلها..

وبصدور قانون الأحوال الشخصية التونسي قضى على أسباب انتشار ظاهرة الزواج بالخطف، عندما نص صراحة على أن لا ينعقد الزواج إلا برضا الزوجين (م٣) ويكون لكل من يبلغ عشرين سنة كاملة من الرجال وسبع عشرة سنة كاملة من النساء حق إبرام عقد الزواج (مفهوم مخالفة المادة الخامسة).. وعدم توقف زواج الرجل أو المرأة اللذين بلغا سن الرشد القانوني على موافقة الولي (مفهوم مخالفة المادة السادسة).. وللزوج والزوجة أن يتوليا زواجهما بنفسيهما (م٩)..

الفصل الخامس عشر

أربعون قرطاس من العطارة
هدية العرس في البادية

تكاد حفلات العرس في البادية التونسية أن تكون متماثلة أو متشابهة من بدايتها إلى نهايتها.. وهناك اختلاف بسيط في عدد أيام احتفالات العرس، فيجعلها بعضهم ثلاثة أيام ويزيدها البعض الآخر إلى سبعة أيام.. ولكنهم يتفقون دائما على أن يكون العدد فرديا، فلا تكون أربعة أو ستة أو ثمانية أيام.. وقد يختلفون في ارتداء ملابس العرس، فبعضهم يرتديها في اليوم الثاني، كما جرت العادة في قبيلة العوينة في المرازيق، والبعض الآخر يرتديها في اليوم الثالث والأخير، كما جرت العادة في قبيلة دوز من المرازيق أيضا.. والواضح أن هذه الاختلافات بسيطة لا تأثير لها على العادات والتقاليد الأصلية في احتفالات العرس.. (محمد المرزوقي ص ٧٩).

تبدأ احتفالات العرس في صباح أحد أيام الأسبوع –على أن لا يكون يوم الأربعاء الذي يتشاءمون منه– وعند شروق الشمس تكون كمية من حبوب الشعير موضوعة فوق مفرش نظيف، وقد رصت أواني القلي الحديدية في أماكنها على كوانين (جمع كانون، وهو موقد بدائي) قد اشتعلت فيها النيران.. انتظارا لحضور جماعات النساء من الأقارب والجيران للقيام بقلي الشعير.. وبالقرب منها اصطفت الأرحية (جمع رحاية) الحجرية فوق الجلود، استعداداً لطحن الشعير المقلي– لإعداد سويق العرس..

ويفتتح الحفل بزغرودة من والدة أو أخت العريس.. تتبعها أغنية الصلاة على النبي (ﷺ). وبمجرد أن تسمع النساء من الأقارب والجيران هذه الزغاريد، يهرعن إلى منزل العريس حاملات معهن أواني تصفية الطحين من غرابيل (جمع غربال) وأطباق.. ويتفرقن مغنيات مزغردات، هذه لتنقية الشعير مما يخالطه من حصى وقاذورات.. وتلك للقيام بعملية القلي.. والأخرى لطحنه والرابعة لغربلته.. ويستمر الغناء والزغاريد مع العمل. (مُحَمَّد المرزوقي، ص ٨٠).

وتتفرق النساء حوالي منتصف النهار عائدات إلى بيوتهن أما العروسان فيختفيان منذ الصباح عن أعين كبار أفراد العائلة فتختفي العروس في بيتها.. ويختفي العريس عند أحد أقاربه أو أصدقائه..

وتعود النساء بعد الظهر إلى الاجتماع مرة ثانية مزغردات مغنيات للقيام بإعداد السويق.. ويخلط عادة بشيء من معجون التمر والماء والزيت، ثم يقسم إلى كرات متوسطة الحجم تقوم قريبات العريس بتوزيعها على الأحياء (جمع حي) فتعطى كرة منها إلى كل ربة أسرة كناية عن استدعائها رسميا للمشاركة في حفلات العرس.. أي أن كرات السويق تقوم مقام كروت الدعوة في المجتمع الحضري.. ولا تستطيع المهدى إليها إحدى الكرات أن تمتنع عن الحضور والمشاركة في احتفالات العرس، لأن ذلك يعتبر عدم اكتراث بصاحبة الدعوة، قد يؤدي إلى قطيعة وخصام بين العائلات..

وتهدى للفتيات قطع من القماش الأبيض يتراوح طولها بين المتر ونصف المتر، ليصنعن منه ما يسمى "بالمقدال" وهو قطعة من القماش توضع فوق الكتفين وتربط على الصدر بالخلال.. والمقدال من عناصر الزينة..

وفي بعض المناطق البدوية يتم إهداء أنواع أخرى من الملابس كالخمر المزركشة والثياب الملونة، حسبما تسمح به حالة العريس المادية..

وفي هذا الاجتماع نفسه يتم إعداد طبل العرس.. وهو عبارة عن قصعة من الخشب تغطى بجلد متين يربط ربطا محكما عليها.

وعند غروب الشمس تتفرق النساء المجتمعات.. ويلاحظ أن الرجال لا يشتركون في حفلات اليوم الأول.. (مُحَمَّد المرزوقي ص ٨١).

لا يكاد الناس ينتهون من صلاة العتمة (العشاء) حتى تسود الحركة كل منزل في الحي استعداداً للحفلة الليلية.. فالشباب ينظمون الحلقات ويتذاكرون الأشعار ويتغنون بجمال محبوباتهم.. والشيوخ يتوجهون إلى مجالسهم ونواديهم الاعتيادية، ينتظرون سماع صوت نقرات الطبل، ليقصدوا ساحة الحفلة حيث يستمعون إلى أغاني المرح..

وتسرع النساء في إعداد أنفسهن بالزينة وارتداء أفخر ما لديهن من ثياب وحلي، والتعطر بأزكى الروائح، كما تشرف الأم على زينة ابنتها –أو بناتها– حتى تطمئن إلى مظهرها اللائق بين الفتيات وقد لا تكتفي بما لديها من معدات الزينة، فتستعير من جاراتها وصديقاتها ما يساعدها على التفوق في الزينة والتجمل.

وتنطلق من ساحة الحفل نقرات الطبل المدوية، تتبعها زغاريد النساء إعلانا عن الشروع في الاحتفال، فتتقدم الفتيات أولا ثم يتبعهن الشباب، ثم الشيوخ إلى ساحة الاحتفال.

وفي ساحة العرس الكبرى تجتمع النساء في صف واحد وقد ارتدين الجلباب الأسود الذي لا تظهر تحته إلا بعض لمعات براقة لحلي إحدى النساء المتبرجات.. بينما يصطف الرجال أمامهن –في الجهة المقابلة– على شكل هلالي (نصف دائرة) تفصل بينهم وبين الناس مسافة تتراوح بين الخمسة

والعشرة أمتار، حسبما يسمح اتساع الساحة..

يبدأ الحفل بإلقاء الأغاني بألحانها البدوية من النساء ذوات الصوت الجميل. وتحمل كل واحدة منهن اسم الحي الذي تنتسب إليه.. فيقال صوت دبابي، نسبة إلى قبيلة أولاد دباب، وصوت شهيدي، نسبة إلى قبيلة أولاد شهيدة، وصوت يعقوبي نسبة إلى قبيلة أولاد يعقوب.

ثم يأتي من يحيي الحفل.. ويتم ذلك بأحد طريقين حسبما تسمح به الإمكانيات.. فإما أن يحييها الشعراء بقصائدهم وأزجالهم وإما أن تحييها جوقة (الطبلة والزكرة) التي تضم ثلاثة الأقل.. هم عازف الزكرة (المزمار الطويل) المسماة في بعض الجهات "غيطة" وضارب على الطبلة المسماة "طبالة"، وثالث يسمى "البراح" أو "الوراش". وقد يصل عدد أفراد الجوقة إلى ثمانية أو عشرة من العازفين وضاربي الطبول يصحبهم الوراش.. وهم يرتدون زياً خاصاً يتكون من جلباب أبيض، يسمى عند البعض "جلوالي" يربط أعلاه حول الخصر ويصل أسفله إلى الكعبين وهو ينتشر حول الرجل الذي يرتديه في شكل دائري عند دورانه.. ومن صديري ذي لون أحمر غالبا.. يعلوه قميص.. أما لباس الرأس فشاشية (طاقية بيضاء تتوسطها قاعدة الزر بطول ٧ سم تقريبا) عند بدو الجنوب الغربي، وعمامة صفراء في الجنوب الشرقي عند منطقة "جربة".

أما الطريقة الثانية فهي إحياء الحفل بالشعراء وتسمى "الموقف" حيث يقوم أحد الشعراء –مصحوبا بمساعد أو اثنين– بإلقاء قصائد متنوعة من شعره، أو مما يحفظه من الشعر وهو واقف أمام النساء.. ويكاد أن يغنيها بلحن مناسب للقصيدة..

وقد كانت هناك عادة متبعة إلى ما قبل الحرب العالمية الثانية تسمى "ربط العرس".. إذا تنافس شاعران، عمد أحدهما إلى عملية ربط العرس.. فيلقي

قصيدة يثني فيها على نفسه ويتفاخر بشعره.. ثم يعقبها بأحد الألغاز.. ويتم ربط العرس.. فلا يجوز أن يخرج إنسان أو يدخل إلى الحفل حتى يقوم الشاعر الثاني بحل ذلك اللغز بكلام منظوم طبقاً لقواعد الشعر.. ويذعن أهل البادية لأحكام هذه العادة وشروطها.. فإذا لم يستطع الشاعر المنافس الاهتداء إلى حل اللغز، سقط سهمه بين الشعراء. ويبقى العرس مربوطاً حتى يتفضل الشاعر صاحب اللغز فيحله بنفسه.. وعندئذ يفتح الباب للخروج والدخول.. ومن قواعدهم أن لا تجري عملية ربط العرس إلا مرة واحدة في الحفل الواحد.. (محمد المرزوقي ص ٨٢- ٨٥).

ومن العادات التي اختفت بعد الحرب العالمية الثانية رقصة النخ، ويطلق عليها البعض اسم رقصة "الهز" وهي رقصة جماعية تقوم بها الفتيات على نقرات الطبل وأنغام الشاعر.. في الحفل الليلي المقام في اليوم الأول من احتفالات العرس..

وقبيل نهاية الحفل تتقدم الفتيات إلى أواني امتلأت بالزيت أعدها أصحاب العرس، حيث يقمن بمسح شعورهن بالزيت.. ثم يقفن في صف طويل، منتصبات على ركبهن -ولذلك تسمى "النخ"- مسدلات الشعور، كاشفات الوجوه، حاسرات الرؤوس، متحدات اللباس.. بينما يقف أمامهن الرجال في صف آخر يتوسطهم الشاعر ومساعداه وأمامه طبل العرس ينقر عليه بعصاه.. وعندئذ تنفرج النساء الواقفات أمام البنات عن صف الفتيات اللاتي يرقصن على نغمات الشاعر مع نقرات الطبل وذلك بتحريك رؤوسهن وإلقاء شعورهن إلى اليمين والشمال، فالأمام والخلف..

ويختتم الحفل عندما يبدو التعب على الراقصات أو على الشاعر. فيقول أحد حماة العرس صائحاً.. "دام.. دام" بمعنى "انتهى"، لأنهم يعمدون إلى كلمة

"دام" تبركا وتيمنا بأن يدوم الفرح. وتقدم رقصة النخ عادة في الحفل المسائي، ولكن قبلية العذارة في الجنوب الغربي من تونس تقدمها نهاراً. (المرزوقي ص ٨٦).

في صباح اليوم الثاني تعود النساء إلى منزل العريس، حيث يجدن كميات كبيرة من القمح والشعير، وبجوارها عشرات من الأرحية الحجرية (جمع رحاية) وضعت فوق قطع الجلود.. تقوم بعض النساء بتصفية الحبوب والبعض الآخر يطحنها.. بينما تقوم مجموعة أخرى بغربلتها وتقسيمها إلى أنواع.. ثم تملأ أطباق صنعت من سعف النخيل بكميات من الحبوب أيضا.. وترفع الفتيات هذه الأطباق فوق رؤوسهن وهن يغنين ويزغردن، لتوزيعها على الجيران لتقوم الجارات بطحنها وإعادتها إلى منزل العرس مساعدة منهن لأهله.

وقد تتبع جماعات من الشباب تلك الجماعات من البنات اللاتي يوزعن الحبوب.. ويطلقون البنادق في كل مرة تتوقف فيها البنات لتسليم طبق سعف النخيل...

وتنتهي هذه الحفلة في منتصف النهار...

بعد ظهر نفس اليوم تبدأ الحفلة الثانية باجتماع النساء في منزل العرس مرة ثانية، حيث يحملن بدلة العريس فوق رؤوسهن ويتوجهن بها إلى حيث يكون العريس في صحبة أصدقائه، وهن يغنين ويزغردن، وجماعات الشبان تطلق البنادق أمامهن...

وعندما يصل موكب حمل بدلة العرس -الذي قد تصحبه جوقة الطبالة، إذا وجدت- استقبله العريس في مدخل المكان جالساً على ركبتيه فيضعن بدلته فوق رأسه.. فيتجول بها إلى داخل المكان حيث ينتظره الحلاق ليقص شعره ثم

يرتدي بدلة العرس. وتعود حاملات بدلة العريس إلى منزله ثانية، ليحملن بدلة العروس –التي تكون في منزل العريس– فيضعنها فوق رؤوسهن ويتجهن بها إلى منزل العروس حسبما وقع في منزل العريس.. وبعد ذلك، تتولى النساء تزيين يدي العروس ورجليها بالحناء.. وتنتهي الحفلة بانصراف النساء من منزل العروس وعودتهن إلى منزل (العرس). (محمد المرزوقي ص ٨٧).

تحمل النساء مع بدلة العروس قفة (مصنوعة من سعف النخيل) مغلقة، وضعت بداخلها قراطيس عديدة، يجب أن لا يقل عددها عن الأربعين قرطاسا.. وقد تتجاوز ذلك العدد..

وتضم القراطيس المواد المختلفة التي تحتاج إليها العروس لزينتها وطيبها ولاستعمالها في حاجاتها المختلفة.. وتبقى القفة مغلقة لا تفتح إلا في اليوم الثالث بعد الدخول، بحضور أمها وقريباتها..

وتشمل المواد الأربعون المهداة إلى العروس في قفتها:

بعض أدوات الزينة (سواك– كحل– صابون– مشط– مرآة– توتيا جنزار– شب– قارورة طيب– غبرة مسك).

وبعض التوابل (كمون أسود– كمون أخضر– لبان– قرفة).

ومن الأعشاب العطرية (مردقوشة– قرنقل– بخور جاوي– حنتيت مر الصبر– جدرة– مسعد– زغفران– شوشة ورد).

ولإعداد الطعام (حب رشاد– محلب– مستكة– سكر نبات– جوزة).

ولأعمال المنزل (قرطاس إبر خياطة– مخيط).

بوصول بدلة العروس وتسليمها لها، تقوم النساء بالالتفاف حول العروس

التي تجلس على مكان مرتفع، وتضع النساء غطاء أبيض على رؤوسهن.. ويتولى بعضهن تزيين يدي العروس وقدميها بالحناء، بأن توضع الحاء معجونة في الكفين وفي باطن القدم ثم تلف بقطع القماش، وتبقى كذلك بعض الوقت ثم ينزع القماش والحناء وقد تركت آثارها في اليدين والقدمين.. (محمد المرزوقي ص ٨٩ و١٠١).

وأثناء عملية الزينة بالحناء تقوم صديقات العروس بالغناء يرددن الأغاني التقليدية في كلماتها ونغماتها..

وفي المساء تتجدد حفلة الليل على نسق الليلة الأولى ولكن شيئاً هاماً وجديداً يتم فيها، هو أن العروس تحضرها لأول مرة. وتنتقل من مزلها إلى منزل العرس تحف بها صفوف الفتيات وهن يغنين ويزغردن.. كما تشارك العروس في رقصة "النخ" وهي تتوسط صف الفتيات الراقصات، ولكنها تتميز بينهن بأنها لا تضع "المقدال" الأبيض على كتفيها..

لا يقام أي حفل في صباح اليوم الثالث، وبعد الظهر تتجمع النساء بمنزل العرس ويتم إعداد الطعام من "الكسكسي" ولحم الضان أو الماعز أو البقر لإطعام المدعوين.

أما الحفل الليلي فيقام عند أهل العروس مثل الليلتين السابقتين، لا يختلف عنهما سوى بأمرين:

الأول: أن العريس يقف في صف مع أصدقائه، ويتميز عنهم بوضع طرف البرنس على رأسه، ليمنحوا أفراد فرقة الطبالة مبالغ مالية (النقوط).

الثاني: أن العروس تذهب مع قريباتها وصديقاتها يغنين ويزغردن إلى ضريح ولي صالح –يطفن حوله ثلاث مرات. وفي الدورة الثالثة تقف العروس في

مكان معين حتى تلقى العريس الذي يأتي في جماعة من أصدقائه وأقاربه، ويتجه نحو العروس التي تضع على كتفيها وشاحاً أبيض بينما تضع رفيقاتها وشاحا أسود، ويجد العروس تمد إليه يدها اليمنى بكرة من عجين الحناء.. فيمسك رسغها بيده اليسرى ويأخذ الحناء باليمنى، قبل أن يعود إلى أصحابه بينما تعود العروس إلى منزلها..

وتعتبر هذه الليلة آخر ليالي العرس.. ولكن بعض التقاليد تقضى باستمرارها إلى اليوم السابع..

وفي اليوم الرابع، يقوم أعوان صاحب العرس بدعوة الرجال إلى طعام العرس الذي يقتصر على الكسكسي واللحم..

وبعد الظهر تجتمع النساء في بيت العروس، فيجلسنها على منبر مرتفع.. ويحطن بها في دائرة مسقوفة بقماش أبيض يطرح فوق رؤوسهن.. وتستسلم العروس للمزينات والماشطات. وبمجرد الانتهاء من عملية الزينة، تنتقل العروس إلى هودج على ظهر جمل يقوده رجل -يجب أن يكون اسمه مُحَمَّد أو علي- قاصداً بيت الزوج.

وعندما يناخ الجمل تنزل العروس من الهودج لتتلقاها النساء بينهن لتقصد غرفتها، وعند بابها تعطى لها بيضة دجاج لتحطمها بيدها اليمنى على واجهة الباب العلوية. ثم تجتاز العتبة وتدخل إلى مخدعها. وكسر البيضة على واجهة المخدع يقصد به دفع العيون الحاسدة التي تتجه إلى يد العروس وهي تحطم البيضة، حتى يتحطم كل خطر يأتي من أعين الحساد!!

وعندما يهبط الليل يأتي العريس إلى بيته مع جمع من أصدقائه. وينفلت هو إلى داخل الغرفة ليجد عروسه جالسة وحدها، حيث يتولى رفع نقابها. وتقضي

تقاليد أخرى أن تستقبل العروس زوجها واقفة وهو الذي يجلسها بعد رفع نقابها.. وغالبا ما يقدم لها هدية في هذه المناسبة.

وتقضي تقاليد بعض الأحياء أن تنتظر العروس زوجها خارج الغرفة لتمسك له ذبيحة، ثم تنطلق هاربة إلى مخدعها إثر عملية الذبح، وهو يجري خلفها ليتمكن من ضربها بعصا صغيرة قبل الوصول..

وقرب الفجر يعود أصدقاء العريس وأقاربه ليعلموا النتيجة.. ولا يكفيهم مجرد الإعلان، بل يجب إطلاعهم على الدليل المتمثل في الثوب الملطخ بالدم.. وعندما يخرج العريس مع الفجر يتنفس أهل العروس الصعداء وتفتخر الأم أمام النساء بعرض دليل عذرة ابنتها.. أو ليقيموا مأتما في منزلهم، إذا كانت ابنتهم غير عذراء.. وقد تؤدي فضيحة الفتاة إلى قتلها من طرف أبيها أو وليها.. وقد انتقلت بعض هذه التقاليد إلى المجتمع المصري خلال الحكم الفاطمي..

وفي اليوم السابع من تاريخ وصولها إلى بيت الزوجية، تعد العروس "قصعة الرضا" وهي آنية طعام من الكسكسي واللحم، تحملها على رأسها إلى بيت والديها، لتزور أباها لتحيته بعد احتجابها عنه طوال مدة احتفالات العرس، لتحصل على رضا أبيها عنها.

وكذلك يفعل الزوج الذي يحتجب هو أيضا عن والديه وكبار العائلة منذ ابتداء العرس.

لكل قرية أو قبيلة جد صالح يزار ويمنح البركة للزائرين ويقف شيخ من أحفاد ذلك الولي يقبل النذور التي تهدى إلى الولي من كل مكان. فإن الاعتقاد في الأولياء في قبائل الجنوب التونسي أمر معروف، وإيمان راسخ في القلوب.. والأولياء الصالحون عندهم، هم كل من رابط للعبادة، أو أصيب في عقله

فأصبح من الدراويش، أو في بدنه فأصبح كسيحاً أو مشوها.. يستمد الناس بركتهم ويتيمنون بأقوالهم وحركاتهم وإشاراتهم، وفي نفس الوقت يتشاءمون منهم ويخشون آذاهم.

وقد ترتب على ذلك أن عدد الأولياء عظم وتضخم، حتى امتلأت أرض الجنوب بقبابهم وأضرحتهم وزواياهم.. فلا تكاد تدخل إحدى القرى حتى ترى تلك القباب التي تضم الأولياء الصالحين من الدراويش والمجاذيب والمعتوهين.. وبقيت مزارا للسذج من السكان.

الفصل السادس عشر

الوضع الاجتماعي للمرأة في القيروان

كان المسلمون يخرجون لغزو أفريقيا وينتصرون في غزوهم ثم يعودون إلى مقرهم في مصر أو دمشق، وذلك لبعد خطوط مواصلاتهم وإمداداتهم.. وكان بعض أهل أفريقيا –ممن دخلوا في الإسلام– يرتدون أو ينقضون معاهداتهم.. ولذلك مكث معاوية بن حديج –أثناء غزوته التي قام بها– بمكان يسمى القرن.. ويقال أنه حفر فيه آبارا وبنى فيه مساكنا وسماها قيروانا. (ابن عبد الحكم، فتوح مصر وأخبارها ص ١٩٢) أي أن معاوية بن حديج هو الذي اختط مدينة عند القرن قبل تأسيس عقبة بن نافع لمدينة القيروان، وأقام بها مدة إقامته بأفريقيا وحفر آبارا عند باب تونس من ناحية الجبل، تسمى للآن بآبار حديج بقصد إيجاد معسكر أو مدينة ليقيم فيها المسلمون، لتكون قاعدة لهم.. وعندما أسند أمر أفريقيا إلى عقبة بن نافع سنة ٥٠هـ قام بتأسيس مدينة القيروان. (المالكي، رياض النفوس ص ٦٠).

وكان اختيار مكان إنشاء مدينة القيروان، المدينة الإسلامية الثانية –بعد مدينة الفسطاط– في شمال أفريقيا، يرجع إلى ثلاثة أسباب:

١. بعدها عن الساحل حتى لا تتعرض لأساطيل البيزنطيين.

٢. قربها من البادية لمباشرة نشر الإسلام بين البربر، أهل البلاد الأصليين.

٣. تأمين إمدادات الجيش وحماية وسائل المواصلات وهي الإبل.

(د. محمّد محمّد زيتون، القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية ص ٧٥).

وقد قام المسلمون بقطع الأشجار وتمهيد الأرض لتخطيط المدينة بمعرفة عقبة بن نافع الذي حدد شوارعها ومصالحها.. وبدأ بالمسجد تحقيقا للهدف الذي أقيمت المدينة من أجله.. ثم دار الإمارة وبعد ذلك المساكن والدور التي يقيم فيها الجنود وأسرهم. (حسن حسني عبد الوهاب، ورقات عن الحضارة العربية بأفريقية وتونس ص ٤٤).

وبعد أن تمكن حسان بن النعمان من فتح شمال أفريقيا بقضائه على مقاومة البربر في الداخل، ثم القضاء على الروم في الساحل، شرع في إقامة مدينة ساحلية تكون عينا للقيروان على شاطئ البحر لمراقبة تحركات الروم ورد هجماتهم، ولتحتل المركز الممتاز الذي كان لقرطاجنة من قبل، وتكون مدينة وميناء إسلاميا ليقيم بها المسلمون، ويبنوا بجوارها دار صناعتهم. فتتحول إلى ميناء حربي وتجاري يشرف على حوض البحر المتوسط.. وكانت مدينة تونس التي حققت للمسلمين في أفريقيا الأمن من البحر، كما تحقق لهم الأمن من الصحراء.. وقد استقدم خبراء الصناعة من مصر. ألفاً من الأقباط –المصريين– بأسرهم، وكان ذلك بداية لنشأة صناعة السفن بأفريقيا وتأسيس الأسطول البحري والتجاري وصناعة الآلات الحربية.. (د. مُحَمَّد مُحَمَّد زيتون، المرجع السابق ص ٦٥، ١٥٣، ١٥٤).

وكثرت الحاصلات الزراعية حول القيروان، حيث جلبت إليها أنواع لم تكن موجودة من قبل.. كانت أشجار الزيتون تنتشر بالجهة الشرقية للقيروان إلى شاطئ البحر.. وكانت زراعة الحبوب في الشمال حول وادي "مجردة" على طول مسيرة أيام.. وكان في الجهة الجنوبية –بلاد الجريد– واحات النخيل الكثيرة...

وقد جلبت الماء في الجداول والقنوات المبنية بالحجارة لتروي بساتين القيروان من الآبار بالدواليب –السواقي المصرية– التي تديرها البغال والجمال..

وقد اهتم الفلاحون بتربية الماشية وخاصة الغنم ولذلك ازدهرت فيها صناعة المنسوجات الصوفية وأهمها السجاد العربي الذي يسمى بالزربية، والذي يمتاز بالزخرف الهندسي.. وقد تطورت صناعة السجاد العربي بعد وصول الجيش الخراساني في القرن الثاني الهجري ومعه السجاد العجمي –الإيراني– إلى السجاد القيرواني المشهور وقد دخله عنصر الحرير وأسلاك الذهب والفضة.. (د. مُحَمَّد مُحَمَّد زيتون ص ١٥٥).

وأنشئت صناعات دبغ الجلود والصناعات الخشبية وصناعة الصدفيات والعاجيات والمعادن المختلفة من نحاس وفضة وذهب، وكذلك صناعة السكر والصابون والورق..مما يؤكد أن عدد الأسرات المصرية كان ثلاثة آلاف وليس ألفا فقط.

وقد نتج عن نهضة الزراعة والصناعة في القيروان نشاط تجاري واسع، داخليا وخارجيا.. وقد ساعد على ذلك استقرار الأمن وتعبيد الطرق وسهولة المواصلات مع كثرة الإنتاج الزراعي والصناعي.. حتى أصبحت القيروان أعظم مدينة بالمغرب وأكثرها تجارة وأموالا.. ولم تتأثر الحياة الاقتصادية بالأزمات والثورات التي تعرضت لها الحياة السياسية في القيروان، بل استمرت في النمو والازدهار بما حقق للمدينة وضعا اقتصاديا قويا.. (د. مُحَمَّد زيتون ص ١٦٨).

وقد بدأت الحياة الاجتماعية في القيروان منذ تأسيسها وجعلها موطنا لجند المسلمين وأسرهم، فكانت تتسم بطابع الجندية في بداية أمرها كمقر لجند المسلمين، تتوجه منه الحملات لتوطيد السيادة الإسلامية في شمال أفريقيا، وكمنارة هداية لنشر التعاليم الإسلامية السامية التي تدعو إلى مجتمع ناهض قوي، تسود بين أفراده الحرية والمساواة والتعاون..

وقد شارك الجنود من البربر وأسرهم –الذين إعتنقوا الإسلام وحاربوا جنبا

إلى جنب مع الجنود العرب- المسلمين العرب في مدينتهم منذ بداية تأسيسها.. وقد كثر جنود البربر وازداد امتزاجهم في المجتمع عندما توطدت أقدام المسلمين في شمال أفريقيا.. وكان في جيش حسان بن النعمان اثنا عشر ألف جندي من البربر يعيشون مع الجند العرب ويمتزجون بهم ويعيشون معهم حياة اجتماعية تسودها الحرية والمساواة.. وعاشت أسر بربرية في مدينة القيروان واختلطت بأهلها، وكان بينهم تعامل ومصاهرة ومشاركة في الحياة الاجتماعية. (ابن عبد الحكم، فتوح مصر وأخبارها ص ٢٥١).

ولم تحل صعوبة دون اختلاط العرب بالبربر الذين يجمعهم الاتفاق في البيئة التي ينتمي إليها كل منهم، والتي يشيع فيها طابع صحراوي أدى إلى نتائج متقاربة من حيث الاجتماع والعمران، ونتج عن ذلك عادات وتقاليد متشابهة. (د. إبراهيم العدوي، موسى بن نصير ص ٥٦ و٥٧).

ومع مطلع القرن الثاني للهجرة زخرت القيروان بالسكان من مختلف البلدان الإسلامية وبذلك تألف مجتمعها من عناصر عربية وأفارقة وبربر وروم. (حسن حسني عبد الوهاب، المرجع السابق ص ٣٨١).

والقيروان مدينة عربية منذ تأسيسها، وسكانها الأولون هم العرب القادمون من المشرق بدينهم الإسلامي ولسانهم العربي.. ثم خالطهم وساكنهم من دخل في الإسلام واعتنقه، وأخذ عنهم اللغة العربية التي هي لغتهم ولغة الدين الإسلامي وكتابه الكريم.. لذلك تحدث الوافدون للإقامة معهم بهذه اللغة، وأصبحت لغة لهم..

وقد ساعد على إقبال البربر على اللغة العربية أنها لغة الدين الذي آمنوا به، والقرآن الذي يرددون بعض سوره وآياته في عبادتهم.. ثم الجد والنشاط الذي أبداه العرب المسلمون في تعليمهم اللغة العربية التي كانت ذات صلة

وثيقة بلغة سامية أخرى –هي اللغة الفينيقية– والتي كان لها تأثير قوي في لغة البربر خلال الحكم الفينيقي.. خاصة وقد جعل حسان بن النعمان الغساني اللغة العربية اللسان الرسمي للدولة للمكاتبات والرسائل والشكاوى وخطب الجمع والأعياد. (د. مُحَمَّد زيتون، المرجع السابق ص ٢١٥).

واعتمد القضاء في القيروان على مذهب الإمام مالك مع دراسة كتب أبي حنيفة النعمان.. ولذلك وجد المذهبان في مدينة القيروان مع بدء رحلة العلماء إلى المشرق، وإن كان لإقامة الإمام مالك في المدينة المنورة –الموطن الأصلي للإسلام– ثم تمسكه بالوقوف عند القرآن والحديث دون اللجوء إلى الرأي، أثر كبير في حمل الكثيرين ممن رحلوا إلى المشرق من القيروان، على الميل إلى مذهب مالك... وكان هناك من العلماء من يأخذ برأي مالك، ومن يأخذ برأي أبي حنيفة، ومن يفاضل بينهما.. وبذلك ازدهرت الحياة الفكرية في مجال الحديث والتفسير والفقه.. (د. مُحَمَّد زيتون ص ٢١٤).

وبمرور الزمن أقبل التجار العرب من كل مكان للإقامة في مدينة القيروان، وكذلك العلماء.. وأدى استقرار الحياة فيها إلى إقامة أقلية أندلسية وأخرى مسيحية من بقايا البيزنطيين ومن سكان جزيرة صقلية –بعد فتحها– بالإضافة إلى أقلية يهودية كانت تسكن في حي خاص بها..

وقد انقسم هذا الخليط من السكان –حسب الأعمال التي يقومون بها في مجتمع القيروان– إلى عدة طبقات اجتماعية أهمها:

(أ) طبقة الحكام والخواص من الولاة وكبار رجال الدولة وقادة الجيش والحرس الخاص الذي اتخذه الأمراء، وكذلك أنصار النظام السياسي الحاكم المتمثل في التميميين أيام حكم الأغالبة، وفي قبيلة كتامة أيام حكم الفاطميين.

(ب) طبقة التجار التي كان لها دور كبير في الحياة الاجتماعية في القيروان. ولاسيما بعد أن اتسع التبادل التجاري وتجاوز النطاق المحلي إلى النطاق العالمي، وازدهرت الحياة الاقتصادية، وصار للتجار علاقات اقتصادية وتجارية مع صقلية والأندلس ومصر والروم. واستقرت في القيروان جاليات من تلك البلاد لتضطلع بالأعباء التجارية.

(ت) طبقة العلماء وخاصة الفقهاء الذين كان لهم نفوذ قوي في حياة الشعب والحكام، وتأثير قوي في الحياة السياسية وتوجيه الحياة الاجتماعية، والبت في كثير من المشكلات التي كانت تحدث في القيروان ولم يكونوا من ذوي الثراء، وإنما كانوا متوسطي الحال من الناحية الاقتصادية.

(ث) الطبقة الشعبية وكانت تتألف من عدة مجموعات:

١. الجنود النظاميون والمتطوعون المحترفون الذين كانوا يقبلون على الجندية عند استدعاء الأمير لهم للقيام بمهمة حربية.

٢. أصحاب الحرف اليدوية الصناعية الذين كانوا يعملون في الصناعات المختلفة، المعدنية والخشبية والزجاجية وغيرها وعمال البناء الذين شاركوا في إقامة المشروعات الإنشائية الضخمة.

٣. الفلاحون الذين يعملون في الزراعة بالأجر، وأصحاب الأراضي الزراعية ذات المساحات الصغيرة التي يعملون فيها بأيديهم.

٤. العبيد الذين كانوا يعملون بالزراعة لحساب أسيادهم. (د. مُحَمَّد زيتون ص ١٧٠ و١٧١).

ورغم تعدد طبقات المجتمع في القيروان، إلا أنه كان لها رأي عام جماعي، كثيراً ما حمل الحكام على مراعاته، وكان ذلك ناشئاً عن التعاون المثمر بين

طبقات السكان على اختلافهم من العرب والبربر والأفارقة والروم، مما أتاح للحكام حسن استغلال ثروة البلاد بما عاد عليها بالتقدم والازدهار. (حسن أحمد محمود، الإسلام والثقافة العربية في أفريقية ص ١٥٣).

كان للمرأة وضع مشرف في مجتمع مدينة القيروان، يدل عليه موقفها حين هاجم الخوارج المدينة أيام ولاية حنظلة بن صفوان ومشاركتها في الدفاع عن المدينة وحملها السلاح جنباً إلى جنب مع الرجال لحراسة المدينة والدفاع عنها حين هجوم جيش المسلمين على الأعداء.

وكان للنساء تأثير قوي في الروح المعنوية للرجال وحملهم على مواصلة القتال وعدم الفرار عند مهاجمة الخوارج للمدينة.. فعندما زحف الخوارج الصفرية بقيادة عبد الواحد بن يزيد الهواري على مدينة القيروان –في عهد ولاية حنظلة بن صفوان الكلبي التي بدأت سنة ١٢٤هـ– كان الخوارج في جمع عظيم من البربر بلغ ثلاثمائة ألف جندي، قاصدين القضاء على السلطة في القيروان.. فخرج إليهم حنظلة بأهل القيروان –بعد أن جهزهم بكل الأسلحة الموجودة لديه– للدفاع عن مدينتهم وقد شاركت نساء القيروان في هذه المعركة حيث عقدن الألوية وخرجن بالسلاح لمشاركة الرجال في القتال.. وحلفن لأزواجهن، لئن انهزم أحد منهم موليا عن العدو ليقتلنه!.. وبذلك أقبل أهل القيروان على قتال العدو بروح مستميتة في طلب النصر أو الشهادة.. ودارت المعركة واشتد القتال، وانتصر أهل القيروان.. (د. مُحَمَّد زيتون ص ١١١).

وقد خصص للمرأة في القيروان يوم خاص للقضاء حيث يفصل فيه القاضي بين النساء، وهو يوم الخميس من كل أسبوع.. فيجلس القاضي –بعد أن يبعد الكتاب والشهود والحجاب– للنظر في خصومات النساء..

وكانت المرأة القيروانية تقوم بشئون بيتها المنزلية.. فإذا ما انتهت منها، قضت أوقات فراغها في بيتها تقوم بالأعمال اليدوية كغزل الصوف والقطن، والتطريز بالحرير ونسج السجاد أو حياكة الملابس للأسرة.. وقد يساعدها في شئون المنزل بعض الخدم من الرقيق- وكانت تتمتع بشخصية قوية وبالحرية، خاصة في شئون الزواج.. فكانت تشترط عند عقد الزواج أن الزوج إذا تسرى عليها بغيرها، يكون أمرها بيدها حيث تطلق نفسها إن شاءت وتلك عادة معمول بها في مدينة القيروان منذ القرن الثاني الهجري وتسمى في أحكام الزواج (بالصداق القيرواني) وقد نتج عن ذلك قلة رغبة أهل القيروان في تعدد الزوجات. (حسن حسني عبد الوهاب، بساط العقيق ص ٢٣ و٢٦).

وفي نصيحة المعز لدين الله الفاطمي لشيوخ قبيلة كتامة ما يحبذ الاكتفاء بالزوجة الواحدة، وعدم التعدد في الزوجات، لما ينتج عن التعدد من آثار سلبية.. (د. حسن إبراهيم حسن وآخر، المعز لدين الله الفاطمي مؤسس الدولة الفاطمية في مصر ص ٣٨).

وفي هذا الوضع الخاص للمرأة في القيروان، يظهر لنا تماسك الأسرة وقوة بنيانها، ومدى تأثير المرأة في المجتمع القيرواني.. (د. مُحَمَّد زيتون ص ١٧٤).

وكان الكثيرون من التونسيين -قديما وحديثا- يعتبرون أن المرأة أقل ذكاء من الرجل وأضعف من أن تضطلع بما يضطلع به من واجبات سياسية، وما يتحمله من تبعات علمية وثقافية. وإذ تغنوا بها وخطبوا ودها، فلإبراز جمالها وقابليتها لإسعاد الرجل وإرضاء حاجاته.

وقد أثبت علم النفس والأبحاث العلمية المعاصرة أن المرأة لا تقل ذكاء عن الرجل.. وأن ما يلاحظ من فرط الليونة والحساسية والميل إلى الاحتماء بالرجل، يعود أساساً إلى نوع التربية التي تتلقاها منذ ولادتها وإلى دور المجتمع في جعلها

أداة طيعة للرجل غير قادرة على مواجهة الحياة بدونه.

ويهتم الرجل في تونس بقضية الحجاب الذي يعتبره البعض ضمانا للشرف وعنوانا للأخلاق الفاضلة، ويذهبون في تطرفهم الفكري إلى الحيلولة دون تعليم الفتاة للإبقاء على الحجاب.. وقد يقارنون بين المرأة الشرقية التي من شيمتها – في رأيهم– المحافظة على التقاليد والعادات والاقتصار على القيام بشئون المنزل وتربية الأولاد، وبين المرأة الغربية التي خرجت من "قشرتها" –على حد قولهم– وتفسخت وزاغت عن الرسالة التي خلقت من أجلها.. (مُحَمَّد مزالي، دراسات ص ١٣٣– ١٣٥).

والواقع أن تطور المرأة التونسية ليس مشروطاً بالحجاب ولا متوقفا عليه، وقد تحتفظ الفتاة المتعلمة بالحجاب –مثلما شاهدت عددا كبيرا من تلميذات المدارس الثانوية في المدن التونسية– وقد تخلع الحجاب الفتاة التي لم تنل حظها من التعليم.

والملاحظ أن عدداً كبيراً من التونسيات قد خلعن الحجاب، دون انتظار لنتيجة تلك المناقشات الدائرة حوله، إيماناً منهن أن السبيل الوحيد لتطور المرأة التونسية هو التعليم والتربية الإسلامية العصرية.

ولا شك أن مقتضيات التطور الاجتماعي المعاصر تفرض على المرأة أن تساير زمانها ليرتفع مستواها حتى يمكنها أن تتعاون مع الرجل على أساس الاحترام المتبادل.

وقد أعطى الإسلام للمرأة حقوقها واعتبرها عضوا عاملا في المجتمع منذ أكثر من أربعة عشر قرنا من الزمان.. عندما كانت المرأة الأوربية محرومة منها تماماً، وكانت الكنيسة تعتبرها المسئولة وحدها عن خروج آدم من الجنة ونزوله

إلى الأرض لتناوله الثمرة المحرمة بإغرائها له.. وقد قال ذلك صراحة القديس أمبرواز**Saint Ambroise** "أن حواء هي التي تسببت في سقوط آدم، فمن العدل أن يكون آدم مولاها وسيدها والمسيطر عليها.." بل إن بعض رجال الكنيسة الغربية كانوا يؤمنون بأن ليس للمرأة روح مثل الرجل!.. وحاربت الكنيسة كل فكر دعا إلى تطور المرأة..

ولعل القانون الفرنسي يعطي صورة واضحة لمركز المرأة ووضعها الاجتماعي والقانوني عندما نص صراحة على أن المرأة تطيع زوجها طاعة عمياء (مادة ٢٨٣) وعلى أن للرجل وحده الحق في تربية أولاده وله وحده النفوذ في العائلة (مادة ٣٧٣) وعلى أنه لا يمكن للمرأة أن تبيع وأن تشتري وأن ترتهن دون موافقة الرجل..

ولعل المتشدقين برجعية الإسلام يراجعون آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة، ليتأكدوا أن جميع الواجبات الشرعية المفروضة على الرجل مفروضة أيضاً على المرأة، إلا ما كان من أمور استثنائية، بعضها يختص بها الرجل والبعض الآخر تختص بها المرأة.

(يا أيها الناس اتقوا الله ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء) (صدق الله العظيم) [سورة النساء آية ١].

الفصل السابع عشر

وتحطمت أسطورة عرب بني هلال

لم يكن البربر –السكان الأصليون– راضين عن الاستعمار الأجنبي، ولم يستكينوا مع قدرة، ولذلك تعددت حوادث التمرد والثورة وكانت الأولى سنة ٣٩٦ ق.م في نهاية القرن الرابع قبل الميلاد بعد كارثة سرقوسة، عندما فر القائد القرطاجي موليا الأدبار إثر هزيمته مستصحبا معه مواطنيه من القرطاجيين فقط، تاركا بقية جنوده من الرعايا الليبيين في قبضة العدو عرضة للتعذيب والقتل. فتجمع حوالي مائتا ألف من الثوار نحو مدينة قرطاج وحاصروها بعدما استولوا على مدينة تونس..

وثاروا مرة أخرى سنة ٣٧٨ ق.م –بعد الثورة الأولى بست عشرة سنة– إثر انتشار مرض الطاعون.. وتمردوا في عدة مناسبات أخرى، كلما رأوا القرطاجيين في موقف حرج ينذر بالخطر.. وفي كل مرة كان يتم قمع تلك الثورات بمنتهى الوحشية والصرامة.. مما ملأ النفوس أحقاداً ورغبة في الانتقام ازدادت مع الأيام وتناقلتها الأجيال حتى استجابوا لثورة ماطوس.. ولم تنس النسوة الليبيات ما كان يفعله القرطاجيون بآبائهن وأزواجهن، فأردن المشاركة في الثورة وتبرعن –بإرادتهن– بجميع حليهن وزينتهن حتى تجمعت لدى ماطوس وزميله اسبنديوس أموال كثيرة لدفع أجور الجنود ولمواجهة مصروفات المقاومة والكفاح. (أحمد صقر، مدنية المغرب العربي في التاريخ ص ٢٠٥).

ثم جاء الفاتحون من شبه الجزيرة العربية وتخيروا مواقعا لإقامتهم كالقيروان

وتونس.. ثم استدعوا زوجاتهم وأولادهم وأقاربهم وعشيرتهم وقد اختطوا البيوت والمساجد والمدن والقرى.

وقد كانت للرجال العرب رغبة في الزواج من بنات البلاد المفتوحة سواء على وجه التسري من السبايا والجواري، أو بمصاهرة العائلات العريقة ترغيبا لهم في إتباع الشريعة الإسلامية.. لما للمصاهرة من التأثير العظيم في تقوية روابط الألفة وأواصر الصداقة وحسم الخلافات. وبذلك تمكن العرب –في زمن قصير– من ضم البربر إلى العائلة الإسلامية الكبرى.. وأصبح سكان تونس ينتمون إلى القبائل العربية المعروفة، آخذين عنهم عقيدتهم الدينية ولغتهم وعاداتهم وتقاليدهم.. أي أن قصد الفاتحين لم يكن مجرد الاقتصار على متعة الزواج بنساء بربريات.

وقد كتب هشام بن عبد الملك –من الدولة الأموية– إلى عامله على أفريقية (تونس) عبيد الله بن الحبحاب "أما بعد فإن أمير المؤمنين لما رأى ما كان يبعث به موسى بن نصير إلى عبد الملك بن مروان رحمه الله، أراد مثله منك، وعندك من الجواري البربريات المالئات الأعين، الآخذات بالقلوب ما هو معوز لنا بالشام وما والاه، فتلطف في الانتقاء وتوخ أنيق الجمال، ومع ذلك فاقصد رشدة المولد وطهارة المنشأ فإنهن يتخذن أمهات أولاد، والسلام". (أبو الفرجالأصفهاني في كتاب النساء عن تحفة العروس لأبي عبد الله مُحَمَّد التجاني التونسي).

وقد جاء في كتاب "المسالك والممالك" أن ما كان يجهز من المغرب إلى المشرق المولدات الحسان اللاتي استولدهن بنو العباس وغيرهم وولدن غير سلطان عظيم، كسلامة البربرية أم أبي جعفر عبد الله المنصور، وقتول أم أبي منصور مُحَمَّد القاهر بن المعتضد، وغيرهم من ملوك الشرق وأمرائه.. (المسالك

والممالك لابن حوقل البغدادي الرحالة الشهير ص ٦٩).

وكانت انتفاضة كسيلة البربري على عقبة بن نافع، لأنه بالغ في إذلال القائد البربري، ولاحظ ذلك أصحاب عقبة فنصحوه ولكنه لم يسمع لهم، فكانت ثورة كسيلة.. ويرى بعض المؤرخين أنها كانت انتقاماً شخصياً وليست ثورة عنصرية أو جنسية.

ثم كانت ثورة مسيرة المضغري الخارجي، وكانت الخارجية قد انتشرت وأسست لها دولة في سلجمانة، وانطوى البربر تحت لوائها ليستعيدوا مكانتهم السياسية. وصادف ذلك سوء تصرف الوالي عبيد الله بن الحبحاب، فانتفض البربر تحت زعامة مسيرة بتأثير المذهب الخارجي الذي لا يقر اقتصار الخلافة على قبيلة قريش..

كانت إدارة البلاد الأفريقية منوطة بعهدة الولاة الذين يعينهم الخليفة وذلك منذ تاريخ الفتح العربي الإسلامي، حيث يرسلهم الخليفة من المشرق نوابا عنه، وكان الوالي يقيم في دار الإمارة التي أنشأها عقبة بن نافع لما أسس مدينة القيروان، وجعلها بجوار الجامع الأعظم من ناحيته الجنوبية.. وكان مُحَمَّد بن مقاتل العكي –أخو الرشيد رضاعا– آخر من وفد على الولاية سنة ٧٩٧م وقد ظن أن الخليفة قد أقطعه البلاد لقرابته منه. فأساء التصرف واستعمل العنف وساد الظلم، مما أوغر عليه الصدور.. فثار عليه عامل تونس (المدينة وما يليها من شمال القطر التونسي) وهزمه.. فاستنجد مُحَمَّد العكي بإبراهيم بن الأغلب الذي أسرع إلى نجدته وقمع الثوار. وعند ذلك عزل الخليفة العباسي الوالي مُحَمَّد العكي وعين إبراهيم بن الأغلب التميمي واليا بعد أن اشترط على نفسه أن يترك المائة ألف دينار ذهباً التي كانت ترسل من مصر سنويا إعانةلأفريقيا، وأن يدفع هو خراجا قدره أربعون ألف دينار ذهباً كل عام.. ووافقالخليفة وجعل

الإمارة له ولذريته من بعده، وبذلك أصبحت أفريقية -تونس- ذات استقلال داخلي منذ عام ٨٠٠م تحكمها الأسرة الأغلبية لأكثر من مائة عام..

وقد نشأ إبراهيم بن الأغلب في مصر وتلقى العلوم الإسلامية من المجتهد الكبير الليث بن سعد، وعندما أزمع السفر إلى أفريقية (تونس) مع أبيه، أهدى له شيخه جارية- كان قد قام بتربيتها اسمها "جلاجل".

تولى إبراهيم إمارة "أفريقية" سنة ١٨٤هـ ٨٠٠م وابتنى قرب القيروان - على بعد ثلاثة أميال منها- مدينة أطلق عليها اسم "العباسية" تخليدا لذكر ساداته من بني العباس، واتخذ بوسط المدينة الجديدة قصرا لنفسه لقبه بالرصافة -محاكاة لمعالم العاصمة بغداد- حيث ولدت له زوجته جلاجل ابنا أسماه "زيادة الله" الذي اعتلى عرش الولاية بعد وفاة أبيه. (حسن حسني عبد الوهاب، شهيرات التونسيات ص ٣٨ و٣٩).

كان إبراهيم بن الأغلب أول من أدخل زنوج السودان بالجند الأفريقي وبلغ عددهم في أيامه عشرة آلاف.. (حسن حسني عبد الوهاب، خلاصة تاريخ تونس ص ٧٤- ٧٨).

وفي عهد الأغالبة، بعد ولاية مُحَمَّد الأول في عام ٨٤١م بثلاث سنوات تقريبا، هاجم سكان أواسط إيطاليا الساحل التونسي ليلاً وأسروا عدداً كبيراً ساقوهم عبيداً أرقاء، وأقلعوا بهم إلى بلادهم مع ما نهبوه من أموال وممتلكات.. وقد أخذ الأمير مُحَمَّد بالثأر فغزا روما العاصمة الكبرى بجيش قوي، حمله على أساطيله البحرية من ميناء سوسة الحربي سنة ٨٤٦م حتى مصب نهر التبري، إلى مدينة روما حيث انتشر الجيش الأفريقي في ضواحي المدينة. واحتل الحصون المحيطة بها الواحد تلو الآخر حتى بلغ أسوار المدينة فاقتحمها وأخذ من الغنائم والذخائر ما أعتبر أعظمها في التاريخ.. وظلت الجنود الأغالبة تحتل المدينة

حوالي شهرين، وقد أقاموا حصنا صغيرا على مصب النهر –مازالت بقاياه هناك إلى اليوم– ثم اضطروا إلى مغادرة المدينة والعودة للوطن عندما توافدت النجدات من الأمم الإفرنجية بناء على طلب بابا روما...

ومازال الفاطميون –من ذرية الإمام علي بن أبي طالب والسيدة فاطمة الزهراء– يطالبون بالخلافة تأسيسا على الرأي القائل بإمامة أهل البيت بالتوارث.. وكان أبو عبد الله الصنعاني من الداعين للفاطميين، الذي توجه إلى المغرب مع جماعة من كتامة –إحدى قبائل البربر– كان قد التقى بهم في الحج واستقر بالبلاد واستطاع أن يستميل إليه بعض القبائل البربرية، وعندئذ أعلن مذهبه بإمامة أهل البيت ودعا للإمام المعصوم.. وبذلك دخلت كتامة في طاعته.. فأنشأ جيشاً وزحف به على أفريقية وفتح مدنها واحدة تلو الأخرى حتى انتصر على الجيش الأغلبي ودخل مدينة القيروان. ثم توجه إلى سجلمانة بالمغرب الأقصى –تعرف اليوم باسم نأميلالت– حيث أنقذ عبيد الله المهدي من الاعتقال وسلمه مقاليد الحكم.. وبه سميت الدولة العبيدية. وقد اختلف النسابون في نسبه اختلافاً كبيراً، ولكن معظم المؤرخين يقولون بصحة نسبه إلى آل البيت.

قام حكم العبيديين بالعصبية البربرية وانصرفوا بكليتهم لمحو آثار السيادة الأغلبية من أفريقية.. واستطاعوا أن يرفعوا الراية الخضراء الفاطمية على برقة ومصر والشام والحجاز، وأضعفوا شأن الخلافة العباسية حتى كادوا أن يقضوا عليها.. وكان رابع الخلفاء العبيديين الأمير "معد" الملقب بالمعز لدين الله الفاطمي.

ويفرق المؤرخون بين العبيديين والفاطميين –رغم كونها دولة واحدة– إذ يطلقون الاسم الأول على من تولى من الأسرة حكم أفريقيا، والاسم الثاني على من تولى منهم الخلافة في مصر..

وبمبايعة أهل القيروان له، لقب نفسه بأمير المؤمنين. وكما فعل الخليفة المنصور العباسي مع أبي مسلم الخراساني، أمر عبيد الله المهدي بقتل عبد الله الصنعاني.. ونظراً لتوجسه من أهل القيروان أنشأ مدينة جديدة أسماها المهدية – نسبة إليه– بين سوسة وصفاقس..

وقد تولى بعد ابنه القائم بأمر الله الذي استعان بقبائل كتامة وصنهاجة للدفاع عن ملكه أمام الخوارج، الذين يرفضون أن تقتصر الخلافة الإسلامية على قبائل قريش.. لأنه لا فرق بين عربي وأعجمي إلا بالتقوى..

وبعد وفاة إسماعيل المنصور –الذي أنشأ مدينة المنصورية بالقرب من مدينة القيروان سنة ٩٣٩م– تولى ابنه المعز لدين الله الفاطمي فاستولى على المغرب الأقصى أولا قبل أن يرسل جيشه بقيادة جوهر الكاتب –المعروف تاريخيا باسم جوهر الصقلي– إلى مصر سنة ٩٦٩، لما بلغه من اضطراب أحوالها بعد وفاة كافور الإخشيدي.. حيث دخلها بدون مقاومة وأنشأ بها مدينة القاهرة المعزية أو الفاطمية.. ولما تم لجيش المعز لدين الله الاستيلاء على دمشق، قرر الانتقال إلى مصر، وعين "بلكين بن زيري الصنهاجي" أميرا على أفريقية والمغرب سنة ٩٧٣م "وكان الخلفاء العبيديون قد رعوا حقوق أنصارهم البربر وأسندوا إليهم أهم الوظائف من قيادة الجند ورئاسة المصالح، فلم يمض وقت طويل حتى تسلطوا على الولايات.. وبذلك بدأ نفوذ الدولة العربية المضرية –تحت حكم قبائل قريش– يتلاشى تدريجيا لتعود السلطة إلى البربر أهل البلاد الأصليين.. (حسن حسني عبد الوهاب، خلاصة تاريخ تونس ص ٩٤– ١٠٤).

بتولي بلكين بن زيري –من قبيلة صنهاجة البربرية– على إمارة أفريقية والمغرب بدأ عهد الدولة الصنهاجية.. وقد بلغت البلاد التونسية في عهدهم شأنا عظيما من المدنية بتنمية الزراعة والصناعة.. وبدأ الأفريقيون يمارسون

التجارة براً وبحرا لبيع منتجاتهم الزراعية والصناعية..

ومع نمو الثروة القومية أقبل الكثيرون على العلوم فازدهرت الآداب وظهرت حركة فكرية واسعة.

وفي سنة ٩٧٦م بدأ الزيريون في بناء أسطول جديد، وفي عهد المعز بن باديس سنة ١٠١٦م كان لديهم أسطول عظيم، وقد ورثوا مجد الأغالبة في السيطرة على سواحلهم.

وقد بلغت مدينة القيروان من ضخامة البناء وعزة الملك والبذخ الواسع والشرف العجيب ما يدل عليه مواكب أمرائها ومراسمهم وحفلاتهم.

وفي سنة ١٠٤٣م (٤٣٥هـ) قام الشعب بثورة داخلية ضد المنتمين لمذهب الشيعة الإسماعيلية التي كان العبيديون قد نشروها خلال فترة حكمهم.. واضطر المعز بن باديس الصنهاجي أن يجاري الرأي العام –رغم تسامحه– فأعلن رفضه لدعوة الفاطميين وخلع طاعتهم وحمل جميع أهل المغرب على إتباع مذهب الإمام مالك بن أنس حسما للخلافات المذهبية. وفي عام ١٠٤٧م (٤٣٩هـ) اتجه للخلافة العباسية في بغداد، فجاءه تقليد من خليفة بغداد القائم بأمر الله يعترف له بالاستقلال.. (حسن حسني عبد الوهاب، والمرجع السابق ص ١٠٥– ١١٢).

عظم على الخليفة الفاطمي خروج أفريقية عن السيادة الفاطمية واستمع إلى وزيره "اليازوري" الذي دبر انتقاما من سكان أفريقية وأميرها.. فأمر بإرسال الأعراب –عدة عشائر بدوية همجية ضعيفة التنظيم فقيرة الموارد– المقيمين بشرق نهر النيل من بني "هلال وبني سليم ورباح وزغبة –بعد أن أجاز لهم اجتياز النيل، وكان ذلك ممنوعا عليهم– إلى بلاد أفريقية بعد أن أعانهم بالمال

والذخيرة "فانتشروا إلى برقة كالجراد جندا همجيا لا يخاف الخالق ولا يحترم المخلوق".. وقد وصلوا إلى أفريقية عام ١٠٤٨م (٤٤٠هـ) وكانوا حوالي أربعمائة ألف. والتقى بهم المعز مع قواته من صنهاجة وزناتة قرب جبل حيدران–بين قابس والقيروان والمعروف اليوم باسم يودران– حيث قتل الكثير من الجانبين وانخذلت زناتة فاضطر المعز إلى التراجع إلى المنصورية حيث أحاط بها سور أوصله بالقيروان سنة ١٠٥٢م. واقتفى الهلاليون أثره وحاصروه فيها.. فاضطر إلى الصلح مع الأعراب بعد أن أمر سكان القيروان بإخلائها والانتقال إلى المهدية، كما ترك المعز المنصورية إلى هناك أيضا في نوفمبر سنة ١٠٥٧م.

وانطلق الهلاليون في أرجاء أفريقية، ويصف المؤرخ ابن خلدون زحفهم بقوله "أن الأعراب قد جاءوا ودخلوا البلد واستباحوه واكتسحوا المكاسب وخربوا المباني وعاثوا في محاسن أفريقية وطمسوا من الحسن والرونق معالمها واستصفوا ما كان لآل بلكين الصنهاجيين في قصورها. وشملوا بالعبث والنهب سائر من فيها، وتفرق أهلها في الأقطار وعظمت الرزية وانتشر الداء وعظم الخطب، وعاجوا على ما هنالك من الأمصار وأزعجوا ساكنيها وعطفوا على المنازل والقرى والضياع والمدن فسادا وتخريبا ونهبا فتركوها قاعا صفصفا وسارت قبائل دياب وعوف والزغب وجميع بطون بني هلال إلى أفريقية كالجراد المنتشر لا يمرون بشيء إلا أتوا عليه حتى وصلوا إلى القيروان سنة ٤٤٩هـ ١٠٥٧م. واستباحوا القيروان واغتصبوها وأتوا على عمرانها –كما ذكر المؤرخ التونسي حسن حسني عبد الوهاب– حتى أصبحت حاضرتها الزاهرة أثرا بعد عين. (حسن حسني عبد الوهاب، المرجع السابق ص ١١٢ و١١٣).

بعد أن قضى بنو هلال على القيروان وهدموا معالمها وخربوا مملكة بني زيري الصنهاجية، هاجر علماء الفقه منها إلى المغرب الأقصى ناجين بأ،فسهم..

ويقول "النويري في نهاية الأرب" أن مدارس القيروان قد أقفرت بعد غزوات عرب بني هلال. وهكذا كان القرن الرابع الهجري نهاية مجد القيروان وبداية ازدهار الثقافة الفقهية في المغرب.

وعندما بويع تميم بن المعز في سبتمبر سنة ١٠٦١م –بعد وفاة أبيه– في مدينة المهدية، كان ما بقى تحت سلطانه يمتد على ساحل البحر من سوسة إلى قابس لا غير.. أما تونس والقيروان والجريد فقد تولى أمر كل منها أحد الأعراب وأصبحت البلاد التونسية أشبه شيء بالأندلس قبيل نهايتها.. وقد سرى هذا الداء –الانقسامات والصراعات على الإمارة– إلى جميع البلاد الإسلامية فتجزأت أقطارها وضعفت قوتها.. واستولى النورمانديون –وهم جماعة من الشمال من بلاد النرويج والدنمرك– على جزيرة صقلية سنة ١٠٩١م (٤٨٤هـ) بعد حكم إسلامي دام لأكثر من مائتين وسبعين عاماً.. وقد بقى سكانها المسلمون تحت حكم النورمانديين بعد ذلك حوالي مائة وخمسين عاماً، ثم نقلوا جبرا إلى منطقة جبلية بجنوب إيطاليا حيث اندمجوا في السكان.. (حسن حسني عبد الوهاب، المرجع السابق ص ١١٤، ١١٥).

كان لانفصال الزيريين عن الفاطميين تأثير سيئ على اقتصاد تونس عندما أصدر أمراء القيروان مرسوما بتحريم تداول العملة الفاطمية.. وقد زاد الحالة تدهورا غزو قبائل بني هلال للبلاد بإيعاز من الفاطميين للانتقام منها، الذين قضوا على الزراعة والتجارة معا عندما قاموا بتخريب كل ما أقامه القرطاجيون والرومان والعرب من أنظمة دقيقة في الري والزراعة.. كما قطع بنو هلال طريق القوافل، وانتقلت التجارة البحرية من الأفارقة إلى الإيطاليين..

وقد هاجم أسطول كبير من جنوة ذلك الشريط الساحلي حيث أحرق رجاله وسبوا نساءه ثم جاء أسطول من روما لم يستطع أن يحقق ما حققه أسطول

جنوة.. مما دفع يحي بن تميم إلى الاهتمام ببناء أسطول عظيم هاجم به جنوة وجزيرة سردينيا حيث حصل من أهلها على أموال طائلة.

وفي عهد الحسن بن علي بن يحي هاجم النورمانديون المدية سنة ١١٢٣م (٥١٧هـ) حيث لاقاهم رجاله وأثخنوا فيهم القتل حتى انسحبوا خاسرين.. ولكن النورماديين أعادوا الكرة سنة ١١٤٢ (٥٣٦هـ) في ثلاثمائة مركب وكانت المهدية خالية من الجند لانشغالهم في حرب بجهة تونس.. فاستولى النورمانديون على سوسة وصفاقس.. ولما أيقن الحسن بالهزيمة أعلن الرحيل من المهدية حقنا لدماء الشعب وخرج سنة ١١٤٨م (٥٤٣هـ) ليدخلها النورمانديون.. وأصبحت البلاد التونسية مقسمة بين النورمانديين على السواحل حيث استولوا على معظم المدن الساحلية، وبين الأعراب في الداخل، وكانت نهاية الدولة الصنهاجية. (حسن حسني عبد الوهاب، خلاصة تاريخ تونس ص ١١٨ و١١٩).

وقد أشار كلوت بك في الجزء الثاني من كتابه "لمحة إلى مصر" إلى أن قصة أبي زيد الهلالي كتبت في القرن العاشر من الميلاد –القرن الرابع الهجري– على أنها كانت شائعة أيضا في زمن المؤرخ ابن خلدون صاحب المقدمة وكتاب العبر. وهو أول من ذكرها كوقائع تاريخية، كما ذكر هجراتهم وغزواتهم وأسماء أبطالهم.. وحكى السير الهلالية كتاريخ لا يقبل الشك، وأن أحوال هذه القبائل –من هلال وسليم وغيرها– قد استمرت على ذلك، وهم على طبيعتهم في التنازع والتصارع، والأيام تعلو بهم وتنزل، والأحداث تعطيهم وتأخذ منهم حتى انقرض من بطونهم من انقرض وبقى منهم أعقاب وفلول فقدوا شخصيتهم وضاعت سطوتهم، وانطوت في بطون الأيام وتصاريف الأقدار سيرتهم.. (تغريبة بني هلال عن كتاب سيرة بني هلال لمؤلف مجهول، جريدة القاهرة ٥ فبراير ٢٠٠٨).

الفصل الثامن عشر

مصرع لويس التاسع أسير المنصورة في حملته ضد تونس

في عام ١١٣٤م (٥٢٨هـ) خلال الاضطرابات السياسية في أفريقية نتيجة زحف عرب بني هلال وهجوم النورمانديين ظهرت بالمغرب الأقصى دولة الموحدين بقيادة عبد المؤمن بن علي الكومي من قبيلة زناتة البربرية. وقد استولى على المغرب الأوسط أيضاً والأندلس.. عندما استنجد به الحسن بن على الصنهاجي لإنقاذ المهدية من أيدي النورمانديين. وقد قام بجيش قوامه مائة ألف رجل واتجه إلى أفريقية حيث استولى على مدينة تونس سنة ١١٥٩م (٥٥٤هـ) ثم حاصر المهدية ستة أشهر قبل أن يحتلها في ٢٢ يناير سنة ١١٦٠م (يوم عاشوراء سنة ٥٥٥هـ الذي سمي عام الأخماس).. وتولى الحسن الصنهاجي على المهدية وأشرك معه أحد الموحدين.. كما عين آخرين على مدينة تونس، التي نقل إليها مركز الحكم وأصبحت عاصمة أفريقية.

ومن خلفائه يعقوب المنصور الذي اتخذ الشيخ أبا مُحَّد عبد الواحد بن أبي حفص وزيرا.. وعندما تولى ابنه مُحَّد، أرسل الشيخ عبد الواحد بن أبي حفص على رأس جيش إلى أفريقية حيث تولى إمارتها سنة ١٢٠٧م (٦٠٣هـ) ليبدأعهد الدولة الحفصية. (حسن حسني عبد الوهاب، المرجع السابق ص ١٢١– ١٢٤).

زعم الحفصيون أنهم من نسل عمر بن الخطاب رغم أنهم من البربر.. وقد حظيت الدولة الحفصية باتساع سلطانها ونفوذها وإن غلب عليها سوء الإدارة. وقد لقب أحدهم –المستنصر بالله– بأمير المؤمنين عندما بايعه أمير مكة وأهل

الحجاز بالخلافة سنة ١٢٥٩م (٦٥٧هـ) بعد سقوط الخلافة العباسية في بغداد على يد التتار.

وفي عهده هاجم لويس التاسع ملك فرنسا –الذي كان أسيرا في دار ابن لقمان بالمنصورة بعد هزيمة حملته الصليبية السابعة سنة ١٢٤٩م– البلاد التونسية على رأس جيش قوامه أربعون ألف مقاتل ونزلوا بإطلال قرطاج يوم ٢١ يوليو سنة ١٢٧٠م وبعد قتال دام حوالي ستة أشهر اضطر الفرنسيون إلى الانسحاب بعد أن هلك منهم عدد عظيم بمن فيهم الملك لويس التاسع.

وفي عهد تلك الدولة ولد المؤرخ التونسي الشهير ابن خلدون (يوم ٢٧ مايو سنة ١٣٣٢م– غرة رمضان سنة ٧٣٢هـ) وقد تقلد الوظائف وهو حدث وسافر إلى أماكن متعددة وعين في سنة ١٣٨٤م (٧٨٦هـ) قاضي قضاة المالكية بالقطر المصري على عهد السلطان برقوق، ومات بالقاهرة سنة ١٤٠٥م وقد وضع كتاب التاريخ المعروف بكتاب (العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر) وقد قسمه إلى أربعة أقسام أهمها (المقدمة) التي ترجمت إلى معظم لغات العالم لأهميتها العلمية الكبرى.

وفي عهد الحسن بن أبي عبد الله هاجم الأتراك تونس تحت قيادة خير الدين وهو من القراصنة. واضطر الحسن أن يستنجد بأسبانيا التي اغتنمت الفرصة لفرض حمايتها على المدن الساحلية. فقاد ملكها شارلكان –كارلوس الخامس– الحملة بنفسه فدخل تونس.. وأمر جيوشه بنهب المدينة.. فاستباحوها بالقتل والأسر والسبي، حتى قيل أن عدد سكان تونس كان مائة وثمانين ألفا قتل منهم الثلث وأسر الثلث ونجا الثلث... كما بددوا نفائس جامع الزيتونة من المخطوطات. وأشرك شارلكان أحد قواده الأسبان مع الحسن الحفصي، الذي وافق على معاهدة تسمح للأسبان أن يسكنوا جميع أنحاء بلاد

تونس وإقامة طقوس دينهم والتنازل لهم عن عدة مدن. ولم ترق هذه الشروط المجحفة في أعين الشعب التونسي فاتحدوا مع أبي العباس أحمد الحفصي –بن الحسن الحفصي– واستولوا على العاصمة تونس. ولكن الدولة الحفصية كانت تتجه للانهيار السريع بينما الأسبان يستولون على المهدية والمنستير وجزيرة جربة، حتى أخذها منهم الأتراك العثمانيون سنة ١٥٥١م. وعين حيدر باشا والياً على القيروان بدعوة من أهلها، وأزيحت عنها سيادة بني حفص.. وفي سنة ١٥٨٩م استولى الأتراك العثمانيون على تونس عاصمة البلاد.

والتجأ أبو العباس أحمد إلى الأسبان لمعاونته على الأتراك، ولكنه لم يرض بشرط الأسبان فرض الحماية على البلاد واقتسام الحكم معه، فترك البلاد إلى صقلية.. واضطر أخوه مُحَمَّد بن الحسن الحفصي إلى قبول الشروط وعين في تونس سنة ٥٧٢م، ولكن سكان المدينة هربوا منها إلى البادية واختفوا بالكهوف.

ونظم العثمانيون حملة ضخمة بقيادة سنان باشا، الذي استولى على تونس وأنهى حكم الحفصيين والحماية الأسبانية في سبتمبر سنة ١٥٧٣م. (حسن حسني عبد الوهاب، المرجع السابق ص ١٢٦– ١٢٨).

وبذلك تم فتح البلاد التونسية، وألحقت بالدولة العثمانية وأصبحت جزءا من ممتلكاتها بشمال أفريقيا الممتدة من الجزائر إلى البلاد المصرية.. ورتب سنان باشا حراسة البلاد بأربعة آلاف من الجنود الإنكشارية على كل مائة منهم ضابط يسمى "الداي ثم رئيسا لهم جميعا هو "الأغا".. وخصص لجباية المال مأموراً بلقب "الباي".

وفي سنة ١٥٨٩م استقل عثمان داي بوظيفة الداي، وفي عهده قدم إلى البلاد التونسية ثلاثون ألف مهاجر من الأندلس.. بعد أن أضعف الصراع على السلطة المسلمين، فتفرقت كلمتهم وتزايدت انقساماتهم حتى تمكن منهم

الأسبان الذين كانوا يزدادون قوة وتماسكا في سنة ١٤٤٢م (٨٩٧هـ) باستيلائهم على مملكة غرناطة.

وهاجرت أعداد غفيرة من مسلمي الأندلس إلى المشرق والمغرب، ولكن بقى البعض... حتى تكالب عليهم الأسبان بوحشية وأخرجوهم من ديارهم، فنزل بعضهم بالمغرب الأقصى وقصد آخرون البلاد التونسية لما بلغهم من كرم أهلها وخصوبة تربتها.. ومنذ عام ١٦٠٦م بدأ توافدهم عليها في عهد عثمان داي، الذي أحسن استقبالهم وأكرم وفادتهم.. وقد أقطع لهم ما اختاروا من الأراضي ووزع الأموال على المحتاجين منهم. فانتشروا في البلاد يشيدون القرى والمزارع وبساتين الفاكهة، كما أقاموا صناعات جديدة وأسواقا لبيع منتجاتهم. وازدهرت البلاد التونسية وزادت ثروتها واتسع عمرانها..

وكان الولاة الأتراك الأولون قد سعوا إلى إحياء الصناعة وإعادة الحياة إلى رونقها السابق، فلم يتمكنوا من ذلك إلا بعد التجاء عرب الأندلس إلى تونس هربا بدينهم من طغيان الأسبان.

وأصبح أبناء البلاد بين حضارتين متباينتين.. التركية –شرقية المأخذ– والأندلسية –غربية المنبت– مع إضافات من التقاليد الإفرنجية.. فاقتبس التونسيون من الحضارتين ما ناسبهم من الأخلاق والعادات والمأكل والملبس.. وقد تدرج هذا المزيج بين الحضارتين بالبلاد منذ ذلك الحين حتى اليوم.. (حسن حسني عبد الوهاب، شهيرات التونسيات ص ١٢٨ و١٢٩).

وتوفي عثمان داي، سنة ١٦١٠م وخلفه في الولاية صهره يوسف داي الذي أعلا شأن الأسطول التونسي وبالتالي رئيس البحر "اسطا مراد رايس" الذي خلفه في الولاية سنة ١٦٣٧م وكانت له شهرة عظيمة في القرصنة، حتى قيل أنه جلب للعاصمة تونس في مرة واحدة حوالي تسعين مركبا، وكانت سوق

البركة عامرة بالرقيق. وبوفاته سنة ١٦٤٠م أخذ أمر الداي في التراجع حتى صار اسما بلا مسمى، وأصبح النفوذ والرئاسة في يد البايات. (حسن حسني عبد الوهاب، خلاصة تاريخ تونس، ص ١٦٠- ١٦٥).

وتولى مراد باي ولاية البلاد التونسية وقد توطدت وظيفته بحصوله على لقب باشا من الباب العالي.. ثم قام ابنه حموده باي بالأمر بعده، ثم أحفاده - قبل أن تنتقل إلى آخرين- اضطربت البلاد في عهدهم.. حتى استطاع أهل البلاد مبايعة حسين بن علي، لما كانوا يعلمونه من حميد خصاله وحزمه في ٣ يوليو سنة ١٧٠٥ وبذلك انتقلت الولاية إلى الأسرة الحسينية حتى استقلال تونس وإعلان الجمهورية بها.. (حسن حسني عبد الوهاب، المرجع السابق ص ١٦٧- ١٧٧) وقد استطاع حسين بن علي- مؤسس الدولة أن يجعل الولاية وراثية في ذريته للأكبر سنا. وفي عهد المشير أحمد باي أبطل بيع الرقيق في البلاد التونسية وأمر بإغلاق سوق البركة بالعاصمة وحرم على السكان الاتجار في الرقيق سنة ١٨٤٦م ثم أعتق جميع العبيد الموجودين بالقطر التونسي.. ونظم التعليم بجامع الزيتونة وهو أول من خاطب الدولة العثمانية باللغة العربية- لغة البلاد. وفي سنة ١٨٥٥م تولى مُحَّد باي الثاني وأصدر قانونا لجميع سكان البلاد التونسية باختلاف مذاهبهم بحريتهم الدينية ومساواتهم في الحقوق العامة. وسمي هذا القانون (عهد الأمان) وتقرر العمل بهذا القانون في ١٠ سبتمبر سنة ١٨٥٧م الذي تعهد فيه الباي بحفظ الأموال وحماية الأعراض.. واهتم بشأن المحكمة الشرعية الإسلامية ونظم تواجد القاضيين المالكي والحنفي والمفتيين يوميا للفصل في النزاعات الشرعية. وأنشأ مجلسا بلديا بتونس سنة ١٨٥٨م لتنظيم المدينة وإصلاح طرقاتها وإنارتها..

وفي سنة ١٨٦٠م أنشئت مجالس أهلية للفصل في القضايا بين الخصوم،

وتم انتخاب مجلس أعلى يتألف من ستين عضوا للنظر في مصالح البلاد والشورى في المسائل السياسية والاقتصادية.

وتعرضت البلاد التونسية لأزمة مالية حادة بدأت بميل الباي محمد الصادق إلى بعض المقربين إليه ممن لا خبرة لهم بالشئون الإدارية والسياسية، وكان همهم الوحيد العناية بمصالحهم الشخصية، وسعوا بين الباي وبين محبي الإصلاح والقادرين عليه.. حتى انتفت الثقة بين الحاكم والمحكومين واهتم الوزير بجمع الثروة.. واتبع غيره من موظفي الدولة هذه الطريقة لتأمين أنفسهم بثروات تقيهم تقلبات الزمن.. فامتدت الأيدي إلى الأموال بغير حق، حتى أصبحت البلاد على شفا الإفلاس والهلاك.. وأراد الباي تدارك الأزمة المالية فضاعف الضرائب.. وقد ترتب على ذلك أن تجمعت القبائل وأشهرت السلاح بقيادة علي بن غذاهم من قبيلة ماجر. ولما فشلت الحكومة في مقاومتهم بالقوة، اضطرت إلى إلغاء تلك الزيادة في الضرائب.. واضطرت الحكومة إلى الالتجاء للاقتراض من الأجانب. وعندما أعلنت البلاد التونسية عجزها المالي تم تشكيل لجنة مالية مختلطة من الأجانب والتونسيين تشرف على ميزانية الدولة.

وعندما تقلد خير الدين منصب الوزير سنة ١٨٧٣م أنشأ مجلسا مختلطا للتقاضي بين الأهالي والأجانب في المسائل المالية، وشرع في توحيد الأحكام في البلاد، وأنشأ مجلسا صحيا لمراقبة الأمراض الوبائية، وأصدر قانونا لتنظيم الزراعة وتشجيع السكان على زراعة الزيتون والنخيل بتوزيع الأراضي على صغار الفلاحين وفرض عليهم ضريبة سنوية بسيطة جدا مساعدة لهم.. كما أنشأ المدرسة الصادقية سنة ١٨٧٦م لتدريس العلوم العصرية بها، ونظم برنامجا تعليميا بجامع الزيتونة، ولكنه اضطر إلى الاستقالة من منصبه سنة ١٨٧٧ بسبب المكائد التي دبرها له المقربون من الباي.

ودبرت فرنسا حملة عسكرية على تونس واحتلتها بحجة حماية أموال وحقوق الأجانب وأعلنت حمايتها على البلاد في مايو سنة ١٨٨١ وعينت (المقيم العام) ليمثلها في تونس ويكون الواسطة بين الحكومتين وفي يونيه سنة ١٨٨٣ التزمت الحكومة التونسية جبرا بإجراء الإصلاحات الإدارية والمالية والقانونية حسبما تراه حكومة فرنسا..

وقد أنشأت الحماية الفرنسية مدارس ابتدائية لتعليم اللغة الفرنسية أولا وتاريخ فرنسا وجغرافيتها، ومع تخصيص قسم لحفظ شيء من القرآن.. ثم أنشأت مدرسة ثانوية لأبناء الفرنسيين واليهود وبعض أبناء المدرسة الصادقية للحصول على شهادة البكالوريا والالتحاق بجامعات فرنسا.. وكان هذا بداية النهضة العلمية التونسية واليقظة الوطنية.. وقد أنشأ بعض الأعيان التونسيين المدرسة الخلدونية سنة ١٨٩٦ ثم بعض المدارس الابتدائية عرفت بالقرآنية.. وانتشرت في البلاد تعلن عزم الشعب التونسي على حفظ شخصيته وكيانه الوطني..

وخلال الحرب العالمية الثانية شهدت البلاد التونسية معارك مدمرة بين خمسة جيوش تمثل أكبر قوتين في العالم.. انجلترا وفرنسا وأمريكا من ناحية، وألمانيا وإيطاليا من ناحية أخرى.. وقد قاسى التونسيون كثيرا من آلام الجوع والتشرد وتخريب وهدم منازلهم ومحلاتهم وحرق زراعاتهم كما تعرضوا لاعتداءات الجنود من مختلف الجنسيات..

وفي ٧ مايو سنة ١٩٤٣ طرد من البلاد التونسية آخر جندي للمحور (ألمانيا وإيطاليا) وبدأت فرنسا تكشف عن أنيابها التي كانت ألمانيا قد اقتلعتها في بداية الحرب.. فامتلأت السجون والمعتقلات بالتونسيين.. وكانت قد ألقت القبض على زعماء الحركة الوطنية سنة ١٩٣٨.. وسيق الكثيرون إلى ساحات الإعدام الجماعي.. واستطاع الحبيب بورقيبة الاختفاء والهرب إلى مصر. وعاد

إلى تونس ليلقي القبض عليه في ١٨ يناير سنة ١٩٥٢، وكان ذلك مبعث الشرارة التي أطلقت الثورة المسلحة في البلاد التونسية. واضطرت فرنسا إلى إعلان مبدأ الاستقلال في ٣١ يوليو سنة ١٩٥٤ ثم تقرر الاستقلال الداخلي باتفاقية ٣ يونيه سنة ١٩٥٥.. والاستقلال التام في ٢٠ مارس سنة ١٩٥٦ الذي ناله الشعب التونسي بثمن فادح من أحكام الإعدام والأشغال الشاقة والتعذيب بأساليب مختلفة لانتزاع الاعترافات وهدم المنازل واعتداء الجنود الفرنسيين على الأهالي. (حسن حسني عبد الوهاب، خلاصة تاريخ تونس ص ١٦٩- ٢٣٢).

الفصل التاسع عشر

"وَلَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ"

صَدَقَ اللهُ العَظِيم

يتساءل الكثيرون.. كيف استحسن الفقهاء الإسلاميون التونسيون قانون الأحوال الشخصية التونسي بما ورد فيه من أحكام أهمها المادة ١٨ التي منعت صراحة تعدد الزوجات.. فقد نصت المادة المذكورة على أن..

(١) تعدد الزوجات ممنوع.

(٢) كل من تزوج وهو في حالة الزوجية وقبل فك عصمة –انحلال رابطة– الزواج السابق يعاقب بالسجن لمدة عام وبخطية –غرامة– قدرها مائتان وأربعون ألف فرنك –١٥٠٠ دينار تونسي تقريبا– أو بإحدى العقوبتين ولو أن الزواج الجديد لم يبرم طبق أحكام القانون.

(٣) ويعاقب بنفس العقوبات كل من كان متزوجا على خلاف الصيغ الواردة بالقانون رقم ٣ لسنة ١٩٥٧ المؤرخ في ٤ محرم سنة ١٣٧٧هـ (أول أغسطس ١٩٥٧م)، والمتعلق بتنظيم الحالة المدنية، ويبرم عقد زواج ثان ويستمر على معاشرة زوجته الأولى.

(٤) ويعاقب بنفس العقوبات الزوج الذي يعتمد إبرام عقد زواج مع شخص مستهدف للعقوبات المقررة بالفقرتين السابقتين.

(٥) ولا ينطبق الفصل –المادة/ ٥٣ من القانون الجنائي–على الجرائم المقررة بهذا الفصل..

وقد أضيفت الفقرات الثلاثة الأخيرة بالمرسوم بقانون رقم ١ لسنة ١٩٤٦.

كان تطبيق أحد المذاهب الإسلامية –المالكي أو الحنفي– على حالات التقاضي أمام المحاكم الشرعية التونسية –قبل صدور قانون الأحوال الشخصية– يثير الشكوى من أمرين:

الأول: أن القضاة يعتمدون في أحكامهم على قانون غير مسطور، وبالتالي كانت لهم حرية البحث عن أرجح الأقوال في المذهب، والمتناثرة في الكتب، والتي ترجح كل منها ما لا ترجحه الأخرى.. فاختلفت الأحكام وتضاربت واهتزت العدالة في المجتمع التونسي.. وبدت ضرورة تقنين أحكام الأحوال الشخصية لأنها تؤدي إلى السرعة في التقاضي لوضوح أحكامها، حيث لا تدع مجالا للهروب أو التهرب من تلك الأحكام...

الثاني: أن القضاء بمذهب واحد فقط كشف عن مسائل ليس في الأخذ بحكمها ما يتفق مع العصر، بينما كان في غيره من المذاهب ما يوافق روح العصر أكثر منه. فالشريعة الإسلامية هي مبادؤها وروحها وليست مذهبا معينا أو رأيا معينا لفقيه.. وبدت ضرورة وضع قانون عصري يتماشى مع مبادئ الدين الإسلامي الحنيف، وقد اطلع عليه –قبل إصداره– بعض كبار العلماءواستحسنوه.. والاستحسان –في علم أصول الفقه– أحد مصادر التشريع الإسلامي..

وأخذ القانون التونسي ببعض الآراء التي اختلف حولها الفقهاء ولكنها لم

تخالف حكما جاء به القرآن والسنة.. فقد راعى المشرع التونسي أن يأخذ الأحكام من مختلف مصادر الشريعة الإسلامية دون تقيد بمذهب دون آخر أو برأي طائفة من الفقهاء دون الأخرى.. فالإسلام واسع الصدر ومتنوع المقاصد والأغراض التي توافق جميع طبائع البشر وأوضاعهم وعاداتهم في جميع العصور.. خاصة إذا عرفوا كيف يجتهدون في الانتفاع بأسرارها واستخراج ما فيها من كنوز.. وكيف يحسنون التصرف فيها تصرف المسلم الغيور والمتحرر من جميع قيود الجمود والركود والتقليد.. لأن جوهر الإسلام لا يتصادم مع حقائق الحياة، وإنما ينتج التصادم من المحاولات الرجعية لاستغلال الدين ضد طبيعته وروحه لعرقلة التقدم.. وذلك بافتعال تفسيرات له تتصادم مع حكمته الإلهية السامية..

لقد أباح المجتمع العربي الإسلامي للرجل –طبقا للرأي السائد– أن يتزوج باثنتين أو ثلاث أو أربع، ولا يجوز له –خلافا لبعض المذاهب المتطرفة– أن يتزوج بأكثر من أربع زوجات في وقت واحد..

ولكن الحق في تعدد الزوجات مقيد بقيدين:

الأول: العدالة بين الزوجات.. الواردة بالآية الكريمة.. "فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة"..

الثاني: القدرة على الإنفاق، المفهوم من تذييل الآية الكريمة.. "ذلك أدنى ألا تعولوا".

وقوله تعالى: "ألا تعدلوا" لم يقيد بموضوع معين يجب العدل فيه عند تعدد الزوجات، بل هو مطلق يشمل كل صور الظلم. فمن خاف من ظلم الزوجات –عند تعددهن– أو خاف من ظلم اليتامى الذين في رعايته بأكل أموالهم إلى

أمواله لينفق منها على زوجاته، أو بالانشغال بزوجاته عن رعايتهم، أو خاف من ظلم أولاده من زوجاته المتعددات، أو خاف من ظلم نفسه عندما يكلفها ما لا تطيق في سياسة هؤلاء والوفاء بحقوقهن.. وجب عليه أن يقتصر على زوجة واحدة..

فالاقتصار على الزوجة الواحدة واجب على الرجل لمجرد الخوف من الظلم، حتى لو كان هذا الظلم أمراً مظنونا في وقوعه. فإذا غلب على ظن الرجل أنه لا يستطيع العدل في تعدد الزوجات، وجب عليه أن يقتصر على واحدة، حتى لو كان الأمل ألا يقع فعلا في الظلم عند تعدد الزوجات. (د. عبد الناصر توفيق العطار، قضية تعدد الزوجات ص ٨٩).

والملاحظ –بل والمؤكد– أن الزوجة الثانية تشكل تهديدا جديا للأسرة – التي هي النواة الأولى للمجتمع– وتعمل على فتور العلاقات بين الرجل وزوجته الأولى وينشأ عن وجودها صراع ظاهر أو خفي بين الزوجتين مما يؤدي إلى إهمال الأطفال.. وعدم توازنهم عاطفيا وسلوكيا.. وقد يؤدي ذلك أيضا إلى ظهور مشاعر التمرد والعدوانية ضد الأب، مما يزيد من الاضطرابات النفسية والعاطفية عند الأبناء والبنات.

فالزوجة الثانية تجتذب اهتمام الرجل ماديا وعاطفيا، مما يؤثر سلبا على علاقاته بزوجته الأولى وأولاده منها، بحرمانهم من الرعاية الأبوية بالإضافة إلى نقص نصيبهم من سد حاجاتهم المادية..

ويعتبر الأولاد تصرف والدهم قسوة وعدوانية على والدتهم– زوجته الأولى، مما يؤثر على بناتها منه ونضجهن العاطفي بما يؤثر بالتالي سلبا على قدرتهن في إقامة علاقة زوجية سليمة مستقبلا.. كما يؤثر ذلك على الأولاد فينشأ صراع ضد الأب وما يمثله من سلطة قد تدفع بهم إلى الانحراف الذي

يهدد مستقبلهم بشكل جدي.

بالإضافة إلى أن الزوجة الأولى ترى في الزواج الثاني إقلالا من شأنها وفقدانا لاعتبارها لذاتها ولأنوثتها ولمكانتها الاجتماعية.. مما قد يدفعها إلى طريق شائك لإثبات ذاتها وأنوثتها، خاصة وأنها تعتبر علاقة زوجها بامرأة أخرى خيانة لها، ولو اتخذت هذه العلاقات صفة الشرعية..

إذن.. فظاهرة تعدد الزوجات تهدد بناء المجتمع مستقبلا.. وفيها تناقض مع المفاهيم الحضارية والواقع الاجتماعي بعد انتشار أفكار المساواة وتحرر المرأة..

ولا شك أنه إذا قيد حق الرجل في تعدد الزوجات –طبقا للرأي المعمول به– بضرورة توافر شرطي العدالة بين الزوجات والقدرة على الإنفاق عليهن.. وإذا روعي هذان الشرطان الشرعيان، لكان حق الرجل في تعدد الزوجات حقا نظريا لا يمكن ممارسته عملا..

والملاحظ في المجتمع أن الرجال الذين يمارسون تعدد الزوجات هم غالبا ممن لا يتوافر لديهم الشرطان الشرعيان، وبالتالي يتيقن عدم إمكانهم الالتزام بقواعد العدالة بين الزوجات.. كما يلاحظ ازدهار تعدد الزوجات في مجتمع الجهالة، بدليل أنه يقل كثيرا بين المتعلمين وينعدم تماما بين المثقفين.. وأصبح الزواج بواحدة أحد المظاهر الحضارية لبعض المجتمعات العربية، لأنه ينبي عن مدى الوعي الثقافي والاجتماعي لتلك المجتمعات.

ويرى الدكتور البهي الخولي أن الزواج بواحدة هو الأصل في الإسلام وأن التعدد استثناء، ولا يعمل بالاستثناء إلا عند الضرورة.. وأن تعدد الزوجات لم يشرع توسعة للذواقين والذواقات. (مجلة منبر الإسلام عدد ١١ لسنة ٢٢ ص ٥٤ و٥٥).

ويرى فضيلة الشيخ محمد أبو زيد -عن حق- أن الزواج بواحدة هو الأصل في الفطرة، لأن فيه تبادل الحب بين الزوجين وحصر أفكارهما في إصلاح أولادهما وتعاونهما على المشاركة في الحياة. وأما تعدد الزوجات فمفرق للحب، موجد للنزاع بين الزوجات والأولاد، ومقلق لبال الرجال، وباعث على إفساد نظام الأسرة.. وأن الله الذي شرع الأحكام لتنظيم الفطرة يعلم أن المرأة لا تقل عن الرجل غيرة على الزوج وحبا في الانفراد به. (الشيخ محمد أبو زيد، الزواج والطلاق المدني في القرآن ص ٢١).

وقد طالب فضيلة الإمام الشيخ محمد عبده العلماء المسلمين بالنظر في رفع ضرر تعدد الزوجات عن الأمة.. فالدين الإسلامي قد أنزل لمصلحة الناس وخيرهم، وأن من أصوله منع الضرر والضرار.. فإذا ترتب على شيء مفسدة في زمن لم تكن تلحقه فيما قبله، فلا شك في وجوب تغيير الحكم وتطبيقه على الحال الحاضرة، يعني على قاعدة "درء المفاسد مقدم على جلب المصالح".. (تفسير المنار ج ٤ ص ٣٤٦).

يرى البعض أن القرآن الكريم يحرم تعدد الزوجات استنادا إلى الآية الكريمة: "ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم".. فالقرآن الكريم قيد تعدد الزوجات بالعدل بينهن.. وقد بين أن العدل غير مستطاع للرجل بين زوجاته ولو حرص على القيام به أشد الحرص، ومن ثم، إذا كان تعدد الزوجات غير جائز إلا بشرط العدل بين الزوجات، وكان هذا العدل غير مستطاع، فإن تعدد الزوجات يستحيل وقوعه بالصورة الشرعية التي أرادها الإسلام، ومقتضى ذلك تحريم تعدد الزوجات. (د. عبد الناصر توفيق العطار، قضية تعدد الزوجات ص ٩٤).

والواقع أن النص على هذا القيد -العدل بين الزوجات- في الآية الثانية

من سورة النساء "فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة".. قد حرم الزواج بأكثر من واحدة إذا خاف الرجل ألا يعدل بينهن.. ثم جاءت الآية ١٢٨ من نفس السورة تضع قرينة على عدم إمكان العدل بين النساء "ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم".. ومقتضى ذلك أنه لا يجوز للرجل أن يتزوج بأكثر من واحدة إلا إذا ألغى القرينة الثابتة بالآية ١٢٨ وأثبت أنه يستطيع أن يعدل بين النساء.. وهو الأمر الذي لن يستطيعه. (عادل أحمد سركيس، الزواج وتطور المجتمع ص ١٢٩).

إن مراجعتنا للقواعد الخاصة بالعدالة بين الزوجات –في حالة التعدد– تؤكد لنا المعنى السامي الذي قصدت إليه الآية الكريمة "ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم".. فحرمة تعدد الزوجات كانت بنفس الأسلوب الذي حرمت به الخمر..

فالثابت أن الإسلام جعل للزواج حدودا يرعاها كل من الزوجين، ومنع ما كان عليه من فوضى سادت المجتمع العربي قبل الإسلام. لقد كان تعدد الزوجات مباحا قبل نزول القرآن الكريم بغير حد أقصى لعدد الزوجات.. وكان يكفي أن يجري عرف المسلمين على تعدد الزوجات ولا يرد بالقرآن الكريم ولا بالسنة ما ينسخه، حتى يعتبر مباحا في الإسلام.. ولكن القرآن الكريم وضع حدا أقصى لعدد الزوجات.. مثنى وثلاث ورباع– وإن خافوا ألا يعدلوا فواحدة.. وبذلك قد جعله واحدة للرجل إلا إذا كانت به حاجة إلى التعدد مع قدرته على تحقيق العدالة والقدرة على الإنفاق والمعاشرة.. فإنه أبيح له ذلك إلى أربع، أما إذا لم تتحقق هذه القيود، فليس له إلا واحدة. (د. محمد سلام مدكور، تاريخ التشريع الإسلامي ومصادره ص ٣٢).

ويرى الدكتور عبد العزيز العروسي اعتمادا على دراسته لآيات القرآن

الكريم دراسة علمية بعقلية الذين يستعملون قوانين الطبيعة والمنطق الذي لا يخطئ.. ويعتقدون تماما أنها أقرب كثيرا إلى شريعة الله وإلى العقل والمنطق من تلك القوانين والقواعد التي تمارس في غالبية الدول العربية.. وأنها تصحح أوضاعا خاطئة مارسها المسلمون أزمانا طويلة، فألحقت أبلغ الضرر بحياة الأسرة في الأمم الإسلامية، مما جعل المرأة تضج بالشكوى، وأوجدت بالإسلام ثغرات ينفذ منها أعداء هذا الدين الفطري القويم..

إن القرآن الكريم لا يحوي سوى آية واحدة عن تعدد الزوجات وهي جملة شرطية تحتوي شرطاً ثم جزاء الشرط.. ومن البديهي ألا يكون الجزاء إلا بعد استيفاء الشرط، وأن يسقط الجزاء إذا سقط الشرط.. أي أن الجزاء يدور وجوداً وعدما مع الشرط..

والملاحظ أن التشريعات القائمة قد أغفلت الشرط إغفالا تاما وأبقت على الجزاء.. وبذلك تكون هذه التشريعات مخالفة لأحكام القرآن الكريم.. ذلك أن الآية لا تقول: "أحل لكم أن تنكحوا من النساء مثنى وثلاث ورباع".. بل تقول: "وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى، فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع".. أي أن هناك شرطا صريحا لتعدد الزوجات هو.. الخوف من ظلم اليتامى.. يعقبه أمر بالتزوج مثنى وثلاث ورباع، إذ يقول "فأنكحوا...".

فمن هم اليتامى الذين يخشى أن يقع الظلم عليهم فيأمرنا الله تعالى أمرا بتعدد الزوجات في هذه الحالة؟!..

إن الإسلام دين الفطرة الذي يتمشى مع منطق العقل وطبيعة الإنسان، وليس فيه تناقضات.. ومن الأحكام الأساسية في الإسلام، العدل وتحريم الزنا بكافة صوره.. وهذا يقتضي أن يتزوج كل رجل وامرأة.. فإذا وزعنا النساء على

الرجال في زمن السلم، فإن كل رجل لا ينال سوى زوجة واحدة.. لأن عدد النساء يكون مساويا لعدد الرجال، كما هو ثابت بالإحصاءات وعلى ذلك فلا يكون الزواج إلا بواحدة.. وهو الوضع الطبيعي..

فإذا سمحنا لفئة من الرجال بالتزوج بأكثر من واحدة فإنه يتبقى عدد من الرجال بدون زوجات.. وبهذا نوقع بهم الظلم ونؤدي بهم إلى الزنا، وهو ما قد حرمه الله تعالى.. أما عقب الحروب واستشهاد كثير من الرجال، فإن عدد النساء يزيد على عدد الرجال زيادة ملحوظة، ويكون هناك عدد من الأرامل ومن الفتيات لا يجدن رجالا يتزوجوهن.. فلو تركن وشأنهن، يكون قد وقع عليهن ظلم.. لأن المرأة خلقت لتكون أما.. وحرمانها من الزواج هو حرمانها من وظيفتها الأولى.. كما أن هذا يؤدي إلى الفساد الاجتماعي وهو ما لا يرضى عنه الدين.. لذلك أمر الله تعالى القادرين من الرجال أن يتزوجوا من هؤلاء الزائدات عن العدد، حتى لا يشعرن بالظلم، وحتى يحمي المجتمع من الفساد.

وعلى ذلك فالقرآن الكريم يقضي بأن يتزوج الرجل عادة بامرأة واحدة.. أما عقب الحرب فيؤمر القادرون من الرجال بالزواج بأكثر من واحدة.. وهذا الزواج ليس للمتعة وإنما واجب إنساني لأداء خدمة اجتماعية.. وهو حل اضطراري لظروف استثنائية، وليس حقا مباحا لكل رجل في كل وقت وفي كل الظروف.

لقد أدخل قانون الأحوال الشخصية التونسي تغييرا أساسيا على بعض الأوضاع والعادات التي لم تعد مسايرة للعصر الحاضر.. فإذا كان الثابت أن الإسلام يساوي بين الرجل والمرأة، فمقتضى هذه المساواة -بداهة- ألا يباح لأحدهما ما قد يحرم على الآخر.. بمعنى أنه إذا كان لا يباح للمرأة غير الزواج برجل واحد، ويحرم عليها الزواج بغيره، وجب ألا يباح للرجل غير الزواج بامرأة

واحدة ويحرم عليه الزواج بأخرى.

وقانون الأحوال الشخصية التونسي في منعه تعدد الزوجات لم يضع قاعدة غريبة عن المجتمع التونسي –وعن كثير من المجتمعات العربية والإسلامية– الذي أخذ، منذ عام ١٣٢هـ (سنة ٧٥٠م) بنظام الزواج القيرواني، حيث يلتزم الزوج في عقد الزواج، بموافقته ورضاه، بعدم الزواج عليها بامرأة ثانية.. ويكون للزوجة الحق في تطليق نفسها إذا خالف الزوج هذا الشرط وتزوج عليها بغيرها..

واستطاع المشرع التونسي أن يضع قانوناً جديداً ينال استحسان العلماء الإسلاميين ويفاخر به المثقفون المسلمون في كل مكان.. ويقول فضيلة الشيخ صبحي محمصاني –من الفقهاء التونسيين– أن مسألة تعدد الزوجات لم تعد مشكلة يمكن للمستشرقين وغيرهم من المفترين. أن يشوهوها، فهي واضحة، وأن الشرع قيدها ونفر منها، ووضع لها شروطا تكاد تكون مستحيلة، ثم أن الفقهاء نبهوا إليها وحذروا منها وقالوا بلزوم الاحتياط من الوقوع في مساوئها وفي أضرارها.

لقد جاء بالمذكرة الإيضاحية المرفقة بمشروع القانون العربي الموحد للأحوال الشخصية أن الزواج في حدود الأربع هو أمر جوازي وليس مطلوبا على سبيل الترغيب وأنه مقيد بقيود ولا يكون إلا بإذن من القاضي.. ولكن المشرع التونسي فضل تدخل الدولة بصفة أساسية بمنع تعدد الزوجات صراحة، اعتبارا لمصلحة المجتمع وحفاظا على الأسرة، دون أن يترك المسألة لتقدير القاضي وإذنه، وجاء نص المادة ١٨ من قانون الأحوال الشخصية التونسي واضحا قاطعا.. أن تعدد الزوجات ممنوع.

الفصل العشرون

الطلاق القضائي

يحمي الأسرة من نزوات الرجل

القضاء إحدى سلطات الدولة الثلاثة:

والنبي (ﷺ) كان رسولا ورجل دولة، وقد أناط الله تعالى به القضاء بين الناس.. "فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما" (سورة النساء آية ٦٥). وقال تعالى: "إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما" (سورة النساء آية ١٠٥).

وجاءت سورة الطلاق، لتنفرد بين جميع سور القرآن الكريم لتوجه التكليف إلى النبي (ﷺ) بصيغة الجمع "يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة واتقوا الله ربكم لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه" (آية ١).

بينما جاءت سورة الأحزاب بصيغة المفرد "يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين". وكذلك سورة التحريم "يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضاة أزواجك والله غفور رحيم".

وصيغة التكليف الواردة بسورة الطلاق تختلف أيضا عن صيغة التكليف

الواردة بسورة النساء وسورة الحج.. "يا أيها الناس" وكذلك عن الصيغة الواردة بسورة المائدة والحجرات والممتحنة "يا أيها الذين آمنوا"..

يقول "علماء التفسير أن كل كلمة وردت بالقرآن الكريم لها معناها ومقصدها.. ومقتضى ذلك أن يكون لصيغة الجمع -الواردة بالآية الأولى من سورة الطلاق- معناها ومقصدها.. وإذا كانت الآيتان ٦٥ و١٠٥ من سورة النساء قد أناطتا بالنبي (ﷺ) أن يحكم بين الناس فيما شجر بينهم بما أراه الله تعالى.. فإن التكليف الوارد بالآية الأولى من سورة الطلاق الصادر إلى النبي (ﷺ) بصفته رجل دولة -من مفهوم صيغة الجمع المخاطب بها- يحدد الأحكام الخاصة بإيقاع الطلاق -"إذا طلقتم النساء"- حتى يقضي بها بين الناس.. ومقتضى ذلك أن الطلاق من اختصاص القضاء، وليس من حق الرجل بإرادته المنفردة إنشاء الطلاق.. خاصة إذا عرفنا أن النبي (ﷺ) لم يكن يباح له تطليق نسائه.

قد تجاوز الرجال الحد في استعمال حق الطلاق إنشاء فكان لزاما مضاعفة الجهد لزيادة عرقلة ذلك الإسراف، ولكن، كيف السبيل إلى الحد من هذه الظاهرة الاجتماعية الخطيرة؟!..

نادى بعض المفكرين بإقرار مبدأ منع الطلاق منعا مطلقا استنادا إلى أنه أبغض الحلال عند الله.. وذهب البعض الآخر إلى جواز الطلاق مع إعطاء القاضي حق معاقبة منشئ الطلاق بحرمانه من الزواج ثانية لمدة معينة أو دائمة.

ولكن المشرع التونسي لم يأخذ بهذه الأفكار المتطرفة. بل أقر حق الطلاق للزوجين استنادا إلى روح الشريعة الإسلامية وخشية من تفشي العلاقات غير المشروعة.. ولكنه اشترط أن لا يقع الطلاق إلا لدى المحكمة.

وفي هذا الإطار اقترح بعض العلماء وفقهاء القانون في تونس حلولا عملية للحد من قضايا الطلاق تتمثل في أنه لا يرخص لأحد الزوجين بإقامة دعوى الطلاق إلا بعد أن يودع بخزينة المحكمة مبلغاً كتأمين –يقدره القاضي بناء على الحالة المادية للزوجين– حتى يمكن للطرف الآخر في الدعوى تنفيذ الحكم النهائي القاضي له بالغرامة من مبلغ التأمين.

وقد أخذت محكمة صفاقس الابتدائية بهذا الرأي وطبقته في السنوات الأولى للسبعينات.

وذهب بعض الفقهاء إلى اعتبار الطلاق غير نافذ المفعول إلا بعد دفع الغرامة المحكوم بها.. فإذا دفعت، أدرج الطلاق في سجلات الحالة المدنية، وإذا لم تدفع تستمر الزوجية قائمة..

ولكن هذا الرأي لا يستقيم منطقا وقانونا.. إذ كيف تبقى الزوجية قائمة بين رجل وامرأة صدر حكم بالطلاق بينهما، ولا يجوز بالتالي وجود أي صورة من العلاقات بينهما؟!..

فالطلاق –طبقا للمادة ٢٩ من قانون الأحوال الشخصية التونسي– هو حل عقد الزواج..

وإذا صدر حكم بات –نهائي– بالطلاق بين الزوجين، انفصمت بينهما علاقة الزوجية، والاتصال الواقع بينهما جنسيا بعد ذلك يعتبر زنا لا يثبت به النسب (محكمة النقض– التعقيب– التونسية في ١٩٧٣/٢/٢٠).

وفي فبراير سنة ١٩٨١ قام المشرع التونسي بوضع قيود قانونية جديدة للمقدمين على الطلاق حتى يراجعوا مواقفهم بروية وتعقل، بإجراء تعديل المواد ٣١، ٣٢، ٥٣ من قانون الأحوال الشخصية، وذلك بإنشاء نظام الجراية مدى

الحياة للمرأة المطلقة، لتعويض الضرر المادي الحاصل لها من جراء الطلاق إنشاء من الزوج أو لضرر منه.. ويبدأ ميعاد استحقاقها من اليوم التالي لانقضاء العدة والنفقة..

وقد سبق لمحكمة النقض –التعقيب– التونسية أن تصدت لظاهرة تلاعب الرجال بأحكام الطلاق للإضرار بالزوجات.. فقررت أن الطلاق الذي يوقعه الزوج في مغيب الزوجة لا يعول عليه إذا لم يتم إعلامها به.. وجاء قانون الأحوال الشخصية ليحسم الأمر في المادة ٣٠ بأن الطلاق لا يقع إلا أمام المحكمة..

ونصت المادة ٣١ من القانون على أن يحكم بالطلاق:

١. بتراضي الزوجين.

٢. بناء على طلب أحد الزوجين بسبب ما حصل له من ضرر.

٣. بناء على رغبة الزوج إنشاء –إيقاع– الطلاق، أو مطالبة الزوجة به.

وبذلك لم يعد باستطاعة الزوج أن يطرد المرأة من بيت الزوجية بصفة تعسفية وبمحض إرادته المنفردة.. مصداقا لقوله تعالى: "واتقوا الله ربكم لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة".

ونظراً لأن الطلاق أبغض الحلال إلى الله. فقد جاءت الآية الكريمة "وإن خفتم شقاقا بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما. من أهلها إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما".. تضع قاعدة هامة يجب الالتزام بها بمجرد الخوف من وقوع شقاق بين الزوجين، هي محاولة التوفيق بينهما وإعادة الطمأنينة والاستقرار لحياتهما الزوجية..

وعلى ذلك نصت المادة ٣٢ من قانون الأحوال الشخصية التونسي – المعدلة بالقانون رقم ٤١ لسنة ١٩٦٢– على أن "لا يحكم بالطلاق إلا بعد أن يجري رئيس المحكمة –أو من ينوبه– محاولة صلح بين الزوجين ويعجز عن الإصلاح بينهما.. وعلى الرئيس عند عدم الوصول إلى الصلح أن يتخذ، ولو بدون طلب، جميع الوسائل المتأكدة –اللازمة– الخاصة بسكنى الزوجين والنفقة والحضانة وزيارة المحضون، إلا إذا اتفق الطرفان صراحة على تركها كلها أو بعضها..

فالغاية من محاولة الصلح في دعوى الطلاق وتكليف القاضي بها هو التدخل بين الزوجين المتنازعين لمحاولة إصلاح ذات البين بينهما باستخدام خبرته والاستعانة بمكانته عندهما للتغلب على نزوات الغضب والفرقة العابرة. وقد تثمر هذه المحاولة نتائجها ويتم الصلح بينهما، وقد يستفحل الخلاف وتبوء المحاولة بالفشل. وليس للمحكمة تجنب المحاولة، بل لابد من إتمامها وتسجيل الفشل عند الاقتضاء بعد أن يستشف القاضي كوامن الطرفين. ومتى ثبت للمحكمة تعذر الإصلاح بين الزوجين، لا تلتزم بمعاودة السعي إلى الصلح لأن تقييم جدوى ذلك من اختصاصها وحدها كمحكمة الموضوع.

فمحاولة الصلح التي يجريها القاضي بين الزوجين المتخاصمين قبل إيقاع الطلاق بينهما، تهدف إلى إعادة الوئام بينهما. وتبقى إرادة محاولة الصلح إمكانية اختيارية موكولة لاجتهاد القاضي، يقررها حسبما يتراءى له من جدوى يستشفها مما يحيط بالقضية من ظروف وملابسات.. ويكفي –قبل إيقاع الطلاق– أن تجري محاولة صلح مرة واحدة..

وإذا طلب أحد الخصمين أمام محكمة الاستئناف إعادة محاولة الصلح، فللمحكمة القبول أو الرفض بشرط ضرورة التعليل –التسبيب– عند الرفض..

وإذا لم يحضر طالب الطلاق جلسة الصلح، رفضت دعواه بالطلاق، وليس له أن ينيب عنه محاميا في هذا الأمر، لأن الصلح يتعلق بذات الزوجين وغير قابل للنيابة أو الوكالة.. فلابد من أن يشهدها الطرفان نفساهما، خاصة رافع الدعوى المطالب بالطلاق.

وفي حالة اتفاق الزوجين أمام قاضي الصلح –في جلسة المصالحة– على الطلاق بينهما بالتراضي، فلا يجوز لأحدهما الرجوع في ذلك الإقرار الحكمي بدون موافقة الآخر.

وإذا استأنف الزوجان حكم الطلاق استمرت الرابطة الزوجية بينهما.

الفصل الحادي والعشرون

"أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا"

صَدَقَ اللهُ العَظِيم

كان الطلاق في الجاهلية قائما على امتهان النساء المطلقات حتى أنهم كانوا يسلبونهن ما سبق أن أعطوهن من المهر حين الزواج، حتى يمهروا به غيرهن من النساء، وكانت هذه العادة مازالت شائعة في بادية تونس وقراها، دون أن تهتم بها المحاكم الشرعية التي كانت منتشرة في البلاد.. رغم أن القرآن الكريم قد ندد بهذه العادة السيئة صراحة.. "وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وأتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا، وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا"..

واستثنى القرآن الكريم حالة واحدة فقط يجوز فيها للرجل أن يسترد بعض ما قدم لزوجته– وهي حالة ارتكابها جريمة الزنا، فنصت الآية الكريمة.. "ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما أتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة".

كانت المحاكم الشرعية تضع شروطا –تعجز الزوجة تماما عن توافرها– لإثبات الضرر الواقع عليها، والذي يعطيها حق طلب الطلاق شرعا.. فلا ضرر ولا ضرار.. وكانت الزوجة –طالبة الطلاق– تجبر على تعديل موضوع الدعوى من طلب الطلاق للضرر –الذي يستحيل عليها إثباته– إلى طلب الطلاق على مال.. وهو أن تطلب الطلاق لا على أساس الضرر الواقع عليها، ولكن لأنها

لا تميل إلى الزوج حباً، وأنها لا تنكر عليه دينه ولا خلقه!.. وتعرض دفع مقابل مالي لذلك.. فكان الطلاق بالخلع الذي مارسته المحاكم الشرعية التونسية بالإكراه، والضغط على الزوجة باستغلال ظروف تجبرها على القبول، لأنها لم تجد سوى ذلك الحل وسيلة للتخلص من زوج لا يرعى حدود الله..

وكان إلغاء المحاكم الشرعية وإصدار قانون الأحوال الشخصية عام ١٩٥٦، لتستعيد المرأة التونسية ما أعطاها الإسلام من حقوق تأباها عليها الجاهلية.

كان الرجل هو الآمر الناهي، له النفوذ المطلق ماديا على الزوجة وأبنائها، وله وحده حرية الزواج والطلاق.. ولا قيد عليه سوى وازع الضمير.. فأساء استعمال هذه الحقوق وتعسف فيها ليؤكد وضع المرأة المتدني في المجتمع.

وبانتشار التعليم والثقافة والوعي الحضاري في الرأي العام، ظهرت الحركات الفكرية والتنظيمات النسائية المنادية بالمساواة وبانتزاع حق الطلاق من يد الرجل وفرض قيود عليه..

واستجاب المشرع التونسي لهذه النداءات متبنيا الفكرة الإصلاحية الرامية إلى مسايرة الحركات التحررية النسائية وإلى تحقيق المساواة بين الرجل والمرأة على المستوى التشريعي على الأقل.. واهتم –بصفة خاصة– بموضوع الطلاق لما له من آثار سلبية على الأسرة والمجتمع. فوضع قيودا وحواجزا قانونية للحد من ظاهرة الطلاق.. وتقرر أن لا يتم الطلاق إلا لدى المحكمة، وبحكم صادر منها، وما يتطلبه ذلك من إجراءات وآجال ومصروفات.. وأوجب إجراء محاولة صلح بواسطة أحد القضاة لتقريب وجهات النظر وتسوية الخلاف بين الزوجين، وجعل الأحكام الصادرة بالطلاق قابلة للطعن بالاستئناف، وأعطى لمحكمة النقض –التعقيب– حق وقف التنفيذ، طبقا للمادة ١٩٤ من قانون المرافعات

المدنية والتجارية، في مادة الطلاق.. كما ربط إمكانية إنشاء الطلاق من أحد الزوجين –الطلاق بالإرادة المنفردة للرجل أو المرأة في حالة اشتراطها الاحتفاظ بالعصمة في يدها– بتعويض الضرر للطرف الآخر.

وقد بدا أن الحواجز القانونية التي تضمنها قانون الأحوال الشخصية –الصادر سنة ١٩٥٦– لم تكن كافية لكبح جماح طالبي الطلاق، بل أن الإحصاءات الرسمية تؤكد ازدياد مثل هذه القضايا التي أخذت شكلا مزعجا في المجتمع التونسي، بسبب كثرتها والآثار المادية والنفسية المترتبة عليها بالنسبة للزوجة والأبناء.. وقد تبين أن الغرامات المادية المحكوم بها للمطلقة لا تكفي لمجابهة الحاجات الضرورية لها، وخاصة إذا لم تتزوج ثانية ولم تجد من يأخذ بيدها من الأقارب.. إما لفقدانها لهم أو لإعراضهم عنها، فيسوء مصيرها..

كما أظهرت التجربة أن الحاجز المادي المتمثل في دفع الغرامات للزوجة، لم يكن كافيا للحد من طلب الطلاق.. فالمحكوم عليه بالغرامة كثيرا ما يتهرب من أدائها، فيبقى الحكم في شقه القاضي بأداء الغرامات بدون أثر فعلي.. وتبقى المرأة المطلقة في وضع بائس.. بالإضافة إلى أن طلب الطلاق إنشاء من الزوج أو مطالبة الزوجة به –تنفيذا لشرط الاحتفاظ بالعصمة– إنما هو ناشئ عن إرادة منفردة صادرة عن أحد الزوجين ونافذة الأثر وجوبا بحكم القانون، لذلك لا يحق للطرف الآخر التصدي لها، كما أن المحكمة –عند فشل محاولة الصلح– لا تملك السلطة في تقرير وجاهة الطلب من عدمها.. وليس أمامها إلا الحكم بالطلاق طبقا لرغبة أحد الزوجين..

وقد صدر في مصر القانون رقم ١ لسنة ٢٠٠٠ بتاريخ ٢٩ يناير، الذي نص في مادته العشرين على أن... "للزوجين أن يتراضيا فيما بينهما على الخلع، فإن لم يتراضيا عليه، أقامت الزوجة دعواها بطلبه وافتدت نفسها، وخالعت

زوجها بالتنازل عن جميع حقوقها المالية والشرعية، وردت عليه الصداق الذي أعطاه إياها، حكمت بتطليقها عليه..".

والخلع هو حل رابطة الزوجية بلفظ الخلع –وما في معناه– مقابل عوض تلتزم به الزوجية. وهو مشروع بالنص عليه في القرآن الكريم بالآية **٢٢٩** من سورة البقرة "فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به".. وبما ورد عن أم جميلة وزوجها ثابت بن قيس والحديث الشريف.." اقبل الحديقة وطلقها تطليقة.." بعد أن سألها النبي (ﷺ) "هل تردين عليه حديقته؟".

ولعلنا نلاحظ الآتي:

أولا: أنه لم يرد ذكر أو إشارة للمهر والصداق. سواء في النص القرآني.. "ما افتدت به"، أو في الحديث الشريف.. "ردي عليه حديقته".. وهي من الهدايا غير الهالكة.. ولم يطلب منها التنازل عن حقوقها الشرعية.

ثانيا: أن نظام الخلع كان مطبقا في المجتمع العربي الجاهلي قبل الإسلام، ومع ذلك لم يرد لفظ "الخلع" في النص القرآني أو الحديث الشريف.. مما يعني أنه لفظ غير مقبول.. وقد استعمل المجتمع المصري تعبير "الإبراء" وصفا لهذه الحالة..

ثالثا: أن اختلاف الفقهاء في تحديد طبيعة الخلع بأنه طلاق أو فسخ، ليس له محل لوضوح ذلك في الحديث الشريف..

بأنه طلاق وليس فسخاً.. "اقبل الحديقة وطلقها تطليقه..".

رابعا: أنه –ترتيبا على ذلك– لا يجوز إطلاقا رد مقدم الصداق –عاجل المهر– إلا في حالتين:

الأولى: حالة فسخ عقد الزواج.. وليس في حالة الطلاق على مال.. فالفسخ هو.. نقض عقد الزواج لسبب من الأسباب التي توجب حل الرابطة الزوجية. وقد يكون هذا النقض رفعا لعقد الزواج من أساسه، فيعتبر عقد الزواج كأن لم يكن.. وتعود الحال إلى ما كانت عليه. ولذلك يرد مقدم الصداق –عاجل المهر– وكذلك جميع الهدايا غير الهالكة.

الثانية: حالة إتيان الزوجة بفاحشة مبينة طبقا للآية الكريمة.. "ولا يعضلوهن لتذهبوا ببعض ما أتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة..".

ورد مقدم الصداق في غير هاتين الحالتين يتعارض صراحة مع الآية الكريمة التي تحرم استرداد الرجل لما دفعه من مهر.. "أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا".. وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا". (صدق الله العظيم).

ونحن نرى ضرورة تعديل المادة العشرين من القانون رقم ١ لسنة ٢٠٠٠ على النحو التالي.. "للزوجين أن يتراضيا فيما بينهما على الطلاق بالإبراء، فإن لم يتراضيا عليه، وأقامت الزوجة دعواها بطلبه وافتدت نفسها، وأبرأت زوجها بالتنازل عن حقوقها الشرعية في النفقة ومؤخر الصداق وردت عليه الهدايا غير الهالكة التي أعطاها إياها، حكمت بتطليقها عليه..

ولا تحكم المحكمة بالتطليق للإبراء إلا بعد محاولة الصلح بين الزوجين...".

الفصل الثاني والعشرون

صندوق مالي لضمان سداد النفقة الزوجية

توجب المادة ٢٣ من قانون الأحوال الشخصية التونسي على الزوج أن يعامل زوجته بالمعروف وأن يحسن عشرتها ويتجنب إلحاق الضرر بها وأن ينفق عليها وعلى أولاده منها على قدر حاله وحالها، في عامة الشئون المشمولة في حقيقة النفقة.. وأن تساهم الزوجة في الإنفاق على العائلة إن كان لها مال.. وأن على الزوجة أن ترعى زوجها باعتباره رئيس العائلة وأن تطيعه فيما يأمرها به في هذه الحقوق. وأن تقوم بواجباتها الزوجية حسبما يقتضيه العرف والعادة..

فعقد الزواج وإن كان مصدرا للحقوق، فهو أيضا منشئ للواجبات، فلهن مثل الذي عليهن بالمعروف.

والمساكنة من أهم واجبات الزوجية باعتبارها تمثل الغرض الأساسي المطلوب من عقد الزواج، وهي تشكل بالتالي المصدر الذي ينطلق منه ما يتبادله الطرفان من حقوق وواجبات.. وترتيبا على ذلك، فإن الإخلال –بغيا وتعسفا– بواجب المساكنة يعرض صاحبه لأحكام المادة ٢٦١ من قانون الالتزامات والعقود– القانون المدني التونسي.

وتقضي المادة ٣٧ من قانون الأحوال الشخصية التونسي بأن أسباب النفقة هي الزوجية والقرابة والإلزام..

وتنص المادة ٣٨ من نفس القانون على أنه يجب على الزوج أن ينفق على

زوجته المدخول بها، وعلى مفارقته -مطلقته- مدة عدتها..

ويستفاد من هاتين المادتين ٣٧، ٣٨ أن نفقة الزوجة المدخول بها يلتزم بها الزوج مهما كانت حالتها المادية، وأن تلك النفقة لا تسقط عن الزوج إلا إذا أخلت الزوجة بواجباتها الزوجية..

والنفقة الزوجية تشمل المأكل والملبس والمسكن وغيرها من الضروريات وتقديرها موكول لاجتهاد محكمة الموضوع حسب حالة الزوج الملتزم بالإنفاق وحال الوقت ومستوى الأسعار.. وقد نصت المادة ٥٠ من القانون على أن تشمل النفقة الطعام والكسوة والمسكن والتعليم وما يعتبر من الضروريات في العرف والعادة. كما تنص المادة ٥٢ على أن تقدر النفقة بقدر وسع المنفق -الزوج- وحال المنفق عليه -الزوجة- وحال الوقت والأسعار..

ولا يعد تجاوزا من المحكمة التي تنظر أصل النزاع بين الزوجين أن تنظر في الموضوعات والمسائل الوقتية -كالنفقة والحضانة وغيرها- ولو بدون طلب من أحد الخصوم.. وعلى المحكمة أن تبين الحالة المادية والأدبية للزوجين توضيحا لعناصر تقدير النفقة وإلا كان حكمها قاصر الأسباب ومعرضا للإلغاء.

وتعتبر الزوجة غير المدخول بها مستحقة للنفقة إذا طلبت من زوجها الدخول بها بواسطة عدل منفذ -قلم المحضرين بالمحكمة- وامتنع الزوج عن ذلك. وتستحق الزوجة النفقة من تاريخ امتناع الزوج عن الاستجابة للبناء -الدخول- بها.. ولكن القاعدة الأصلية في رأي محكمة التعقيب -النقض- التونسية، أن الزوجة لا تستحق النفقة من زوجها إلا بالدخول بها، ولا يجوز الحكم لها بها قبل الدخول.

والنفقة الزوجية واجبة للزوجة وإن كانت تعمل وتتقاضى مرتبا شهريا..

لأن عملها لا يوجب حرمانها من النفقة الواجبة لها على زوجها قانوناً، ولأن ما تكتسبه حق لها لقوله تعالى: "للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن".. وإن كان ذلك قد يوجب عليها المساهمة في الإنفاق على الأسرة حسبما يقتضيه حكم المادة ٢٣ من القانون..

فنفقة الزوجة واجبة على الزوج لزوجته العاملة مادامت غير ناشز ولم تخل بواجبات الزوجية.. ويعتبر امتناع الزوجة عن مساكنة زوجها متعللة بقيامها بالعمل –في رأي محكمة التعقيب التونسية– إخلالا بواجباتها الزوجية المفروضة عليها بالمادة ٢٣ من قانون الأحوال الشخصية (حكمها الصادر في ١٩٨٠/١/٨)..

ولا يلزم الزوج بالنفقة إذا أعسر، إلا أن القاضي يؤجل له شهرين.. فإن عجز بعد إتمامهما عن الإنفاق، طلقت عليه زوجته.. وإذا كانت الزوجة تعلم بحالة إعسار الزوج حين العقد، فلا حق لها في طلب الطلاق.. (المادة ٣٩)..

وفي حالة غياب الزوج عن زوجته ولم يكن له مال، ولم يترك لها نفقة، ولم يقم أحد بالإنفاق عليها حال غيابه.. ضرب له الحاكم أجلا مدة شهر عسى أن يظهر، ثم طلق عليه بعد ثبوت ما سلف وحلف المرأة على ذلك (المادة ٤٠).

واستحقاق الزوجة للنفقة معلق على قيامها بواجباتها الزوجية المنصوص عليها في المادة ٢٣، ومتى أخلت الزوجة بتلك الواجبات –كحالة النشوز– سقط حقها في النفقة..

فإذا أخلت المرأة بواجباتها نحو زوجها، فلا حق لها في مطالبته بالإنفاق عليها تطبيقا للقاعدة الأصولية –نسبة إلى علم أصول الفقه– التي تقرر بأنه ليس لأحد أن يتقدم بطلب إجبار المتعاقد الآخر على الوفاء بالتزاماته ما لم

يثبت أنه قد قام من جهته بالوفاء بما عليه لصالح الطرف الآخر..

وقيام العلاقة الزوجية -بتوقيع عقد الزواج- لا توجب الإنفاق إلا مع وجود المساكنة.. فمن الواجب على الزوجة مساكنة زوجها وطاعته لكي يكون لها عليه -في مقابل ذلك- حق النفقة.. ومن لم يوف بالتزامه لا يمكن أن يطالب غيره بالوفاء بالالتزام المقابل.

فمن أهم واجبات الزوجة التي أشارت لها الفقرة الأخيرة في المادة ٢٣ من قانون الأحوال الشخصية التونسي هو مساكنة زوجها بمحل الزوجية الذي يعينه لها وطاعتها له عندما يدعوها لتلك المساكنة، ولا وجه لأن تمتنع عن الاستجابة له..

فإذا امتنعت الزوجة عن المساكنة ولم تثبت بشكل واضح أن سبب امتناعها إنما هو الضرر الذي أصابها سابقا من زوجها في نفس المحل الذي دعاها للسكن به، فإن ذلك الامتناع يعتبر ضررا يلحق بالزوج ويخوله الحق في طلب الطلاق.. طبقا لحكم الفقرة الأولى من المادة ٣١ من نفس القانون. لأنه ليس في الإمكان عمليا إجبار الزوجة على المساكنة.. أي أنه ليس هناك تنفيذ جبري لما يطلق عليه اصطلاح "بيت الطاعة"..

والزوج مطالب بالإنفاق على زوجته المدخول بها، ولو كانت خارج محل الزوجية.. مادام لم يقم بمطالبتها بالمعاشرة أو باعتبارها ناشزا عند امتناعها عن المساكنة..

ويعتبر الدخول حاصلاً بين الزوجين إذا اختلى زوج بزوجته في مكان وأرخى عليه الستائر.. وبعد ذلك تستحق الزوجة النفقة إلى أن يثبت الزوج نشوزها.. فلا يشترط الدخول الفعلي لاستحقاق الزوجة للنفقة.

وإذا أنفقت الزوجة على نفسها بقصد الرجوع على زوجها الغائب فلها مطالبته بذلك (المادة ٤١).

ولا تسقط نفقة الزوجية بمضي المدة (المادة ٤٢) أي أنها تبقى دينا في ذمة الزوج.. وللزوجة حق المطالبة بها قضاء طبقا للإجراءات القانونية العادية للمطالبة المدنية.. إذ ليس للنفقة المطلوبة عن مدة سابقة الصفة المعاشية العاجلة.

ومع ذلك فإن النفقة المتجمدة في ذمة الزوج، وإن كانت تعتبر دينا بالمفهوم العام، إلا أن هذا الدين لا يفقد -رغم ذلك- صفة كونه دينا له صفة معاشية.. ولذلك أطلق عليه المشرع التونسي لفظ "نفقة" وجعله لا يسقط بمضي المدة الطويلة، وخصها بصفة تمتاز بها عن بقية الديون.. مع ما يترتب على الإخلال بالوفاء بها -خلال فترة التزام الزوج بها- من آثار قانونية خاصة، لا تتوافر لغيرها من الديون.. وذلك بقصد تأمين حق مستحقة النفقة من الضياع بمضي المدة، وجعل المدين حريصا على سدادها في وقتها تفاديا من أن تلحق به الآثار القانونية..

فالقانون يلزم الزوج أساسا بالإنفاق على زوجته المدخول بها، والنص على مساهمة الزوجة في الإنفاق على العائلة -إن كان لها مال- لا يعدو أن يكون مساهمة ومساعدة منها.. ولا يفيد ذلك أن تنفق على نفسها وإعفاء الزوج كليا من واجب الإنفاق.. وهو ما قررته محكمة التعقيب -النقض- التونسية في حكمها الصادر في ١٩٨١/٦/٩م.

والأحكام الصادرة بالنفقة قابلة للمراجعة والتعديل، بشرط أن يكون النظر في تعديلها على أساس القواعد القانونية التي ارتكزت عليها.. وعلى ذلك لا يكون هناك مبرر لتعديل النفقة إذا كان مبناها هو الاتفاق بين الزوجين.. وكانت

في استطاعة الزوج الملتزم بها..

وتسقط النفقة بزوال سببها.. ويرد إلى المنفق ما أجبر على دفعه بدون سبب (المادة ٥١).

وقد أنشأ القانون التونسي حماية لحق النفقة، فجعل عدم دفع النفقة بعد مضي أجل معين من الحكم بها جريمة كان يطلق عليها اسم "جريمة إهمال عيال" –أي إهمال زوجة وأولاد– قبل صدور القانون رقم ٧ لسنة ١٩٨١. فكانت أركان هذه الجريمة تتوافر إذا بقى عمداً –المحكوم عليه بأداء النفقة– أكثر من ثلاثة أشهر دون أن يؤدي إلى مستحق النفقة ما تجمد بذمته.. ولا يعفيه من العقاب قيامه بالسداد إذا ما أقيمت الدعوى الجنائية ضده من أجل هذه الجريمة.. فكانت جريمة "إهمال عيال" جريمة عمدية.. فإذا اختل ركن القصد الجنائي –العمد– منها، انتفت الجريمة..

ومنعا لتحايل الرجل على قيمة النفقة التي تقضي بها المحكمة لصالح الزوجة، بالإيعاز بإقامة دعاوى نفقة من أمه وأقاربه لمشاركة الزوجة في القدر المتاح طبقا لحكم المادة ٥٢ من قانون الأحوال الشخصية.. بأن تقدر النفقة بقدر وسع المنفق وحال المنفق عليه وحال الوقت والأسعار.

فقد نصت المادة ٥٣ من القانون على أنه إذا تعدد المستحقون للنفقة ولم يستطع المنفق القيام بالإنفاق عليهم جميعا، قدمت الزوجة على الأولاد، والأولاد الصغار على الأصول.

وصدر القانون رقم ٧ لسنة ١٩٨١ بإضافة أهم أحكام ذلك الأمر الصادر في ٢٢ مايو سنة ١٩٦٦ إلى قانون الأحوال الشخصية بإضافة المادة ٥٣ مكرر التي تقضي بأن كل من حكم عليه بنفقة –أو بالجراية– المعاش

الشهري –المنصوص عليه بالمادتين ٣١، ٣٢ من القانون– فقضى عمدا شهرا بدون دفع ما حكم عليه بأدائه، يعاقب بالسجن مدة تتراوح بين الثلاثة أشهر والعام وبغرامة من مائة دينار –العملة التونسية– إلى ألف دينار.

فكان تعديل القانون بإضافة المادة ٥٣ مكرر يتضمن عدة أمور هامة..

١. تم إلغاء تسمية جريمة الامتناع عن دفع النفقة في موعدها بجريمة "إهمال عيال لشمولها حالة ما بعد الطلاق" (الجراية).

٢. جعل الجريمة تتم بانقضاء شهر واحد –وليس ثلاثة أشهر– دون دفع ما حكم عليه بأدائه من نفقة– أو جراية.. وذلك بقصد حماية وصيانة مستحقي النفقة –وأغلبهم من الصغار أو العاجزين عن العمل– من مماطلة الملتزم بالنفقة باعتبارها أمرا حيويا لا يستطيع المحتاج إليها أن يعيش حياة كريمة إذا لم تدفع في موعدها.. والأمر كذلك بالنسبة للجراية – المعاش– مدى الحياة..

ولا شك في وضوح الاعتبارات الاجتماعية التي يهدف إليها حكم المادة ٥٣ مكرر في قانون الأحوال الشخصية التونسي.. فقد قطع الطريق على تجار الرقيق الأبيض الذين يستغلون فقر هذه الفئة من النساء، وعلى تجار المخدرات الذين يستعينون بالأولاد والبنات ممن تخلى عنهم آباؤهم –وماطلوا في دفع النفقة المستحقة لهم– في توزيع المخدرات.

ونظرا لأن بعض الرجال المحكوم عليهم بالنفقة لصالح زوجاتهم وأولادهم يستطيعون التهرب من التزاماتهم بحجة العجز عن السداد، أو بالتحايل نكاية في الزوجة، أو بالسفر إلى خارج البلاد.. فقد تقرر إنشاء صندوق ضمان تسديد –سداد– النفقة والجراية مدى الحياة، بعد أن تبين بوضوح أن مجرد صدور

الحكم لصالح الزوجة بالنفقة أو الجراية، لا يكفي لتحقيق وضع اجتماعي مريح لها.. ويقوم هذا الصندوق بسداد النفقة أو الجراية للزوجة والأولاد بمجرد صدور الحكم، على أن يقوم –الصندوق– بمتابعة المحكوم عليهم بالنفقة وتحصيل المحكوم به..

ولعل هذا الصندوق قد سد جميع الثغرات التي قد ينفذ منها أي تحايل على القانون أو الإجراءات.

وهكذا كان قانون الأحوال الشخصية التونسي في خدمة المجتمع ولصالحه.

وقد صدر في مصر القانون رقم ١ لسنة ٢٠٠٠ نص في مادته الواحدة والسبعين على أن... "ينشأ نظام لتأمين الأسرة من بين أهدافه ضمان تنفيذ الأحكام الصادرة بتقرير نفقة الزوجية أو المطلقة أو الأولاد أو الأقارب يتولى الإشراف على تنفيذه بنك ناصر الاجتماعي.. ويصدر بقواعد هذا النظام وإجراءاته وطرق تمويله قرار من وزير العدل بعد موافقة وزير التأمينات..".

وقد كان لي شرف تقديمها الاقتراح عن طريق الزميلة الفاضلة الأستاذة منى ذو الفقار المحامية –بصفتها عضو لجنة تعديل قوانين الأحوال الشخصية– والتي تفضلت بإرساله إلى وزارة العدل في حينه، حسبما أفادت في كتابها إلينا.

الفصل الثالث والعشرون

للقاضي وحده حق تقرير الحضانة لأصلح الأبوين

ينبني القانون التونسي للأحوال الشخصية أساسا على الفقه الإسلامي، بالإضافة إلى ما استمده من التشريعات الحديثة في هذا المجال. ويبدو هذا واضحا من الأحكام المتعلقة بالحضانة، خاصة قبل قانون عام ١٩٦٦م.

والواقع أن الحضانة من أدق الموضوعات القانونية لما لازمها من نظريات متناقضة ووجهات نظر متعددة. ومما يزيد من أهميتها وحساسيتها ذلك التطور الهائل في كثرة حالات الطلاق وما يترتب عليها من تفكك روابط الأسرة وتدهور الترابط العائلي بين أفرادها.. ثم تلك النظرة الحديثة حول تربية الطفل ورعايته في علم النفس الاجتماعي التي تؤكد أن الانطباعات والملامح الرئيسية لشخصية الرجل يكتسبها وهو طفل لم يبلغ السادسة من عمره، وهي التي توجه نموه العقلي والنفسي، وحتى البدني.. ولذلك قال سبجموند فرويد أن "الطفل أب الرجل"..

وقد لوحظ أن الخلاف والتقاضي حول الحضانة لا يكون الغرض منه – غالبا تحقيق مصلحة الأبناء، ولكن الهدف الأساسي الذي يرمي إليه الزوج خاصة هو التنكيل بزوجته– التي تستغرقها عاطفة الأمومة– واتخاذ ذلك وسيلة لتحقيق بعض الأغراض المادية.. مثل الحصول على مقابل لتنازله عن الحضانة،

أو للتهرب من واجب نفقتها، أو من التزامه بتوفير مسكن للحاضنة إذا لم يكن لها مسكن.

لذلك كان لزاما على الدولة أن تقوم بدور هام في موضوع الحضانة، ولو أن هذا الدور يتأخر كثيرا لعدم إمكانية التدخل المباشر في شئون الأسرة أثناء قيامها.. وقبل وقوع الطلاق بين الزوجين..

فالحضانة لا تثير أية مشكلة قانونية طالما كانت الحياة الزوجية قائمة.. لذلك تنص المادة ٥٧ من قانون الأحوال الشخصية التونسي على أن الحضانة من حقوق الوالدين ما دامت الحياة الزوجية مستمرة بينهما.. فلا يمكن للقاضي أن يتدخل إلا إذا انحلت رابطة الزوجية.. وعندئذ يتعين اختيار الشخص الذي تسند إليه الحضانة حماية لمصلحة الصغير..

وقد استقر الفقه الإسلامي على التفرقة بين الحضانة والولاية على النفس.. فالحضانة تتعلق فقط بحماية الطفل من بداية حياته والقيام بشئونه الصحية والمعيشية، دون التربية في معناها الواسع.. بينما الولاية على النفس تتعلق بضمان التربية الحسنة والسلوك القويم والرعاية الكاملة للصغير.. ولذلك كان لصاحب حق الولاية على النفس أن يضم الصغير إليه بعد انتهاء حضانة النساء، على أساس حاجة الصغير لتربية الرجال أكثر من حاجته لعطف النساء.. إذ لم يكن مقبولا –طبقا للعرف والتقاليد السائدة حينذاك– أن يكون للمرأة سلطة على أولادها في مجتمع لا يعترف إلا بالسلطان الكامل للرجل وحده..

وقد كان قانون الأحوال الشخصية التونسي –عند صدوره سنة ١٩٥٦– يأخذ بمبدأ التفرقة بين الحضانة والولاية والولاية على النفس.. فقد كانت المادة ٦٧ من القانون تشير إلى قائمة طويلة من الأشخاص الذين يمكن أن تسند

إليهم حضانة الصغير.. وكانت تلك القائمة مستمدة من المذهب المالكي.. وتقوم فكرتها على أمرين..

الأول: أن النساء أحق بالحضانة لأنهن أكثر حنانا من الرجال..

الثاني: أن أقارب الأم أكثر عطفا على الصغير من أقارب الرجال..

فالحضانة تهدف فحسب إلى تلبية حاجات الصغير المادية ولا تشمل الناحية المعنوية.

لذلك كان المبدأ الذي استقرت عليه محكمة التعقيب –النقض– التونسية، في حكم لها صادر في نهاية عام ١٩٦٥.. أن الحضانة قد شرعت على اعتبار حقين.. أحدهما.. لفائدة الصغير في إقامته عند حاضنته بما تتميز به من عطف الأمومة.. وثانيهما.. لفائدة الولي في الإشراف على تنشئة الصغير.. وعلى هذا الأساس يمنع كل منهما –الحاضنة والولي على النفس– من السفر والاستقرار بمكان بعيد يتعطل معه حق الآخر..

كما استقر فقه القضاء التونسي على نفقة الصغير واجبة على الأب قانونا.. فالولي على النفس هو الذي يتحمل عبء الإنفاق، إن لم يكن للصغير مال خاص به.. أما الحاضنة فلا تساهم إطلاقا في واجب الإنفاق رغم أن المادة ٢٣ من قانون الأحوال الشخصية تنص على أن تساهم الزوجة في الإنفاق على العائلة إذا كان لديها مال..

ولكن التعديلات التي أدخلت على بعض المواد الخاصة بالحضانة سنة ١٩٦٦ ثم سنة ١٩٨١، جعلت الحضانة صورة من صور الولاية على النفس.. إذ نصت المادة ٥٤ من قانون الأحوال الشخصية التونسي على أن الحضانة حفظ الولد في مبيته والقيام بتربيته..

وكانت محكمة الاستئناف بمدينة سوسة قد قررت –في حكم شهير لها في بداية عام **١٩٧٢**– أن المقصود من الحضانة تحقيق أمرين اثنين هامين..

أولهما: حفظ الصغير في مبيته بما يلزم من رعاية وعناية بالفراش وما إلى ذلك، مما يضفي عليه السكينة والاطمئنان.

وثانيهما: تربيته بما توحي به هذه العبارة من إطلاق وشمول كما قررت أن الحضانة تستمر حتى بلوغ الصغير سن **١٨** سنة، استنادا إلى المادة **٩٣** من القانون المدني التي تحدد مسئولية الوالدين عن الضرر الذي يتسبب فيه الصغير قبل سن الثامنة عشر.

والواقع أن هذا الحكم قد قام بإيضاح لفظة غامضة في القانون التونسي، وهي تحديد السن التي تنتهي عندها الحضانة، عندما ربط بين أحكام الحضانة وأحكام المسئولية التقصيرية للوالدين.

وهناك رأيان آخران في تحديد نهاية فترة الحضانة..

أحدهما: يرى ربط انتهاء مدة الحضانة ببلوغ سن الرشد وهو عشرون سنة طبقا للقانون التونسي.

وثانيهما: يرى ربطها بنهاية النفقة ببلوغ الصغير السادسة عشرة من عمره، مع قدرته على التكسب.

وهذا الرأي الثاني يثير بعض المتناقضات في حالة بلوغ الولد سن السادسة عشرة دون القدرة على التكسب.. وكذلك في حالة الفتاة التي تستمر نفقتها إلى أقرب الأجلين.. الدخول بها بعد الزواج، أو الوفاة إذا بقيت بدون زواج..

ولم تعد الحضانة –في رأي القضاء التونسي– حقا بل واجبا يقوم به الحاضن

على أساس التكافل الاجتماعي، وأن أحكام الحضانة تقوم على مبدأين هامين:

الأول: أنها تتعلق بالنظام العام.

والثاني: أن الأصل في الحضانة هي مصلحة الصغير.. وهو ما جرى به العمل في الفقه الإسلامي، وما سبق أن قررته بعض المحاكم التونسية -قبل تعديلات سنة ١٩٦٦- من أن مصلحة الصغير تقدم على كل اعتبار.. وأن هذه المصلحة تشكل أساسا قانونيا يقتضي البحث عمن هو الأصلح للحضانة.. وأن ذلك يترك لتقدير قاضي الموضوع.

ولا شك في اعتبار الحضانة واجب لا حق يقرب الحضانة من الولاية على النفس التي تعتبر واجبا على الولي بصفة إجبارية.. فالمادة ٦٠ من قانون الأحوال الشخصية التونسي تنص على أنه.. للأب وغيره من الأولياء النظر في شأن المحضون وتأديبه وإرساله إلى أماكن التعليم، لكنه لا يبيت إلا عند حاضنته.. كل ذلك ما لم ير الحاكم -القاضي- خلافه لمصلحة المحضون.

إذن.. أساس الحضانة مصلحة الصغير، وتقدير تلك المصلحة مسألة موضوعية تخضع لتقدير القاضي...

ولعلنا نلاحظ أن مفهوم نص المادة ٦٠ من قانون الأحوال الشخصية التونسي أمران:

الأول: أن القاضي يستطيع أن يمكن الصغير من المبيت عند وليه وليس عند حاضنه.. إذا اقتضت مصلحة الصغير ذلك.. وفي هذا جمع بين الحضانة والولاية على النفس..

الثاني: أن القاضي يستطيع أن يمنح الحاضنة -بالإضافة إلى دورها الطبيعي في حضانة الصغير- الإشراف على تأديبه وإرساله إلى أماكن التعليم والنظر في

شأنه.. وفي هذا أيضاً جمع بين الحضانة والولاية على النفس..

ونظرا لأن مصلحة الصغير هي الأصل، وأنها من النظام العام، فإنه لا يجوز الاتفاق على ما لا يحقق هذه المصلحة.. وعلى ذلك استقر فقه القضاء التونسي على إسناد الحضانة –سواء إلى الأم أو الأب أو غيرهما– تأسيسا على مصلحة الصغير.. ولذلك أيضا جرى القضاء التونسي على إسناد الحضانة إلى من يبقى من الزوجين على قيد الحياة بعد وفاة الآخر.. منعا لوقوع أية أضرار مادية أو معنوية. ومع ذلك فإنه يجوز لأحد الأقارب أن يطالب بالحضانة بدلا من الوالد الباقي على قيد الحياة.. وللمحكمة حق تقدير الأصلح لحضانة الصغير.

وإذا امتنعت الحاضنة عن الحضانة، يشترط توافر شروط خاصة بالحاضن أو الحاضنة.. فقد نصت المادة ٥٨ من قانون الأحوال الشخصية التونسي على أنه.. يشترط في مستحق الحضانة أن يكون مكلفا –أي يتوافر فيه التمييز والإدراك– وأمينا قادرا على القيام بشئون الصغير، وسالما من الأمراض المعدية..

فالمطلوب أساسا في الحضانة هو قدرة الحاضن على القيام بشئون الصغير، وتحليه بما يجب من الصفات الأخلاقية والصحية.. وإذا كان مستحق الحضانة ذكراً، يجب أن يكون عنده من يحضن من النساء للاعتناء بالصغير والقيام بشئونه.. وأن يكون محرما بالنسبة للأنثى الصغيرة. وعلى ذلك يكون الحاضن بالنسبة للأنثى الصغيرة والدها أو عمها أو خالها.. لأنه يشترط قيام موجب التحريم قبل انعقاد الزواج.

وإذا كان مستحق الحضانة أنثى، فيشترط أن تكون خالية من زوج دخل بها، ما لم ير القاضي خلاف ذلك اعتبارا لمصلحة الصغيرة.. أو إذا كان الزوج

محرما للصغيرة أو وليا لها، أو يسكت من له الحضانة مدى عام بعد علمه بالدخول ولم يطلب حقه فيها –أي أن سكوت مستحق الحضانة عن المطالبة بنقل حضانة الصغيرة إليه، لزواج الحاضنة بغير محرم للمحضونة –مدة عام بعد علمه بدخول الزوج الثاني بها، يسقط حقه في الحضانة.. كما يراعي القاضي إذا ما كانت الأنثى الحاضنة مرضعا للصغير، أو كانت أما وولية عليه في نفس الوقت..

ولكن هل يشترط اتحاد الدين بين الحاضنة ووالد الصغير..؟ لقد أجابت المادة ٥٩ من قانون الأحوال الشخصية التونسي على هذا التساؤل بقولها.. أنه إذا كانت مستحقة الحضانة من غير دين أب الصغير، فلا تصح حضانتها إلا إذا لم يتم الصغير الخامسة من عمره، وكان لا يخشى عليه أن يألف غير دين أبيه.. ولكن لا تنطبق أحكام هذه المادة على الأم إن كانت هي الحاضنة.. أي أن القاضي يبقى دائما مقيدا بمصلحة الصغير دون غيرها عند إسناد الحضانة..

وقد رفضت محكمة التعقيب –النقض– التونسية سنة ١٩٨٢ تنفيذ حكم صادر بالخارج بطلاق امرأة أجنبية من زوجها التونسي العربي المسلم وبإسناد حضانة الصغير إليها، وهو يعيش مع والده بتونس– لتعارض ذلك الحكم مع قواعد النظام العام في تونس التي منها العروبة والإسلام اللذان هما من مقومات السيادة التونسية طبقا لأحكام الدستور.

وإذا كانت مصلحة الصغير تراعى عند إسناد الحضانة إلى أحد الأبوين أو غيرهما، فهل تراعى أيضا عند إسقاط الحضانة؟

لا شك في ذلك.. خاصة وأن الأحكام الخاصة بالحضانة لا تخضع لقاعدة قوة الشيء المقضي به".. أي أن أحكامها قابلة للمراجعة دائما، وفي أي وقت.. فإذا أسندت الحضانة لشخص ما ثم تبين فيما بعد أن ظروفا جديدة

حدثت ومن شأنها أن تغير من العناصر السابقة التي اتخذت أساسا لإسناد الحضانة، وأن الوضع الجديد يؤثر سلبا على مصلحة الصغير، فإنه يجوز –في هذه الحالة– إقامة دعوى بإسقاط الحضانة.

وكذلك يمكن لمن عهدت إليه الحضانة أن يسقط حقه فيها بالتنازل عنها، ويتولى القاضي في هذه الحالة تكليف غيره بها (المادة ٦٤).

وإذا سافرت الحاضنة سفر نقلة –أي لتغيير مكان الإقامة– مسافة يصعب معها على الولي القيام بواجباته نحو الصغير، سقطت حضانتها (المادة ٦١) وللمحكمة حق الاجتهاد المطلق في تقدير بعد المسافة أو قربها لزيارة الصغير.

ولكن إذا اسقط الولي حقوقه في الحضانة، فمصلحة الصغير تقتضي ملازمته للحاضنة حيثما انتقلت..

ويمنع الأب من إخراج الصغير من بلد أمه إلا برضاها، مادامت حضانتها قائمة، وما لم تقتضي مصلحة الصغير خلاف ذلك (المادة ٦٢).

وقد كانت المادة ٦٧ من قانون الأحوال الشخصية التونسي –قبل تعديلها بالقانون رقم ٤٩ لسنة ١٩٦٦– تعطي الوالد الحق في المطالبة بالحضانة إذا بلغ الصغير الذكر سبع سنوات والأنثى تسع سنوات. وقد ألغى ذلك الحق، وأصبح على القاضي مراعاة مصلحة الصغير عند البت فيمن يعهد إليه بحضانة الصغير. في حالة انفصام رابطة الزوجية وكان الزوجان على قيد الحياة.

وإذا كان الصغير عند أحد الأبوين، لا يمنع الآخر من زيارته وتعهده.. وإذا طلب نقله إليه للزيارة، فتكاليف ذلك عليه. (المادة ٦٦).

وبذلك يتضح أن قانون الأحوال الشخصية التونسي –بعد إجراء

التعديلات الأخيرة ببعض مواده- لا يراعي سوى مصلحة الصغير والصغيرة.. جاعلا للقاضي السلطة التقديرية لتحديد من تسند إليه الحضانة من الأبوين أو الغير.. كما أعطى الأم الحاضنة الوسائل القانونية التي تمكنها من التصرف في شئون أطفالها بصورة أفضل إذا أخل الزوج في القيام بواجب الولاية على الوجه المطلوب.

وقد قررت محكمة التعقيب -النقض- التونسية بتاريخ ٢ فبراير سنة ١٩٨٩ أن الحضانة وإسنادها يراعى فيها مصلحة المحضون تماشيا مع فكرة التشريع والاعتبارات التي شرعت من أجلها الحضانة، ترمي لحفظ ورعايته بما يتوجب -يتطلب- من عناية وما يضفي عليه من السكينة والاطمئنان. واقتضت فقرات المادة ٦٧ من قانون الأحوال الشخصية، أن الحضانة تعهد إلى أحد الأبوين وإلى غيرهما، وعلى الحاكم -القاضي- عند البت في ذلك أن يراعي مصلحة المحضون.

كما قررت أن أسباب الحضانة توجب على المحكمة أن تتأكد من جميع العناصر المادية والأدبية التي تحيط بالدعوى لتقدير حقيقة الصلاحية، حرصا على حماية المحضون، وهو أمر أساسي قانوني ويهم النظام العام.. وهو أيضا مسألة موضوعية يتطلب من القاضي الموضوعي البحث والتحقيق..

الفصل الرابع والعشرون

جريمة قتل في فرنسا تعطى حق الولاية للأم

فوجئت الأم وقد التف حولها أولادها وبناتها السبع بزوجها يضع يده في طيات ثيابه ثم يخرجها بسرعة شاهرا مسدسه نحوهم. ثم يطلق النار عليهم فيودي بحياة البنتين الكبيرتين البالغتين من العمر السادسة عشرة والثانية عشرة.. ويصيب الباقين بجراح مختلفة.. ثم إلقاء القبض على الأب متلبسا بجريمته لحضور الشرطة الفرنسية بسرعة بمجرد استدعائها بمعرفة جيران الأسرة التونسية المهاجرة.

قامت الزوجة بإجراءات دفن ابنتيها. وبعدما التأمت جروحها بقية أولادها. أرادت العودة إلى تونس.. واكتشفت أن ابنتها الصغرى –التي لم تتجاوز العامين– ليس لها جواز سفر.. فاتجهت الأم إلى القنصلية التونسيةللحصول على جواز سفر لابنتها حتى تستطيع العودة إلى وطنها، بعد أن تقطعت بها وبأولادها سبل المعيشة بالقبض على زوجها وإيداعه السجن رهن التحقيق والمحاكمة.

وفوجئت الأم بالقنصلية التونسية ترفض استخراج جواز السفر لابنتها الصغرى لأنها –الأم– لا تملك الحق في طلب ذلك.. وأن الأب هو الذي يتمتع بهذا الحق باعتباره ولياً.. فالأب –طبقاً للقانون– ينفرد بالولاية على أولاده وبناته.. ولا يفقدها إلا إذا مات أو فقد أهليته في حالة صدور حكم عليه بالسجن أكثر من عشرة أعوام.. ولكنه يظل محتفظاً بحق الولاية طوال

الفترة الزمنية بين ارتكابه للجريمة وبين صدور الحكم النهائي ضده..

ولا شك أن موقف القنصلية التونسية كان غريباً وغير مقبول منطقيا وإنسانيا لوجود الأب في السجن لاقترافه جريمتي القتل والجرح عمداً.. ولكنه كان موقفا قانونيا محضا لأن الأب لم يكن قد فقد حق الولاية على ابنته بعد، لعدم صدور حكم نهائي بالعقوبة.

كانت الولاية على الأولاد والبنات تنتقل من الأب –عند وفاته– إلى الرجل الذي يعينه في وصية يتركها، فلا تتولى الأم الولاية على أولادها أو أي حق منها. وفي حالة عدم وجود وصية، كان على الأم أن تلجأ للقضاء لاستصدار حكم يعطيها الحق في تمثيل أولادها في كل –أو بعض– أمورهم المادية..

لذلك كان لابد أن يتم تعديل المادة ١٥٥ من قانون الأحوال الشخصية التونسي –مجلة الأحوال الشخصية– بمقتضى القانون رقم ٧ لسنة ١٩٨١ الصادر في ١٨ فبراير سنة ١٩٨١ لتنص على أنه.. "للأب ثم للأم ثم للوصي الولاية على القاصر أصالة، ولا تبطل إلا بإذن من الحاكم لأسباب شرعية.." كما نصت المادة ١٥٤ –بعد تعديلها أيضا بمقتضى القانون رقم ٧ لسنة ١٩٨١– على أن "القاصر وليه أبوه أو أمه إذا توفى أبوه أو فقد أهليته.. ولا يعمل بوصية الأب إلا بعد وفاة الأم أو فقدانها الأهلية.

ولا شك أن الولاية أساسها مصلحة القاصر وأن هدفها هو حفظ هذه المصلحة. فإذا ثبت أن إبقاء الولاية للولي –أباً كان أو أماً أو وصيا– يتنافى مع مصلحة القاصر، يجب أن يتم إبطال الولاية بحكم من المحكمة طبقاً لنص المادة ١٥٥، السابق الإشارة إليه..

وفي حالة صدور حكم بالطلاق وإسناد الحضانة للأم، كانت الأم الحاضنة

لا تملك حق الولاية على الصغير الذي يبقى من حق أبيه. وينحصر دورها في القيام بما تتطلبه حياة الصغير من رعاية شاملة وكاملة.. ولكنها في الواقع لم تكن قادرة قانونياً على القيام بأبسط الأعمال التي تستوجبها الحضانة كإلحاق الصغير بالمدرسة أو الحصول على وثيقة إدارية كالبطاقة الشخصية أو جواز السفر أو تمثيله أمام القضاء..

وكان الحل الوحيد هو أن ترتبط الحضانة بالولاية وتتبعها، ذلك أنه لا يمكن الفصل بينهما باعتبار أن إحداهما تكمل الأخرى..

لذلك كان قرار ١٣ أغسطس سنة ١٩٩٢ بإشراك المرأة في الإشراف على تصريف شئون الأبناء نظراً لأنها أكثر التصاقا بهم.. والذي منحها صلاحيات تمكنها من ممارسة حق الحضانة بصفة عادلة ومعقولة حسبنا تقتضيه الحياة اليومية.

كما تقرر –بموجب هذا القرار– أن المرأة التي تتزوج قبل بلوغها سن الرشد– وهي عشرون سنة كاملة طبقاً للقانون التونسي– تعتبر بمثابة الراشدة البالغة عشرين عاما– أي أن تكون لها الولاية الكاملة على نفسها..

فالقانون التونسي يحدد السابعة عشرة السن الأدنى لزواج المرأة، أي قبل بلوغها سن الرشد القانوني بثلاث سنوات.. وكانت تظل قاصرة –رغم زواجها– حتى بلوغ سن العشرين.. أي أن القانون كان يقر لها التمتع بالنضج والدراية الكافية لإبرام أهم عقد في حياتها –وهو الزواج– وإنجاب أطفال وتكوين أسرة، وفي نفس الوقت يعتبرها قاصرا وغير قادرة على إدارة شئونها الخاصة، وملزمة بالرجوع إلى وليها –والدها– في حياتها الشخصية وفي جميع معاملاتها..

ولذلك كان قرار ١٣ أغسطس سنة ١٩٩٢ الذي نص على أن "زواج

المرأة قبل سن الترشيد يؤدي إلى ترشيدها" أي اعتبارها في سن الرشد وتأهيلها بمجرد زواجها، بما يجعل منها ربة بيت وراعية لأطفالها على الوجه المطلوب.

وقد أعطى هذا القرار للأم حق الاشتراك في الموافقة على زواج البنت قبل بلوغها سن العشرين.. أي أن ولاية زواج القاصر لم تعد للأب وحده، لأن الأم أكثر التصاقا بابنتها من أبيها.. وأقرب إلى فهمها ومعرفة ميولها.. وبذلك تتضافر تجربة الوالدين لما فيه مصلحة البنت القاصر وضمان مستقبلها بضمان وجود الرضا الكامل.

وقد أتيح أيضاً للأم أن تعطي جنسيتها التونسية لأبنائها مهما كان البلد الذي ولدوا فيه.

فقد كانت المرأة التونسية المتزوجة من أجنبي لا تستطيع أن تمنح جنسيتها لأولادها إلا إذا كان ميلادهم داخل الأراضي التونسية، بينما كان الرجل يستطيع ذلك بغض النظر عن مكان ولادتهم. وكان ذلك يشكل خرقا فادحا لمبدأ المساواة بين الرجل والمرأة كما تنتج عنه مشكلات كبيرة خاصة للأولاد الذين يعيشون في تونس مع أمهم، بعد طلاقها من زوجها الأجنبي وعودتها للحياة في بلدها مع أولادها. الذين يبقون محرومين من الجنسية التونسية ويعاملون كأجانب، لا لسبب إلا أن أمهم قد ولدتهم خارج الأراضي التونسية.

وبذلك تم سد ثغرات قانونية تكشف عند الممارسة الفعلية، كما تم حل الكثير من المشكلات التي تتعرض لها المرأة والأسرة، حماية للمجتمع وتأمينا لاستقراره وازدهاره، وتأكيدا للتوازن المطلوب داخل الأسرة القائم على التكامل بين المرأة والرجل.

الفصل الخامس والعشرون

الجراية مدى الحياة
معاش استثنائي للزوجة

وقد قامت الحكومة الوطنية التونسية بالإصلاحات في شتى المجالات لتنقل تونس إلى مصاف الدول المتقدمة بسرعة هائلة.. فقامت بتوحيد القضاء وتنظيم وترتيب درجات المحاكم، وقد أدمجت جميع المحاكم الطائفية والدينية، ومنها المحكمة الشرعية. ثم أصدرت قانون الأحوال الشخصية في ٣ أغسطس سنة ١٩٥٦، الذي حرر المرأة التونسية، واعتبر حقوقها بالحد من الطلاق ومنع تعدد الزوجات.. المهددين لكيان الأسرة.. لذلك تحتفل تونس بالعيد الوطني للمرأة في شهر أغسطس من كل عام..

ودور الرئيس الراحل الحبيب بورقيبة في هذا الشأن يذكره التونسيون ويعتبرونه نصير المرأة التونسية.. وكانت كلماته التي ارتبطت بإصدار قانون الأحوال الشخصية.. أن المرأة التونسية قد بدأت تنتزع احترامها وتفرض وجودها منذ أن قدمت البرهان على كفاءتها في الحركة الوطنية، وتقبلت بصدر رحب آلام السجون مع الرجل، وعرضت صدرها للرصاص، وماتت في ساحة الشرف.. وأنه قد بادر برفع تلك المظالم عن المرأة بمجرد تسلمه الحكم بوضع القوانين التي ترفع من شأنها وتعتبرها ذات حق.

وقد أكد الرئيس التالي زين العابدين بن علي، على أنه ليس هناك أي مجال لأي تراجع عن الحقوق والمكتسبات للمرأة التونسية.. وبذلك أصبحت

تونس قدوة ومنارا لكثير من الدول العربية بإصدارها هذا القانون الذي جمع بين جوهر ورحابة الإسلام وجوهر وآفاق الحياة المعاصرة..

ولا شك أنه من أهم المبادئ الاجتماعية، ضرورة إجراء التجديد الدائم والمستمر للقوانين.. لمسايرتها للتطورات الفكرية والاجتماعية للفرد والمجتمع، وإلا اختل التفاعل بين الواقع الاجتماعي والقانون المنظم له.. وإذا كانت التعديلات والتنقيحات ضرورة واجبة في المواد القانونية بكل فروعها المختلفة، فإنها أشد إلحاحا وحتمية في قانون الأحوال الشخصية لارتباطه الكبير والوثيق بالأسرة.

كانت الأسرة التونسية في تطور سريع ومستمر –مثلما يحدث في مجتمع البحرين الآن– وقد ترتب على ذلك وجود فراغ قانوني على مستوى المواد القانونية المنظمة لأحكامها.. وقد دفع ذلك بالمشرع التونسي إلى إدخال تعديلات جريئة وثورية بقصد مسايرة تطور الأسرة التونسية الذي يواكب مسيرة التنمية الاقتصادية والاجتماعية في البلاد..

وكان لابد من تطعيم قانون الأحوال الشخصية بمضمون جديد ينظم المعطيات المحدثة على مختلف المستويات، بعد أن أصبحت الأسرة –بحكم احتكاكها الحضاري مع الشرق والغرب– ذات طبيعة متميزة.. فلم يعد الرجل هو صاحب السلطة والنفوذ.. بعد أن أصبحت المرأة مسئولة إلى جانبه بفضل ما تحقق لها من مكاسب أهمها حق التعليم والعمل.. لأي تراجع عن الحقوق والمكتسبات للمرأة التونسية.. وبذلك أصبحت تونس قدوة ومنارا لكثير من الدول العربية بإصدارها هذا القانون الذي جمع بين جوهر ورحابة الإسلام وجوهر وآفاق الحياة المعاصرة..

ولا شك أنه من أهم المبادئ الاجتماعية، ضرورة إجراء التجديد الدائم

والمستمر للقوانين.. لمسايرتها للتطورات الفكرية والاجتماعية للفرد والمجتمع،وإلا اختل التفاعل بين الواقع الاجتماعي والقانون المنظم له.. وإذا كانت التعديلات والتنقيحات ضرورة واجبة في المواد القانونية بكل فروعها المختلفة،فإنها أشد إلحاحاً وحتمية في قانون الأحوال الشخصية لارتباطه الكبير والوثيق بالأسرة.

كانت الأسرة التونسية في تطور سريع ومستمر –مثلما يحدث في مجتمع البحرين الآن– وقد ترتب على ذلك وجود فراغ قانوني على مستوى المواد القانونية المنظمة لأحكامها.. وقد دفع ذلك بالمشرع التونسي إلى إدخال تعديلات جريئة وثورية بقصد مسايرة تطور الأسرة التونسية الذي يواكب مسيرة التنمية الاقتصادية والاجتماعية في البلاد..

وكان لابد من تطعيم قانون الأحوال الشخصية بمضمون جديد ينظم المعطيات المحدثة على مختلف المستويات، بعد أن أصبحت الأسرة –بحكم احتكاكها الحضاري مع الشرق والغرب– ذات طبيعة متميزة.. فلم يعد الرجل هو صاحب السلطة والنفوذ.. بعد أن أصبحت المرأة مسئولة إلى جانبه بفضل ما تحقق لها من مكاسب أهمها حق التعليم والعمل..

وكان من الضروري الحفاظ على كيان الأسرة وحماية حقوق أفرادها، بعد أن أفرزت الأوضاع الاجتماعية الجديدة طبيعة متميزة للعلاقات بين الرجل والمرأة، غيرت وبالتالي المعطيات السائدة..

كان للرجل وحده حق الزواج والطلاق دون قيد سوى وازع الضمير.. فأساء الكثيرون استعمال هذه الحرية وتعسفوا فيها. ولم يكن في القواعد القانونية السائدة ما يكبح جماح أولئك الرجال.. فكثرت حالات الطلاق وأخذت شكلاً مزعجاً في المجتمع، بما يترتب عليها من آثار مادية ونفسية للزوجة والأبناء.

وقد تبين أن التعويضات المادية المحكوم بها للمرأة المطلقة لا تكفي لمواجهة الحاجات الضرورية لها، خاصة إذا لم تتزوج ثانية، ولم تجد من الأقارب من يأخذ بيدها.. إما لفقدانها لهم أو لإعراضهم عنها، فتسوء حالتها..

لذلك لجأ المشرع التونسي إلى نظام جديد يهدف أساساً إلى أمرين..

الأول: وضع قيود قانونية جديدة للمقدمين على الطلاق، حتى يراجعوا أنفسهم بروية وتعقل قبل الإقدام على فصم العلاقة الزوجية.

الثاني: توفير ما اعتادت عليه الزوجة من المعيشة مع زوجها في ظل الرابطة الزوجية، حتى يحول دون وقوعها في أوضاع اجتماعية مزرية تدفعها للانحراف ولتشرد أولادها..

وبذلك شهد الوضع الاجتماعي للمرأة التونسية –طوال العقدين الأخيرين من القرن العشرين– نقلة نوعية شاملة، تحققت بفضل الإرادة السياسية الثابتة لتعزيز مكانتها من خلال تطوير التشريعات التي تحسم حقوقها وتحفظ كرامتها وتصون حريتها، وتؤكد المساواة الكاملة في الحقوق والواجبات بينها وبين الرجل..

وكان من نتائج ذلك تقلص ظاهرة الانقطاع المبكر عن التعليم لدى الفتيات، وارتفاع نسبة الفتيات الحاصلات على شهادات عليا.. ومساهمة المرأة التونسية في الحياة الاقتصادية مساهمة إيجابية.. وإحرازها موقعا متميزاً على الساحة الثقافية..

وفي ١٨ فبراير ١٩٨١ –بعد خمسة وعشرين سنة تقريبا من صدور قانون الأحوال الشخصية سنة ١٩٥٦– أصدر المشرع التونسي القانون رقم ٧ لسنة ١٩٨١ بإدخال بعض التعديلات على المواد ٣١، ٣٢، ٥٣ من قانون

الأحوال الشخصية.. بإنشاء حق النفقة مدى الحياة –الجراية العمرية– للمرأة المطلقة، التي تستحقها بداية من انقضاء فترة العدة والنفقة، وذلك كطريقة اختيارية لتعويض الضرر المادي الذي لحقها من جراء الطلاق الصادر إنشاء من الزوج أو بسبب التضرر منه..

كانت المادة ٣١ من قانون الأحوال الشخصية– قبل تعديلها تنص على أن.. يحكم بالطلاق..

١. بناء على طلب من الزوج أو الزوجة للأسباب المبينة بمواد القانون.

٢. بتراضي الزوجين.

٣. عند رغبة الزوج إنشاء الطلاق أو مطالبة الزوجة به، وفي هذه الصورة يقرر القاضي ما تتمتع به الزوجة من الغرامات المالية بتعويض الضرر الحاصل لها أو ما تدفعه هي للزوج من التعويضات..

وقد تم تعديل المادة ٣١ بموجب القانون رقم ٧ لسنة ١٩٨١ بأن يحكم بالطلاق:

١. بتراضي الزوجين.

٢. بناء على طلب أحد الزوجين بسبب ما حصل له من ضرر.

ويقضي لمن تضرر من الزوجين بتعويض عن الضرر المادي والمعنوي الناجم عن الطلاق في الحالتين المبينتين بالفقرتين الثانية والثالثة أعلاه.

وبالنسبة للمرأة يعوض لها عن الضرر المادي بجراية تدفع لها بعد انقضاء العدة مشاهرة وبالحلول على قدر ما اعتادته من العيش في ظل الحياة الزوجية بما في ذلك المسكن.

وهذه الجراية قابلة للمراجعة ارتفاعاً وانخفاضاً بحسب ما يطرأ من متغيرات وتستمر إلى أن تتوفى المفارقة –المطلقة– يتغير وضعها الاجتماعي بزواج جديد أو بحصولها على ما تكون معه في غنى عن الجراية.

وهذه الجراية تصبح دينا على التركة في حالة وفاة المفارق –الزوج المطلق– وتصفى عندئذ بالتراضي مع الورثة أو عن طريق القضاء بتسديد مبلغها دفعة واحدة يراعى فيها سنها في ذلك التاريخ.

كل ذلك ما لم تخير –تختار– التعويض لها عن الضرر المادي في شكل رأس مال يسدد لها دفعة واحدة. وكان تعديل النص وإضافة فقرات جديدة، يقصد به حماية المرأة المطلقة من الضياع وأفراد الأسرة من التشرد.. فالنص الجديد للمادة ٣١ جاء مرتباً للحالات التي يحكم فيها بالطلاق ترتيباً منطقياً.. فجعل الحالة الأولى تتعلق بالطلاق بالتراضي بين الزوجين الذي لا يترتب عليه أي غرم– تعويض.. والحالة الثانية خاصة بالطلاق بناء على طلب أحد الزوجين بموجب الضرر.. والحالة الثالثة خاصة بالطلاق بناء على رغبة الزوج إنشاء، أو مطالبة الزوجة به.

ونصت المادة بفقرتها الرابعة صراحة على أن الطلاق في الفقرتين الثانية والثالثة موجب للتعويض. وهو توضيح لم يكن وارداً في النص القديم للمادة ٣١، إذ كانت صياغتها موضوعة بشكل يوحي بأن الحكم بالتعويض قاصر على الحالة الثالثة فقط.

وفيما عدا ذلك جاء النص الجديد مؤيدا ومدعماً للنص القديم من حيث الجوهر.. ولكن مع ضبط مقاييس تنير سبيل القاضي، عند تقرير التعويض الذي يستحقه المتضرر من الطلاق.. وهو يهدف إلى زيادة الضبط في معالجة وضع الزوجة والأطفال عند الطلاق، مع المحافظة –في روحه وجوهره– على

مبدأ المساواة بين الرجل والمرأة، بأن خول لكل منهما طلب التعويض الذي يرى أنه يستحقه بسبب ما لحقه من الضرر المعنوي والضرر المادي، طبقاً لما تضمنته الفقرة الرابعة من المادة ٣١ التي تبدأ بالجملة الآتية... "ويقضي لمن تضرر من الزوجين بتعويض عن الضرر المادي والمعنوي...".

وبعد إقرار مبدأ التساوي بين الرجل والمرأة في استحقاق طلب التعويض- طبقاً لما جاء بالفقرة الرابعة، تعرضت الفقرة الخامسة إلى كيفية تحديد التعويض عن الضرر المادي الحاصل للمرأة فقط.. فنصت على أن هذا التعويض يكون في شكل جراية -معاش استثنائي- أو رأس مال، حسب اختيار المرأة المتضررة..

وللقاضي أن يجتهد في إطار هذه الوسيلة لتحديد التعويض الذي تستحقه المرأة المطلقة تعويضا عن الضرر المادي فقط، بغض النظر عن التعويض المستحق عن الضرر المعنوي المنصوص عليه بالفقرة الرابعة والذي يكون في شكل رأس مال ومستقل تماماً عن التعويض المنصوص عليه بالفقرة الخامسة..

وقد دعت إلى توخي هذه الطريقة، ضرورة العناية بالمرأة المستهدفة أكثر من غيرها للحرمان والضياع والتشرد..

وقد أوضح النص أن تحديد الجراية يكون مبنياً على قدر ما اعتادته المرأة من العيش في ظل الحياة الزوجية، بما في ذلك المسكن.. فالقانون يرمي إلى التخفيف من وطأة الطلاق، وعدم حرمان المرأة -على الأقل- من مزايا النفقة بمعناها الشامل -الذي يدخل في مضمونه تمكينها من مسكن- تلك النفقة التي أوجبتها المادة ٢٣ من قانون الأحوال الشخصية مبدئياً على الزوج، وقد أوردت المادة ٥٠ العناصر التي تتكون منها النفقة بما فيها المسكن.

فالجراية صيغة جديدة– أوردها القانون لمصلحة المرأة– للتعويض في مادة الأحوال الشخصية، وأوجبت عند تقديرها أن يدخل المسكن في الاعتبار.. عندما تكون المرأة في حاجة إليه..

والواضح أن تقدير الجراية يتناول كل ما يمكن أن تحتاج إليه المرأة للمحافظة على مستوى المعيشة السابق.. وعلى القاضي –في مفهوم النص– أن يدخل قيمة إيجار المسكن في حساب الجراية التي يعتزم الحكم بها.

ولا تستحق المرأة المطلقة المسكن في جميع الحالات، وإنما تستحقه عندما تكون في حاجة إليه.. حيث يلتزم القاضي –في حالة عدم استحقاقها للمسكن– أن يستخرجه من المعطيات التي بين يديه والتي تثبت له أنه لا ضرر للمرأة من هذه الناحية.. كأن تكون هي نفسها مالكة لمنزل أو عدة منازل. ويراعى في احتساب الجراية، سن الزوجة ومدة العلاقة الزوجية.. فالزوجة الصغيرة التي تطلق بعد فترة قصيرة من الحياة الزوجية، غير الزوجة التي تطلق بعد أن تكون قد قضت جانبا هاماً من عمرها في تدعيم حياة زوجية طويلة.

فلا شك أن وضع المرأة التي تطلق بعد سنتين من زواجها، غير وضع تلك التي تطلق بعد عشرين أو ثلاثين عاما.. فالمستقبل إذا كان مازال مفتوحاً على مصراعيه في وجه الأولى، فإنه –بالنسبة للثانية– مسدود أو يكاد، إلا في القليل من الحالات.. ومن الطبيعي أن يتبع التعويض قدر الضرر وأهميته فيكون نصيب الثانية منه، أوفر من نصيب الأولى..

وبالإضافة إلى تعويض الضرر المعنوي المستحق بموجب الفقرة الرابعة من المادة ٣١، فإن الضرر المادي الذي يلحق بالمرأة.. تعالجه أحكام خاصة.. وعلى هذا الأساس، كانت الجراية عبارة عن تعويض عما فقدته المرأة عند الطلاق من منافع النفقة.. فإذا أجاز القانون –بعد تعديله– للمرأة أن تختار بين

الجراية الشهرية أو المبلغ النقدي الذي تحصل عليه دفعة واحدة- كما جاء به النص القديم. وكان إضافة الجراية لتكون رؤية الضرر الذي يلحق بالمرأة المطلقة أكثر وضوحاً، وتقارب المعايير للحكم بالتعويض تحقيقا للعدالة.. وللقاضي الاجتهاد والتقدير حسبما يراه صالحا، طبقا للحالات المعروضة عليه..

وتبدو أهمية دور القاضي في اختيار المعايير الواجب اعتمادها لتقدير قيمة المبلغ النقدي الواجب دفعه من ورثة الزوج السابق، نظراً لعدم توقف الجراية بوفاته لأنها مقررة للمرأة المطلقة مدى الحياة..

وتقضي المادة ٣٢ من قانون الأحوال الشخصية بأن.. "على الرئيس - المحكمة- عند عدم الوصول إلى الصلح، أن يتخذ ولو بدون طلب جميع الوسائل المتأكدة -المؤكدة- الخاصة بسكنى الزوجين والنفقة والحضانة...".

وتقدر المحكمة النفقة بناء على ما يجتمع لديها من عناصر عند محاولة الصلح، وتصدر قراراً ينفذ بالمسودة، ويكون هذا القرار غير قابل للاستئناف أو النقض، وإن كان قابلا للمراجعة قبل صدور الحكم في أصل الدعوى.

وتحكم المحكمة ابتدائيا في الطلاق وجميع ما يتعلق به، ويحدد بالحكم مبلغ الجراية التي تستحقها الزوجة المطلقة بعد انقضاء العدة عند الاقتضاء..

ويتم تنفيذ أجزاء الحكم المتعلقة بالحضانة والنفقة والجراية والسكنى رغما عن الاستئناف أو النقض.

وقد أضيفت هاتان الفقرتان إلى المادة ٣٢ بموجب القانون رقم ٧ لسنة ١٩٨١، وبذلك خص القانون المرأة بإمكانية استحقاق التعويض عن الضرر المادي في شكل جراية شهرية، باعتبار أن هذه الجراية لها صفة معاشية مثل النفقة.. التي يعطيها القانون حماية خاصة لضمان التنفيذ الفوري للحكم الصادر بها..

ونحن نرى أن المرأة المصرية -في كثير من الحالات- في أشد الحاجة إلى تقرير حقها في النفقة مدى الحياة -حتى الوفاة أو عقد زواج جديد- في حالة الطلاق بعد عشرة زوجية طويلة لا تقل عن خمس عشرة سنة.. بشرط أن لا يكون الطلاق بناء على طلب الزوجة أو لسبب راجع إليها. وتخفض مدة العشرة الزوجية المطلوب توافرها لاستحقاق النفقة مدى الحياة، إلى عشر سنوات، إذا لم يكن للمطلقة مورد مالي..

المراجع

١. د. إبراهيم العدوي، موسى بن نصير، القاهرة ١٩٦٧.

٢. ابن الدباغ، معالم الإيمان جـ ١.

٣. ابن حوقل البغدادي، المسالك والممالك.

٤. أبو السعود الحميدي، الأسرة العربية من خلال إستراتيجية التنمية العربية الشاملة (الأسرة العربية، المنظمة العربية للأسرة) تونس ١٩٩٤.

٥. أبو الفرج الأصفهاني، كتاب النساء.

٦. أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم القرشي المصري، فتوح مصر وأخبارها.

٧. أبو عبد الله مُحَمَّد التجاني التونسي، تحفة العروس.

٨. إحسان حقي، تونس العربية، بيروت ١٩٦١.

٩. إحسان عباس، العرب في صقلية، القاهرة ١٩٥٩.

١٠. أحمد القصاب، تاريخ تونس المعاصر، ١٨٨١– ١٩٥٦. ترجمة حمادي الساحلي، تونس ١٩٨٦.

١١. أحمد توفيق المدني، المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا.

١٢. أحمد صقر، مدينة المغرب العربي في التاريخ، تونس ١٩٥٩.

١٣. البشير سلامة، الشخصية التونسية، تونس ١٩٧٤.

١٤. الجاحظ، المحاسن والأضداد.

١٥. الحسن السائح، الحضارة المغربية عبر التاريخ، الدار البيضاء ١٩٧٥.

١٦. السيد التجاني عبيد، جراية المطلقة في قانون الأحوال الشخصية، تونس ١٩٨٥.

١٧. السيد سابق، فقه السنة– المجلد الثاني القاهرة.

١٨. الصادق الرزقي، الأغاني التونسية.

١٩. الطاهر الحداد، امرأتنا في الشريعة والمجتمع، تونس ١٩٨٥.

٢٠. المالكي، رياض النفوس.
٢١. المقريزي، الخطط المقريزية جـ ٢.
٢٢. اليعقربي، كتاب البلدان.
٢٣. إيريس حبيب المصري، قصة الكنيسة القبطية من سنة ٤٣٥- ٩٤٥م، القاهرة ١٩٦٧.
٢٤. د. توفيق الطويل، قصة الكفاح بين روما وقرطاج.
٢٥. ج. ديبوا، تونس- ترجمة الصادق بازيغ، تونس ١٩٦٩.
٢٦. جميلة بينوس وفاطمة بن بشر الجلولي وجلال عبد الكافي، تونس، تونس ١٩٨٥.
٢٧. د. حسن إبراهيم وآخر، المعز لدين الله الفاطمي مؤسس الدولة الفاطمية في مصر، القاهرة ١٩٦٤.
٢٨. حسن أحمد محمود، الإسلام والثقافة العربية.
٢٩. حسن حسني عبد الوهاب، بساط العقيق في حضارة القيروان وشاعرها ابن رشيق، تونس ١٣٣٠هـ.
٣٠. حسن حسني عبد الوهاب، خلاصة تاريخ تونس من أقدم العصور إلى الزمان الحاضر، تونس ١٩٧٦.
٣١. حسن حسني عبد الوهاب، شهيرات التونسيات، تونس ١٩٦٦.
٣٢. حسن حسني عبد الوهاب/ ورقات عن الحضارة العربية بأفريقية وتونس جـ١، تونس ١٩٦٥.
٣٣. رابح بونار، المغرب العربي تاريخه وثقافته، الجزائر ١٩٨٨.
٣٤. سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي، القاهرة ١٩٦٥.
٣٥. سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي من الفتح إلى بداية عصور الاستقلال، الإسكندرية ١٩٧٩.
٣٦. الشيخ صبحي محمصاني، مقدمة في إحياء علوم الدين، تونس.
٣٧. عادل أحمد سركيس المحامي، الزواج وتطور المجتمع؛ القاهرة ١٩٦٧.
٣٨. عبد الرحمن بن خلدون، العبر، بيروت ١٩٥٩.

٣٩. عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ٧ أجزاء- دار الشعب- القاهرة ١٩٧٠.
٤٠. د. عبد الرحمن ياغي، حياة القيروان، بيروت ١٩٦٢.
٤١. د. عبد الناصر توفيق العطار، قضية تعدد الزوجات.
٤٢. عثمان الكعاك، التقاليد والعادات التونسية، تونس ١٩٨٧.
٤٣. عثمان الكعاك، العلاقات بين تونس وإيران عبر التاريخ، تونس.
٤٤. الشيخ مُحَمَّد أبو زيد، الزواج والطلاق المدني في القرآن.
٤٥. مُحَمَّد الأمين العابد، الرسالة والآفاق (الأسرة العربية، المنظمة العربية للأسرة) تونس ١٩٩٤م.
٤٦. مُحَمَّد البشير الشنيتي، سياسة الرومنة في بلاد المغرب من سقوط الدولة القرطاجية إلى سقوط موريطانيا ١٤٦ ق.م- ٤٠م، الجزائر ١٩٨٢.
٤٧. مُحَمَّد الحبيب الشريف (القاضي)، قوانين الأحوال الشخصية والمدنية في تونس، سوسة ١٩٨٧.
٤٨. مُحَمَّد السيد غلاب، الساحل الفينيقي وظهيره في الجغرافيا والتاريخ، بيروت ١٩٦٩.
٤٩. مُحَمَّد المرزوقي، تقاليد الزواج بالجنوب التونسي، تونس ١٩٧٥.
٥٠. مُحَمَّد المرزوقي، مع البدو في حلهم وترحالهم، تونس ١٩٨٤.
٥١. مُحَمَّد بن عثمان الحشايشي، عادات وتقاليد سكان المدينة، تونس.
٥٢. د. مُحَمَّد سلام مدكور، تاريخ التشريع الإسلامي ومصادره.
٥٣. الإمام الشيخ مُحَمَّد عبده، تفسير المنار ج٤.
٥٤. مُحَمَّد علي دبوز، تاريخ المغرب الكبير ج٢، القاهرة ١٣٨٤هـ..
٥٥. د. مُحَمَّد مُحَمَّد زيتون، القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية، القاهرة ١٩٨٨.
٥٦. مُحَمَّد مزالي، دراسات، تونس ١٩٧٤.
٥٧. اللواء الركن محمود شيت خطاب، المغرب العربي- طبعة ٢، بيروت ١٩٧٣.
٥٨. منيرة الشلبي، الأسرة التونسية تواكب التغيير. (الأسرة العربية، المنظمة العربية للأسرة) تونس ١٩٩٤.

٥٩. منيرة الشلبي، وضع الأسرة في المغرب العربي (الأسرة العربية، المنظمة العربية للأسرة) تونس ١٩٩٤.
٦٠. نزيهة لكحل عياط (المحامية)، المرأة التونسية ومكانتها في القانون الوضعي، تونس ١٩٧٦.
٦١. ول ديورات، قصة الحضارة جـ٢ مجلد ١.
٦٢. التوراة المعروفة ط٢، فينا- النمسا ١٩٣٢.
٦٣. الموسوعة العربية الميسرة.
٦٤. تاريخ الحضارات العام جـ١ الشرق واليونان القديمة.
٦٥. تاريخنا- ليبيا.
٦٦. مجلة القضاء والتشريع، وزارة العدل- تونس.
٦٧. مجلة منبر الإسلام عدد ١١ لسنة ٢٢.
68. Alexander Graham, Travels in Tunisia, London 1987.
69. Henry Smith Williams, The Historians History of the World, London 1904.
70. Tertius Chandler, Godly Kings and Early Ethics, New York 1976.
71. Winifred Holmes, She was Queen of Egypt,
ترجمة سعد أحمد حسين، الهيئة العامة للكتاب ط ١٩٩٧.

الكاتب في سطور

- من مواليد القاهرة ٢٨ يناير سنة ١٩٢٩.
- ليسانس حقوق جامعة القاهرة مايو سنة ١٩٥٣.
- مارس المحاماة الحرة منذ أكتوبر سنو ١٩٥٣.
- عين رئيسًا لقسم الشئون القانونية بالشركة العامة للصوامع (قطاع عام) في أبريل ١٩٦٨ وتدرج في مناصبها حتى وظيفة مدير عام اشئون القانونية,
- عضو إتحاد الكتاب.
- بدأ حياته ادبية عام ١٩٤٨ عندما أصدر –بالإشتراك مع زملائه وأصدقائه– مجموعة قصصية بعنوان "موكب القصة": ثم نشرت له بعض القصص القصيرة في الصحف وفي مجلة "قصتي" التي كان يصدرها الأديب الراحل صبحي الجيار.
- بدأ نشاطه الصحفي في بعض الصحف المصرية والمجلات الجامعية عام ١٩٤٩، وكان سكرتيرًا لتحرير مجلة الرجاء الجامعية سنتي ١٩٥٠ و١٩٥١.

١- أول من قال بنظرية "العقل والجسد" النظرية الثالثة في أصل الحب –إحدى نظريات علم النفس الإجتماعي– في كتابه الأول يوليو ١٩٦٠ "التنظيم الاجتماعي للعلاقات الجنسية" الذي تضمن تعريفًا جديدًا للحب، بأنه.. "رغبة في الجسد يتبادلها رجل وإمرأة، وفكر متجاوب بينهما بحيث يشعر كل منهما بأهمية أفكار الآخر لحيوية أفكاره الخاصة"، معلنًا نظرية "العقل والجسد" النظرية الثالثة في أصل الحب– بعد نظريتي أفلاطون (الرغبة في الإكتمال **The longing for completion**) وسيجموند فرويد (من النرجسية – الأنانية – إلى المودة – الإرتباط **From Narcissism to Attachmeny**).

فالحب هو نتاج عنصرين هامين ورئيسيين هما التجاوب الجنسي والتجاوب العقلي لأننا نحب بكل كياننا، وكل منا مركب من غريزة –جسد– وعقل...

- كما قدم تعريفًا جديدًا للزواج بأنه.. "تنظيم اجتماعي للعلاقات الجنسية بين الرجل والمرأة، يرتب قبلهما إلتزامات متبادلة ومسئوليات اجتماعية".. مؤكدًا المساواة الكاملة بين الرجل والمرأة التي لم تعد محلًا للعقد بل طرفًا فيه...

٢- عرض في كتابه الثاني "الزواج وتطور المجتمع" مشروع قانون أحوال شخصية لجميع الدول العربية كما تضمن هجومًا على نظام بيت الطاعة بأنه مخالف للشريعة والقانون، ترتب عليه صدور قرار وزير العدل الأسبق، الإنسان عصام الدين حسونة بمنع تنفيذ أحكام بيت الطاعة جبرًا عن طريق الشرطة..

٣- عرض في كتابه الثالث "الزواج في المجتمع المصري الحديث" مشروع قانون موحد للأحوال الشخصية لجميع المصريين. بعد مناقشة المشكلات الثلاثة التي تعترض ذلك وهي تعدد الزوجات والطلاق وشكل الزواج، والحلول الملائمة لها...

٤- عرض في كتابه الرابع "الزواج وتطور مجتمع البحرين" الذي يعتبر من أهم الدراسات التي وضعت عن المجتمع البحريني- مشروع قانون موحد للأحوال الشخصية لدولة البحرين، يجمع بين طائفتي السنة والشيعة. لتأكيد معاني الوحدة الوطنية.

٥- عرض في كتابه الخامس "الخيانة هزمت عرابي" للأسباب الستة لفشل الثورة العرابية –كما جاءت في الكتاب المدرسي المقرر لطلبة وطالبات الإعدادية– خمسة منها تتضمن تهجمًا وتجريحًا لشخصية الزعيم أحمد عرابي، والسبب السادس خيانة علي يوسف الشهير بختفس دون أن يذكر الدور الذي قام به، أو غيره من الخونة حتى يبدو عنصر الخيانة ضئيلًا لا يستحق الذكر، وقد أراد أن يوضح حقيقة تاريخية أدركها الشعب المصري.. أن الخيانة وحدها سبب هزيمة أحمد عرابي.

٦- عرض في كتابه السادس "شخصيات بحرينية" للتطور السريع لمجتمع البحرين – سياسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا وثقافيًا- من مجتمع الغوص لصيد اللؤلؤ إلى مجتمع النفط سنة ١٩٣٢، وإلى مجتمع المدنية الذي بدأ مع استقلال البلاد سنة ١٩٧١، من خلال ٢٨ شخصية إنسانية حقيقية، حتى يدرك القارئ كيف ولماذا كانت مظاهر المعيشة وأحوالها دائمة التغير والتطور...

٧- عرض في كتابه السابع "رحلة مصري في أمريكا" انطباعاته الموضوعية عن الحياة في أمريكا حيث قدم كمًا هائلًا من المعلومات في مجالات شتى، تجعل قراءة هذا الكتاب ضرورة لكل مصري يعيش خارج بلاده حتى يستطيع الرد على كل الادعاءات الباطلة التي يطلقها البعض ضد مصر...

٨- "الله محبة... وكذلك الإنسان".. صوت قادم من الزمن الجميل، هؤلاء الذين مارسوا كتابة القصة المصرية باهتمام بالغ للقضية الاجتماعية، حيث كانت الحياة تفرز العديد من المشكلات الاجتماعية بالإضافة إلى وجود هم وطني وهو الاستعمار ووجوده غير المرغوب فيه. ونرى الكاتب يهتم اهتمامًا خاصًا بتفاصيل دقيقة في أحداث القصة، ويوظفها من أجل الدفاع عن الأصالة المصرية معتزًا بتلك الأصالة مشيدًا بها.. إن العمل الأدبي عنده هو في الأساس عمل فكري، إنه دقيق في إختياره أقرب العبارات لإبلاغ المعنى، فاللغة عنده تخبرك بما يجب إعلانه صراحة. ومن الواضح أنه يمتلك تلك الموهبة اللازمة لكاتب القصة الماهر، وهي التقاط الفكرة الجيدة وتوظيف فن القص من أجل إبرازها وإقناع القارئ بصدقها. إن مناقشة الفكرة التي يعرضها، والتحاور الذي يجيده، تجعل لقصصه مذاقًا خاصًا وفريدًا ومميزًا لفن القص عنده. واللغة عنده عربية سليمة صحيحة، تتسم بالرقة والبساطة والصحة العضوية... فلم يحاول استخدام غريب الكلمات والألفاظ، كما لم يحاول استخدام كلمات مشكوك في صحتها ونسبها إلى العربية. إنما استخدم لغة سهلة وظفها فنيًا بجدارة وأعاد إلى اللغة العربية نضارتها. إنها مجموعة جيدة وجديدة ويستحق كاتبها الإشادة "د. فتحي سلامة ناقد أدبي. دراسة نقدية للمجموعة مايو ٢٠٠٦".

٩- "زهرة الشوك"... مجموعة قصصية صاحبها كاتب خاص من لون فريد فهو مقل في إنتاجه ولكنه صادق فيما يكتب. إنه الكاتب الملتزم بفن الأدب، الحريص على أن يكون مخلصًا لفنه.. وهي تحوي خمس قصص فقط، في كل قصة ترى عالمًا مختلفًا وأشخاصًا مختلفين، ولكنها في مجموعها تحوي مضمونًا اجتماعيًا جديدًا وجريئًا.. إنه يحاول الغوص داخل النفس البشرية وتفاعلها مع الواقع المعيش. في قصة "زهرة الشوك" تجربة فريدة "وفاة الأب وطفلته لا تدري ما هي الوفاة" صورها المؤلف ببراعة شديدة. وقصة "يستوفى التحقيق" شهادة لمحقق وطني عاش تجربة السلب العام في القاع العام.. أما "التقاليد اللعينة" فهي قصة عاطفية شديدة الرومانسية كتبها المؤلف بروح إنسانية وبعبارات دلت على مدى حرصه على استخدام اللغة في موضعها بإجادة تامة... إن المجموعة قد حظيت باهتمامي، لهذا أعدت قراءتها عدة مرات "د. فتحي سلامة الناقد الأدبي، جريدة الأهرام بتاريخ ٢٠٠٧/٦/٣".

- كتب الشعر باللغة الإنجليزية – نشرته الموسوعات المتخصصة في الولايات المتحدة الأمريكية منذ عام ١٩٨٥، حتى عام ١٩٩٢- في شكل القصيدة العربية، فكل سطر –بيت- ينقسم إلى شطرين، مع التزام بالقافية لكل بيتين متتاليين بتوحيد الحروف الأخيرة منهما مع الحركة السابقة عليها، وكذلك الإلتزام بالإيقاع الداخلي لموسيقى البيت. وقد رشحت إحداها- حديث جسد **A body Talk**- للجائزة الأولى في مسابقة الشعر الكبرى **Amateur Poetry Contest**. التي انعقدت في ميرلاند في شهر ديسمبر سنة ١٩٩١، وكان مرشحًا لنيل الجائزة الكبرى.. "شاعر عام ١٩٩٢ + ٥٠٠٠.٠٠$ + عقد نشر كتاب" وأوقف إعلان النتيجة ورفع اسمه في آخر لحظة، لمخالفة ذلك لأحكام قانون المطبوعات الذي يشترط أن يكون المرشح للجائزة أمريكي الجنسية.

- يحب السفر والرحلات وقد زار أكثر من ست عشرة دولة عربية (البحرين – المملكة العربية السعودية – المغرب – تونس) وأفريقية (زيمبابوي – جنوب أفريقيا) وأوروبية (اليونان – تركيا – بلغاريا – المجر – ألمانيا – فرنسا – هولندا – إنجلترا) وأمريكية (الولايات المتحدة الأمريكية –كندا).

١٠- " ثورة شعبية.. لا هوجة عرابي"، دار هبة النيل العربية للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠١٢

١١- تونس..الخلفية التاريخية والاجتماعية (من أدب الرحلات). دار هبة النيل العربية للنشر، القاهرة ، ٢٠١٣

١٢- التطور التاريخي للزواج في المجتمع المصري، دار هبة النيل العربية للنشر، القاهرة، ٢٠١٥

١٣- الزواج وتطور المجتمع، الطبعة الثانية، وكالة الصحافة العربية، القاهرة، ٢٠٢٠

١٤- الزواج في المجتمع المصري الحديث، وكالة الصحافة العربية، الجيزة ٢٠٢١.

١٥- تحت الطبع: التطور التاريخي للزواج، نحو قانون موحد للأحوال الشخصية.

١٦ تحت الطبع : الزواج والطلاق في مجتمع البحرين.

الفهرس